

الدعاء عند أهل البيت (عليهم السلام)

محمد مهدي الآصفي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

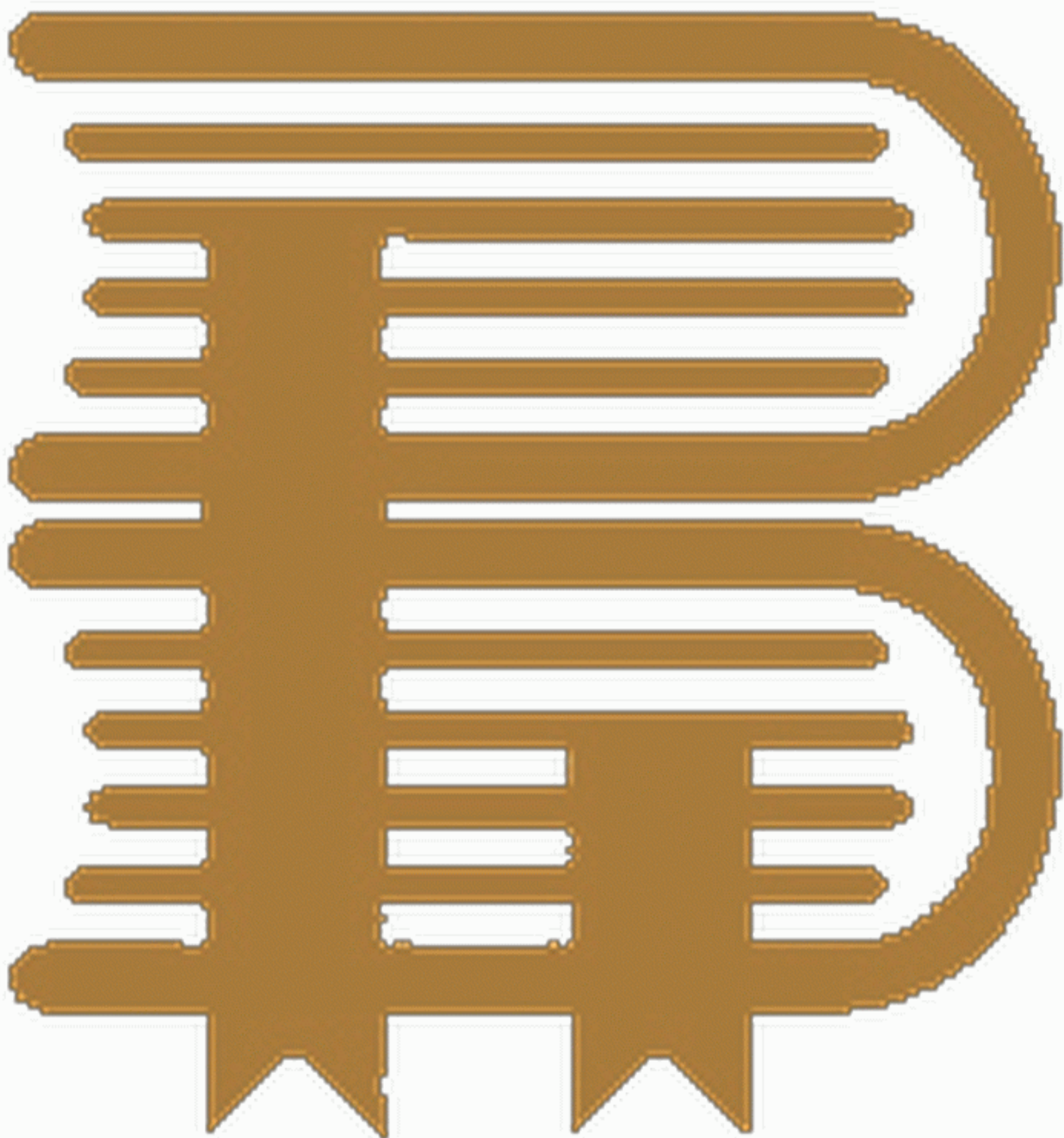


مكتب التخطيط
وتقنية التعليم

الدّعا عند اهل البيت عليه السلام

محمد مهدي الآصفي

شبكة كتب الشيعة



جامعة المصطفى العالمية

أصفي، محمد مهدي -
 الدّعا عند اهل البيت (ع) / تأليف محمد مهدي الاصفي، اعداد جامعة المصطفى (ع) العالمية،
 مكتب التخطيط و تقنية التعليم - قم: جامعة المصطفى (ع) العالمية، ١٣٨٧.
 ٣٢٧ ص. - (مكتب التخطيط و تقنية التعليم؛ ٦)
 ISBN: 978-964-7741-16-3 ٢٠٠٠ ريال
 فهرستتويسي بر اساس اطلاعات فيها.
 عربي.
 كتابنامه: ص. [٣٢٥] - ٣٢٧، همچنين به صورت زيرنويس.
 چاپ چهارم: ١٤٢٩ ق. = ١٣٨٧
 ١. دعا. الف. جامعة المصطفى (ع) العالمية، دفتر برنامه ريزي و فن آوري
 آموزشى. ب. عنوان.
 ٢٩٧ / ٧٧ BL ٢٢٦ / ٥ د ٧
 ٦٢٢ - ٨٠ م كتابخانه ملي ايران

الدّعا عند اهل البيت (ع)
 المؤلف: محمد مهدي الأصفي
 الطبعة الرابعة: ١٤٢٩ ق / ١٣٨٧ ش
 الناشر: منشورات جامعة المصطفى (ع) العالمية
 المطبعة: اميران ● السعر: ٤٠٠٠٠ ريال ● عدد الطبع: ٢٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة للناشر.

التوزيع:
 قم، شارع بهار، قرب هتل الزّهراء (ع)، منشورات جامعة المصطفى (ع) العالمية
 هاتف - فاكس: ٠٢٥١٧٧٤٩٨٧٥

www.eshranq.com
 E-mail: public-relations@Qomickia.com

كلمة الناشر

لا شك ان وضع تقنية التعليم ذات فاعلية ومرونة لا يتيسر إلا اذا كانت بمستوى تطلّعات الحياة الحديثة والتطورات الهائلة التي شهدها العلم في فروع المعرفة لا سيما في حقل المعلومات والثورة المعلوماتية والتي بدأت تجتاح كافّة مناحي الحياة وتلحّ على ضرورة وضع تقنية التعليم عصرية واعداد متخصصين.

وفي الاطار ذاته فقد اذى ذبوع الثقافة السلطوية في العالم والعولمة الثقافية من قبل وسائل الاعلام المرئية وغير المرئية الى ظهور مستجدات وشبهات حادة وعالقة لا يمكن اجهاضها الا من خلال انشاء مراكز تعليمية تأخذ على عاتقها وضع تقنية التعليم عصرية وتجنيّد الطاقات العلمية في سبيل نشر افكار ايجابية بناءة وقيم متعالية باسلوب حديث بغية تحصين عقائد المسلمين من الانهيار امام تلك الشبهات.

إن انتعاش هذه المراكز رهن نظام تعليمي دقيق وثابت ومجرب، وتشكّل البرامج التعليمية وتقنية التعليم الأساتذة، عموده الفقري.

إن فاعلية البرامج التعليمية تكمن في تجاوبها مع متطلّبات العصر، وتوافر الإمكانيات، ومؤهلات الطلاب. كما أن تقويم تقنية التعليم يعتمد الى حدّ كبير على طرحها لآخر المنجزات العلمية بأحدث الأساليب المتبعة في التربية والتعليم.

هذه المراكز بحاجة الى تقويم دائم، وإعادة نظر في تقنية التعليم، وتجديدها بأرقى الأساليب ووفق آخر ما وصلت إليه التقنيات العلمية، بغية الحفاظ على مستوى نشاطها العلمي.

إنَّ حوزات العلوم الدينية التي تقع على عاتقها مهمة إعداد علماء الدين ونشر المبادئ الإسلامية، غير مستثناة من هذه القاعدة باعتبارها من مؤسسات التعليم الديني. ومن حسن الحظ، فإنَّ الحوزات العلمية - وبرزكة الثورة الإسلامية - أخذت منذ سنوات عدّة تفكّر جدّاً في إصلاح نظامها التعليمي، وتجديد النظر في تقنية التعليم. وانطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، قامت جامعة المصطفى عليه السلام العالمية - التي تمثّل جزءاً من هذه المجموعة، وتضطلع بمهمة تعليم الطلاب - قبل غيرها من سائر المؤسسات التابعة للحوزة بإنشاء «مكتب التخطيط وتقنية التعليم».

هذا المكتب مع تمييزه للجهود المضنية التي بذلها العلماء في سبيل التجاوب مع هذه الحاجة واقتطافه ثمار نتاجاتهم العلمية، سعى إلى تنظيم تقنية التعليم وفق برامج جديدة مستوحاة من الأساليب التعليمية المعتمدة على آخر المنجزات العلمية. وقد أنجزت حتى الآن - بفضل همّة وإرادة الباحثين وفضلاء الحوزة - الخطوات الأولى لهذا المشروع من خلال تأليف ما يربو على ثمانين كتاباً دراسياً في مجالات العلوم الدينية - الإنسانية المختلفة.

والكتاب الذي بين يديك الدعاء عند أهل البيت عليه السلام يمثل أحد النماذج المختارة من هذه الكتب. ويعدّ هذا الكتاب خطوة راسخة على هذا الطريق، وجهداً يستحق التقدير بذله العالم المتفصل سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي، فشكراً متواصلاً له ولجميع الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل.

وفي الختام لابدّ من القول: إن أيّ عمل لا يكاد يخلو في بداياته من زلات وهفوات ولذا فإننا نتطلّع إلى أصحاب العلم والفضيلة الذين نأمل أن لا يرضنوا علينا بأرائهم الصائبة، فهذا التطلع هو مهمّاز شروعا في العمل، ومبعث أملنا بمستقبل زاهر.

مكتب التخطيط وتقنية التعليم
جامعة المصطفى عليه السلام العالمية
١٣٢٩ق / ١٣٨٧ش

الفهرس

٩	تعريف الدعاء
١٢	قيمة الدعاء
١٤	المناهل الاربعة للورود على الله في القرآن
١٦	الدعاء جوهر العبادة
١٨	الإعراض عن الدعاء إعراض عن الله
١٩	ان الله يشفق الى دعاء عبده
٢٣	استجابة الدعاء
٢٥	الدعاء محفوف بالتوفيق والاستجابة
٢٦	قيمتان للاستجابة
٢٩	علاقة الاستجابة بالدعاء
٣٠	الدعاء مفتاح الرحمة
٣١	العمل والدعاء مفتاحان لرحمة الله
٣٣	العلاقة بين الدعاء والعمل
٣٧	العلاقة بين الدعاء والاستجابة
٤٠	الحاجة قبل الوعي والرفع إلى الله
٤٥	الحاجة بعد الوعي والطلب «الفقر الواعي»
٤٦	القوانين الثلاثة في علاقة الدعاء بالاستجابة
٤٨	أمارات وعي الفقر إلى الله
٥٦	«التأجيل» و«التبديل» في الإجابة
٥٨	عندما يتقلب «الدعاء» إلى «عمل»
٦٣	المنازل الثلاثة للرحمة
٧٣	آداب الدعاء وشروطه
١١١	العوائق والعقبات
١١٤	الدور المزدوج للقلوب في الأخذ والطاء
١١٨	العوامل التي تؤدي إلى انغلاق القلوب
١١٩	بالذنوب تنتكس القلوب
١٢٠	بالذنوب يفقد الانسان حلالة الذكر
١٢١	الذنوب التي تحبس الدعاء
١٢٢	«عوائق» و«عوامل» صعود الاعمال
١٢٣	عوائق صعود الاعمال
١٢٦	عوامل صعود الاعمال الى الله
١٢٩	الوسائل التي ننتفحها الى الله في الدعاء
١٣٣	التوسل برسول الله واهل بيته
١٣٣	الوسائل الى الله في دعاء كميل
١٣٤	الاطار العام لدعاء كميل

١٣٥	فكرة تصميم الدعاء
١٤١	الوسائل الاربعة في دعاء كميل
١٥١	ما ينبغي وما لا ينبغي من الدعاء
١٥٣	ما ينبغي من الدعاء
١٥٣	الصلاة على محمد وآل محمد في الدعاء
١٥٥	نموذج من الصلاة على محمد وآل محمد
١٥٦	الدعاء للمؤمنين
١٥٧	التصميم في الدعاء للمؤمنين
١٥٩	نماذج من التصميم في الدعاء
١٦٠	الدعاء لحماة ثغور بلاد المسلمين
١٦٢	الصيغ الثلاثة للدعاء في القرآن
١٦٥	تحليل وتفسير للنوع الثالث من الدعاء
١٦٩	التخصيص في الدعاء للمؤمنين
١٧٥	الدعاء للوالدين
١٧٦	دعاء الانسان لنفسه
١٧٧	التصميم في الدعاء
١٨٠	ولا تحميتنا جلائل الحاجات عن صفارها
١٨٢	نسأل الله تعالى النعم الجليلة والكبرى
١٨٣	الإجابة إلى التدبير الإلهي في الدعاء
١٨٦	التماس وجه الله من الله
١٨٧	ما لا ينبغي من الدعاء
١٩٠	الدعاء بما لا يحل
١٩١	تمنى زوال نعمة الغير
١٩٢	الدعاء بخلاف صلاح الانسان
١٩٣	الاستعاذة من الفتنة
١٩٤	ومما لا ينبغي من الدعاء، الدعاء على المؤمنين
١٩٧	القلوب المتحابة تستنزل رحمة الله
١٩٨	اضمار الفش للمؤمنين يستنزل غضب الله
١٩٨	اضمار السوء للمؤمنين يحجب العمل عن الله
١٩٨	والله تعالى لا ينظر الى الذين يبغضون المؤمنين
١٩٩	الحب الإلهي في أدعية أهل البيت عليه السلام
٢٠١	العلاقة بالله
٢٠٣	حب الله تعالى
٢٠٥	الإيمان والحب
٢٠٥	لذة الحب
٢٠٧	الحب يجبر عجز العمل
٢٠٩	الحب يجبر الانسان من العذاب
٢٠٩	درجات الحب وأطواره
٢١٧	حالتا الشوق والانس في الحب
٢٣٠	صورة أخرى
٢٣٣	واردات القلوب ورواؤها
٢٣٦	أصل الاختيار

٢٣٧	عودة الى المناجاة
٢٣٩	الدعاء قاع وقمة
٢٤١	الوسائل الثلاثة
٢٥٢	صورة اخرى من صور الشوق الى الله
٢٥٥	اخلاص الحب لله
٢٥٧	غيره الله على عبده
٢٥٩	الحب لله وفي الله
٢٦٢	المصدر الاول للحب
٢٦٧	مصادر الادعية في تراث اهل البيت
٢٦٩	اهتمام اصحاب الأئمة بتدوين الاحاديث
٢٧٠	اصول الاربعمائه في الحديث
٢٧١	حرق تراث اهل البيت على يد طفرل بيك
٢٧٢	سلامة طائفة من تراث اهل البيت عن التلف
٢٧٢	سلامة طائفة من مصادر الادعية عن التلف
٢٧٣	الادعية التي سلمت لنا بواسطة كتاب مصباح المتعبد
٢٧٣	مصادر الادعية التي وصلت الى السيد ابن طاووس
٢٧٤	١٥٠٠ مصدر للحديث والدعاء عند السيد ابن طاووس
٢٧٥	١٥ كتاباً للسيد ابن طاووس في الادعية والاذكار
٢٧٦	مصادر الادعية المتأخرة عن السيد ابن طاووس
٢٧٩	الدعاء والقضاء والقدر
٢٨١	قانون المليّة في «التاريخ» و«الكون»
٢٨٣	علاقة الارادة الالهية بقانون المليّة
٢٨٤	حاكمة الارادة الالهية على قانون المليّة بنفس القانون
٢٨٥	قانون التسبب
٢٨٧	قانون التوفيق
٢٨٧	السلطان المطلق لارادة الله تعالى في الكون
٢٨٨	في العلاقة بين ارادة الله وقانون المليّة
٢٨٩	البداء في التكوين
٢٩٠	المحو والآليات
٢٩٢	مردود الايمان «بالبداء»
٢٩٣	الدعاء والبداء
٢٩٥	الزيارة: ابعادها التوحيدية والسياسية
٢٩٧	أسرة التوحيد في التاريخ
٢٩٨	التواصل واللقاء بين اجيال هذه الاسرة
٣٠٢	الزيارة
٣٠٤	دراسة للمفاهيم الواردة في نصوص الزيارات
٣٠٥	البُعد السياسي والحركي في الزيارات
٣٠٧	الشهادة
٣١٣	الموقف
٣٢٥	أهم المصادر والمراجع



تعريف الدعاء

تعريف الدعاء

الدعاء أن يطلب العبد حاجاته من الله تعالى.
ولدى التحليل يرجع هذا التعريف إلى الأركان الأربعة التالية:

١ - المدعو: وهو الله تعالى.

٢ - والداعي: وهو العبد.

٣ - والدعاء: وهو طلب العبد من الله تعالى.

٤ - والمدعو له: وهو الحاجة التي يرفعها العبد بالدعاء إلى الله تعالى،
وفيما يلي شرح وتوضيح لهذه الأركان الأربعة للدعاء.

١ - المدعو: المدعو في الدعاء هو الله تعالى:

١ - الغني المطلق الذي له ملك السماوات والارض: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١). ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ﴾^(٢).

٢ - والذي لا ينفد ملكه وسلطانه بالعطاء والبذل: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ
مِنْ نَفَادٍ﴾^(٣) ﴿كَلَّا نُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُورًا﴾^(٤).

وقد ورد في دعاء الافتتاح: «لا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً».

٣ - وليس من بخل و شح في ساحته، فلا يعجزه شيء، ولا يضيق ملكه بشيء من العطاء، ولا ينقص من ملكه شيء إذا جاد بما يحب على عباده، ولا يبخل على عباده بالإجابة لحاجاتهم. فليس من سبب إذن ألا يستجيب لدعاء عباده إذا دعوه فيما أهمهم من صغيرة وكبيرة وذلك قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ إلا أن لا تكون الاستجابة لصالح العبد، وهو لا يعرف ما يصلحه عما لا يصلحه والله تعالى يعرف ما يصلح عبده وما لا يصلح له. وفي دعاء الافتتاح: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور، فلم أر مولاً كريماً أصبر على عبدٍ لنسيم منك علي».

٢ - الداعي:

وهو العبد، الفقير في كل شيء، حتى في وعيه لفقره إلى الله تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾^(١).
﴿والله غني وأنتم الفقراء﴾^(٢).

ولا يرفع الإنسان إلى الله تعالى شيئاً أفضل من فقره إلى الله، والفقر إلى الله من منازل رحمة الله.

وكلما كان وعي الإنسان لفقره إلى الله تعالى أكثر كان أقرب إلى رحمة الله تعالى، وكلما استكبر ولم يستشعر فقره وحاجته إلى الله كان أبعد عن رحمة الله.

٣ - الدعاء: (الطلب)

وكلما يكون الإنسان أكثر إلحاحاً إلى الله تعالى في الطلب يكون أقرب إلى رحمة الله ... وأقصى درجات الطلب عند ما يضطر الإنسان إلى الله تعالى اضطراراً ليس له من أن يستجيب الله تعالى لحاجته بحد، ونعني بالاضطرار أن يفقد الإنسان كل الخيارات الأخرى، ولا يبقى له غير خيار واحد ويكون أمر ذلك الخيار بيد الله تعالى وليس بيده، فيضطر إلى الله تعالى اضطراراً ... وعند ذلك يكون الإنسان أقرب شيء إلى رحمة الله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(٣).

وليس بين دعاء المضطر وإجابة الله تعالى له بكشف السوء عنه أي فصل. وهذا الاضطراب في الدعاء والطلب هو بمعنى الانقطاع عن كل شيء غير الله تعالى والانقطاع إلى الله وحده، ومن دون ذلك لا يكون الدعاء والطلب اضطراباً إلى الله. وليس الدعاء يغني عن السعي والعمل، كما لا يغني السعي والعمل صاحبه عن الدعاء والطلب من الله تعالى.

٤- المدعو له:

وهو كل ما يدعو له الإنسان ربّه سبحانه وتعالى من حاجاته وطلباته. وليس على الإنسان من بأس أن يطلب من الله تعالى ما يشاء من حاجاته وطلباته، مهما كثر وكبر، فليس ذلك مما يعجز الله تعالى، ولا ينقص من ملكه وسلطانه، وليس من بخل وشح في ساحته تعالى.

كما ليس على الإنسان بأس أن يطلب من الله ما صغر من حاجاته «حتى شسع نعله وعلف دابته وملح عجينه» كما ورد في النص؛ فإن الله تعالى يحب أن يكون عبده على صلة دائمة به تعالى في كل صغيرة وكبيرة من حاجاته، لا تحجبه صغار حاجاته عن الله لصغرها، ولا تحجبه كبار حاجاته إلى الله تعالى لكبرها فتكون يده ممدودة لله تعالى في كل حاجة، صغيرة كانت أو كبيرة. ويكون قلبه موصولاً بذكر الله تعالى في كل حال في السراء والضراء. وليس من شيء يصل بين الإنسان والله تعالى كالدعاء والحاجة وهذه الأركان هي الأركان الأربعة للدعاء.

قيمة الدعاء:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

الدعاء إقبال العبد على الله، والإقبال على الله هو روح العبادة، والعبادة هي الغاية من خلق الإنسان.

هذه النقاط الثلاث تجسد لنا قيمة الدعاء وتوضح لنا حقيقته ولنبدأ بالنقطة الأخيرة، ومنها ندرج إلى الثانية ثم الأولى.

إن القرآن الكريم صريح وواضح في أن العبادة هي الغاية من خلق الإنسان. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) وهذه هي النقطة الأخيرة، وهي ذات أهمية كبيرة في هذا الدين.

وقيمة العبادة أنها تشد الإنسان إلى الله وتربطه به تعالى.

ولذلك فإن قصد التقرب إلى الله في العبادة أمر جوهري في تحقيقها. ومن دونه لا تكون العبادة، عبادة؛ فالعبادة في حقيقتها حركة إلى الله، وإقبال على الله، وقصد لوجه الله، وابتغاء لمرضاته.

وهذه الحقيقة الثانية، وهي توضح الحقيقة الأولى.

والحقيقة الأولى أن الدعاء إقبال على الله، ومن أبرز مصاديق الانشداد والارتباط بالله... ولا يوجد في العبادات عبادة تقرب الإنسان إلى الله أكثر من الدعاء. روي عن سيف التمار أنه قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «عليكم بالدعاء، فإنكم لا تتقربون بمثله»^(٢).

وكلما تكون حاجة الإنسان إلى الله أعظم، وفقره إليه تعالى أشد، واضطراره إليه أكثر يكون إقباله في الدعاء على الله أكثر.

والنسبة بين احساس الإنسان بفقره إلى الله واضطراره إليه تعالى، وبين إقبال الإنسان عليه سبحانه في الدعاء نسبة طردية. فإن الحاجة والاضطرار يُلجئان الإنسان إلى الله، ويقدر ما يشعر بهذه الحاجة يكون إقباله على الله، كما أن العكس أيضاً كذلك.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَلَمْ يَرَأْ أَنَسْتَفْتِي﴾^(٣).

إن الإنسان ليطغى ويعرض عن الله بقدر ما يتراءى له أنه قد استغنى، ويقبل على الله بقدر ما يعي من فقره وحاجته إلى الله. وتعبير القرآن دقيق ﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾. فلا غنى للإنسان عن الله، بل الإنسان فقر كله إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا

النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(١)
ولكنه يتراءى له أنه قد استغنى، وغرور الإنسان هو الذي يخيل إليه ذلك.
فإذا تراءى له أنه قد استغنى عن الله، أعرض ونأى بجانبه وطغى.
فإذا مسه الضرر، وأحس بالاضطرار إلى الله، عاد وأقبل عليه.
إذن الدعاء في حقيقته إقبال على الله.
ومن يدع الله تعالى، ويتضرع إليه فلا بد أن يقبل عليه تعالى.
وهذا الإقبال هو حقيقة الدعاء وجوهره وقيمه.

المناهل الأربعة للورود على الله في القرآن:

والدعاء من أهم المناهل التي جعلها الله تعالى لعباده للورود عليه.
وقد بين الله تعالى لنا في القرآن أربعة مناهل للورود عليه، في جملة
المناهل التي ورد ذكرها في القرآن والسنة.
عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «أربعة للمرء له لا عليه: (الإيمان) و(الشكر)،
فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾^(٢).
(الاستغفار) فإنه تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا
كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣).
(الدعاء) فإنه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٤).
وعن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «يا معاوية! من
أعطي ثلاثة لم يحرم ثلاثة: من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر
أعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية: فإنَّ الله تعالى يقول في كتابه:
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٥).
ويقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٦).
ويقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٧).

(٣) الأنفال: ٣٣.

(٢) النساء: ١٤٧.

(١) فاطر: ١٥.

(٥) الطلاق: ٢.

(٤) الفرقان: ٧٧، بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩١.

(٦) إبراهيم: ٦.

(٧) المؤمن: ٦٠، وراجع للحديث: الخصال للصدوق: ١ / ٥٠؛ المحاسن للبرقي: ٣؛ الكافي: ٢ / ٦٥.

وعن عبدالله بن وليد الوصافي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «ثلاث لا يضرّ معهنّ شيء: الدعاء عند الكربات؛ والاستغفار عند الذنب؛ والشكر عند النعمة»^(١).

وهذه قنوات للارتباط بالله، وقنوات الارتباط بالله كثيرة منها التوبة؛ ومنها الخوف والخشية؛ ومنها الحب والشوق إلى الله؛ ومنها الرجاء؛ ومنها الشكر؛ ومنها الاستغفار.

وعلاقة الإنسان بالله يجب أن تنتظم طبق مجموعة متناسقة من هذه القنوات؛ ولا يصحح الإسلام نظرية وحدة طريق الارتباط. والدعاء من أهم وسائل الارتباط بالله والإقبال على الله. ذلك لأنّه لا شيء يلجئ الناس إلى الله كما تلجئهم إليه حاجتهم وفقيرهم. فالدعاء من أوسع أبواب الارتباط والعلاقة بالله. عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار: «الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي».

الدعاء جوهر العبادة

إذن الدعاء جوهر العبادة وروحها؛ فإنّ الغاية من خلق الإنسان العبادة؛ والغاية من العبادة الانشداد إلى الله. والدعاء يحقق هذا الانشداد والارتباط من أوسع الأبواب، وبأقوى الوسائل. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء مخ العبادة؛ ولا يهلك مع الدعاء أحد»^(٢).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «افزعوا إلى الله في حوائجكم، والجأوا إليه في ملماتكم، وتضرعوا إليه، وادعوه؛ فإنّ الدعاء مخ العبادة وما من مؤمن يدعوا الله إلّا استجاب؛ فإمّا أن يعجله له في الدنيا، أو يؤجل له في الآخرة، وإمّا أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا؛ ما لم يدع بمأثم»^(٣). وتكاد الرواية ترينا طريقة حركة الإنسان إلى الله في الدعاء وإقباله عليه. تأملوا: (افزعوا إلى الله في حوائجكم)، (والجأوا إليه في ملماتكم)، (وتضرعوا إليه).

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين»^(١).

وإنما كان الدعاء (عماد الدين)؛ لأنَّ قوام الدين هو التحرك إلى الله، والدعاء إقبال على الله.

ولما كانت حقيقة الدعاء هي الإقبال على الله كان الدعاء أحب شيء إلى الله وأكرم شيء عنده.

عن رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»^(٢).

وعن حنان بن سدير عن أبيه، قال: قلت للباقر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟ فقال: «ما من شيء أحب إلى الله من أن يُسأل ويُطلب ما عنده؛ وما أحد أبغض إلى الله عزَّ وجلَّ ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأله ما عنده»^(٣).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الدعاء: «الحمد لله الذي مرضاته في الطلب إليه، والتماس ما لديه؛ وسخطه في ترك الإلحاح في المسألة عليه» (دعاء يوم الأربعاء).

وفي دعاء كميل: «فإنَّكَ قضيتَ علىَّ عبادكَ بعبادتكَ، وأمرتهم بدعائك، وضمنتَ لهم الإجابة، فإليك يا ربَّ نصبتُ وجهي، وإليك يا ربَّ مددتُ يدي...».

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٨٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣١١.

(٣) مكارم الأخلاق: ٣١١ نفس المضمون في المعاسن للبرقي: ٢٩٢.

الإعراض عن الدعاء إعراض عن الله

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١) والاستكبار عن العبادة في هذه الآية الكريمة هو الإعراض عن الدعاء، فإن السياق يدعو إلى الدعاء. يقول تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وبعد ذلك مباشرة يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢).

إذن الإعراض عن الدعاء في هذه الآية الكريمة بحكم الاستكبار عن العبادة؛ لأنه إعراض عن الله.

وروي بهذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: «هي والله العبادة؛ هي والله العبادة».

وعن حماد بن عيسى عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ الدعاء هو العبادة؛ إِنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»^(٣).

ولا قيمة للإنسان عند الله إلا بالدعاء، وبمقدار الدعاء، ولا يعبأ الله تعالى بعبد إلا بقدر ما يدعوه ويقبل عليه ﴿قُلْ مَا يَغْبِؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٤).

وذلك لأن الدعاء في الحقيقة يساوي الإقبال على الله، كما أن الإعراض عن الدعاء إعراض عن الله

ومن يعرض عن الله فلا يعبأ الله به، ولا قيمة له عند الله.

(٢) المؤمن: ٦٠.

(١) المؤمن: ٦٠.

(٤) الفرقان: ٧٧.

(٣) وسائل الشريعة: ٤ / ٨٣١.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث: «وما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده»^(١).

وعن رسول الله ﷺ: «لتسألن الله أو ليغضبن عليكم، إن الله عباداً يعملون فيعطيهن، وآخرين يسألونه صادقين فيعطيهن، ثم يجمعهن في الجنة، فيقول الذين عملوا: ربنا عملنا فأعطيتنا، فيما أعطيت هؤلاء؟ فيقول: هؤلاء عبادي أعطيتكم أجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً، وسألني هؤلاء فأعطيتهم وأغنيتهم، وهو فضلي أوتيته من أشاء»^(٢).

إن الله يشفق إلى دعاء عبده :

إذا أقبل العبد بالدعاء على الله أحبه الله.

وإذا أعرض عن الله كرهه الله.

وقد يؤجل الله تعالى إجابة دعاء عبده المؤمن ليطول وقوفه بين يديه، ويطول إقباله عليه وتضرعه إليه ... فإن الله يحب أن يسمع تضرع عبده، ويشفق إلى دعائه ومناجاته.

روي عن العالم عليه السلام: «إن الله عز وجل ليؤخر إجابة المؤمن شوقاً إلى دعائه، ويقول: صوت أحب أن أسمعه. ويعجل دعاء المنافق، ويقول: صوت أكرهه»^(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «أكثرُوا من أن تدعُوا الله، فإن الله يحب من

(١) وسائل الشريعة: ٤ / ١٠٨٤، ح ٨٦٠٩. (٢) وسائل الشريعة: ٤ / ١٠٨٤، ح ٨٦٠٩.

(٣) بحار الأنوار: ٩٧ / ٢٩٦.

عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة»^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ في الأرض: الدعاء»^(٢).

وروي أن أبا جعفر الباقر عليه السلام كان يقول: «إنَّ المؤمن ليسأل الله عزَّ وجلَّ حاجة، فيؤخر عنه تعجيل إجابته حباً لصوته واستماع نحيبه»^(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد ليدعو فيقول الله عزَّ وجلَّ للملكين: قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فأني أحب أن أسمع صوته، وإنَّ العبد ليدعو فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته فأني أبغض صوته»^(٤).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد الولي لله ليدعو الله عزَّ وجلَّ في الأمر ينوبه، فيقال للملك الموكل به: إقض لعبدي حاجته، ولا تعجلها فأني أشتهي أن أسمع صوته ونداءه، وإنَّ العبد العدو لله عزَّ وجلَّ يدعو الله عزَّ وجلَّ في الأمر ينوبه، فيقال للملك الموكل به: اقض حاجته، وعجلها فأني أكره أن أسمع صوته ونداءه»^(٥).

والله تعالى يكره سؤال الناس بعضهم لبعض، ويحب للمؤمن أن يكرم نفسه ويده عن السؤال، ولكنَّه تعالى يحب سؤال المؤمنين منه، ويحب تضرعهم ودعاءهم عنده.

(١) وسائل الشيعة: ٤/ ١٠٨٦، ح ٨٦٦٦. (٢) وسائل الشيعة: ٤/ ١٠٨٩، ح ٨٦٣٩.

(٣) قرب الاسناد: ١٧١، أصول الكافي: ٥٢٦.

(٤) وسائل الشيعة: ٤/ ١١١٢، ح ٨٧٣١، أصول الكافي: ٥٢٦.

(٥) أصول الكافي: ٥٢٧، وسائل الشيعة: ٤/ ١١١٢، ح ٨٧٣٢.

عن رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ أَحَبُّ شَيْئًا لِنَفْسِهِ وَأَبْغَضُهُ لَخَلْقِهِ، أَبْغَضَ لَخَلْقِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَأَحَبَّ لِنَفْسِهِ أَنْ يُسْأَلَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ، فَلَا يَسْتَحْيِي أَحَدَكُمْ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَلَوْ شِئْتَ نَعْلُ»^(١).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْهِ فِي الْجَرَمِ الْعَظِيمِ، وَيَبْغِضُ الْعَبْدَ أَنْ يَسْتَخَفَّ بِالْجَرَمِ الْيَسِيرِ»^(٢).

وعن محمد بن عجلان قال : «أصابتني فاقة شديدة وإضاقة، ولا صديق لمضيق، ولزمني دين ثَقِيلٌ وَعَظِيمٌ، يَلْحَ فِي الْمَطَالِبَةِ، فَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ دَارِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ - لِمَعْرِفَةِ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَشَعَرَ بِذَلِكَ مِنْ حَالِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ قَدِيمَ مَعْرِفَةٍ، فَلَقِينِي فِي الطَّرِيقِ فَأَخَذَ بِيَدِي وَقَالَ : قَدْ بَلَغَنِي مَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، فَمَنْ تَوَمَّلَ لِكَشْفِ مَا نَزَلَ بِكَ؟

قلت : الحسن بن زيد. فقال : ائِذْنُ لَا يَقْضِي حَاجَتَكَ، وَلَا تَسْعَفُ بِطَلْبَتِكَ، فَعَلَيْكَ بِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ أَجُودُ الْأَجُودِينَ، فَالْتَمَسْ مَا تَوَمَّلَهُ مِنْ قَبْلِهِ، فَأَتَيْتُ سَمْعَةَ ابْنَ عَمِي جَعْفَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ يَحْدُثُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ فِي بَعْضِ وَحْيِهِ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِأَقْطَعَنَّ أَمَلُ كُلِّ أَمَلٍ أَمَلٌ غَيْرِي بِالْإِيَّاسِ، وَلَا كَسَوْنَهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ فِي النَّاسِ، وَلَا بُعْدَتَهُ مِنْ فَرْجِي وَفَضْلِي،

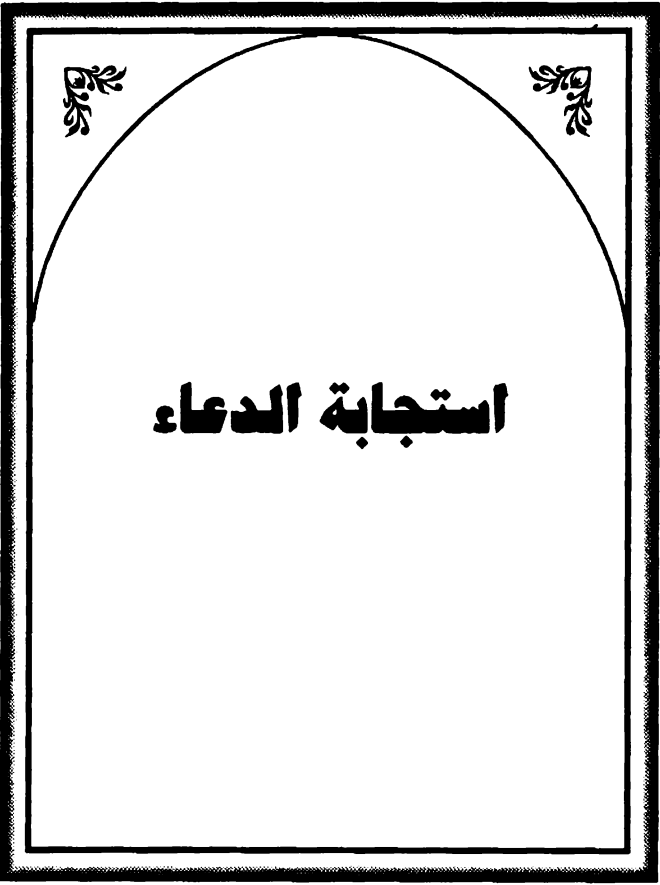
(١) فروع الكافي: ١/ ١٩٦؛ من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢٣.

(٢) المعاسن للبرقي: ٢٩٣، بحار الأنوار: ٩٣/ ٢٩٢.

أيا مل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي؟ ويرجو سواي وأنا الفنى
 الجواد؟ بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني.
 ألم تعلموا أن من دهاه نائبة لم يملك كشفها عنه غيري، فمالى أراه يأمله
 معرضاً عني، وقد أعطيته بجودي وكرمي ما لم يسألني؟
 فأعرض عني، ولم يسألني، وسأل في نائبة غيري، وأنا الله أبتدى بالعطية
 قبل المسألة.

أفأسأل فلا أجود؟ كلا. أليس الجود والكرم لي؟ أليس الدنيا والآخرة
 بيدي؟ فلو أن أهل سبع سماوات و أرضين سألوني جميعاً وأعطيت كل واحد
 منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي مثل جناح البعوضة، وكيف ينقص ملك أنا
 قيمه، فيا بؤساً لمن عصاني، ولم يراقبني.

فقلت له : يابن رسول الله، أعد عليّ هذا الحديث، فأعاده ثلاثاً، فقلت: لا
 والله ما سألت أحداً بعدها حاجة. فما لبث أن جاءني الله برزقي من عنده»^(١).



استجابة الدعاء

الدعاء محفوف بالتوفيق والاستجابة :

الدعاء محفوف برحمة الله من جانبين : بالتوفيق من جانب الله، وبلاستجابة من الله تعالى؛ فلا يقبل العبد على الدعاء إلا بتوفيق من الله، ومن دون أن يرزق الله تعالى عبده التوفيق للدعاء لا يتوفق العبد للإقبال على الله في الدعاء، ولا بدّ من هذا التوفيق قبل الدعاء، فإذا دعا العبدُ الله استجاب الله لدعائه : ﴿أُذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١). إذن يسبق الدعاء التوفيق من الله، وتلحق الدعاء الاستجابة من الله، والدعاء محفوف بهما، وهما بابان من أبواب رحمة الله، تفتحان على العبد قبل وبعد الدعاء، وقد روي عن رسول الله ﷺ : «من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة»^(٢).

وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : «فذكروك بسمك وشكروك...»؛ فإذا ذكر العبد ربّه فهو بعصمة من الله وفضله يستحق عليه الشكر من العبد. وعنه عليه السلام في مناجاة المطيعين من المناجاة الخمس عشرة المعروفة : «فأنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت».

إذن لا يذكر العبد ربّه إلا بعد أن يسبق هذا الذكر من فضل من الله، ولا

وسيلة للعبد إلى الله إلا بفضلہ ورحمته فإذا ذكر العبد ربّه فبفضل الله، وإذا دعاه فبتوقيفه تعالى، وإذا شكره فبرحمته، وفي دعاء «عرفة» يقول الإمام الحسين عليه السلام: «لم يمنعك جهلي وجراتي عليك أن دلتني إلى ما يقربني إليك ووفقتني لما يزلني لديك».

ومن رقائق الأدعية الدعاء بالتوفيق للدعاء، فيدعو العبد ربّه سبحانه وتعالى أن يرزقه التوفيق للدعاء. وقد ورد في أدعية الصحيفة عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «وأعمر ليلي بإيقاظي فيه لعبادتك، وإنزال حوائجي بك»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام في طلب التوفيق من الله تعالى: «فأعني على طاعتك، ووفقتني لما أوجبت عليّ من كل ما يرضيك، فإني لم أرَ أحداً بلغ شيئاً من طاعتك إلا بنعمتك عليه قبل طاعته، فأنعم عليّ بنعمة أنال بها رضوانك»^(٢).
وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة، وأسألك عند الحاجة وأتضرع إليك عند المسكنة ولا تفتني بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت»^(٣).

قيمتان للاستجابة:

للاستجابة من الله تعالى لدعاء العبد قيمتان، وليس قيمة واحدة. إحداها أعظم من الأخرى.

(٢) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٠.

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء: ٤٧.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء: ٢٠.

أما القيمة الدنيا فهي إنجاز المطلب والمسألة التي طلبها الإنسان من الله تعالى لدنياء أو آخرته، أو لهما معاً.

وأما القيمة العليا فهي نفس الإجابة من الله تعالى لعبده فإن في كل إجابة إقبال من الله تعالى على عبده، كما أن في كل دعاء إقبال من العبد على الله تعالى. ومهما كان شيء من ثمن وحساب وحدّ، فلا حساب ولا حدّ لقيمة إقبال الله تعالى على عبده.

ولا حدّ لسعادة العبد إذا كان موضع رعاية الله تعالى وعنايته وإقباله الخاص، وتلك سعادة ليس فوقها سعادة أن يخصّ الله تعالى عبداً من عباده فيقبل عليه، ويسمع منه، ويستجيب له، ويشعره بالاستجابة مهما كانت قيمة المطلب والمسألة التي طلبها العبد من الله تعالى، روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لقد دعوت الله مرة فاستجاب، ونسيت الحاجة، لأنّ استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجل مما يريد منه العبد، ولو كانت الجنة ونعيمها الأبد، ولكن لا يعقل ذلك إلاّ العالمون، المحبون، العابدون، العارفون، صفوة الله، وخاصته»^(١).

فالدعاء والإجابة إذن علاقة متبادلة بين الله تعالى وعبده، من أفضل ما تكون العلاقة وأشرفها، وأيّ علاقة بين الله تعالى وعباده أفضل من أن يقبل العبد على ربه بالحاجة والطلب والسؤال، ويقبل الله تعالى على عبده بالإجابة ويخصّه بها.

إنّ نشوة ولذة هذه العلاقة بالله وهذه العناية والتوفيق من الله تعالى لعبده،

حيث خصّه بمناجاته وذكره ودعائه، وأكرمه بدعائه ولقائه وقربه واستجابته... أقول: إنّ لذة هذه العلاقة بالله والعناية من الله تعالى لعبده تستغرق الإنسان، وتشغله عن حاجته التي رفعها إلى الله.

وأيّ لذة توازن هذه اللذة؟ أم أيّ متعة تعادل متعة الحضور بين يدي الله ولقاء الله ومناجاته وذكره والاشتغال بالنظر إلى جلاله وجماله، والوقوف بين يدي الله للدعاء نحو من الحضور بين يدي الله ولقاء الله، ومناجاته وذكره. يقول أحد العارفين: مما يقبح بالإنسان أن يطلب في حضور الله من الله غير الله، وأن ينشغل في حضرته تعالى بغير جلاله وجماله.

وقد روي عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن الله: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وانّ العبد لتكون له الحاجة إلى الله فيبدأ بالثناء على الله والصلاة على محمد وآله حتى ينسى حاجته فيقضيها من غير أن يسأله إياها»^(٢).

وفي مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام: «...اجعلنا ممن هيئت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك وفوّغت فؤاده لحبك، ورغبت فيما عندك... وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك»^(٣).

(٢) المصدر نفسه: ٣١٢.

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٣.

(٣) مناجاة المحبين من المناجاة الخمس عشرة.

علاقة الاستجابة بالدعاء :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

ما هي علاقة الاستجابة بالدعاء؟

وكيف تتم الاستجابة؟

هذا ما نحاول أن نتحدث عنه إن شاء الله في هذا الفصل من هذه المقالة.
إنَّ الاستجابة من عند الله تعالى تجري ضمن قوانين وسنن إلهية، كما هو شأنه تعالى في سائر أفعاله.

فليس في ساحة الله تعالى انفعال، كما هو الحال عندنا نحن البشر، إذا غضبنا وإذا رضينا، وإذا تذرنا، وإذا انشرحنا، وإذا نشطنا، وإذا مللنا.
وإنما فعل الله تعالى قانون وسنة، ولا يختلف ذلك في رضا أو غضب، أو بسط أو قبض، أو عطاء أو إمساك، كل ذلك يجري ضمن سنن وقوانين إلهية ثابتة.
وهذه السنن الإلهية، تجري في أفق الغيب (الميتافيزيقا) كما تجري في الفيزياء والكيمياء والميكانيك من غير فرق.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢).

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣).

فما هي سنة الله تعالى في استجابة الدعاء؟

(٢) الأحزاب : ٦٢.

(١) المؤمن : ٦٠.

(٣) فاطر : ٤٣.

الدعاء مفتاح الرحمة :

وقد ورد في النصوص الإسلامية التعبير عن العلاقة بين الدعاء والإجابة بأن الدعاء مفتاح الإجابة، وهذه الكلمة تقرر نوع العلاقة بين الدعاء والاستجابة. عن الإمام علي عليه السلام : «الدعاء مفتاح الرحمة»^(١).

وفي وصية للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ابنه الحسن : «ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه، بما أذن فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه»^(٢).

وللتعبير ظلال واضحة في العلاقة بين الدعاء والاستجابة (فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه).

إذن الدعاء هو المفتاح الذي نفتح به خزائن رحمة الله. وخزائن رحمة الله لا نفاذ لها، ولكن ليس كل الناس يملكون مفاتيح خزائن رحمة الله، وليس كل الناس يحسن فتح خزائن رحمة الله. وقد روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في قوله تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾^(٣) أَنَّهُ قَالَ : «الدعاء»^(٤).

أي إن الدعاء هو هذا المفتاح الذي به يفتح الله للناس أبواب رحمته، والذي جعله الله بيد عباده.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله : «من فتح له من الدعاء منكم فتحت له أبواب

(١) بحار الأنوار ٩٣ : ٣٠٠.

(٢) بحار الأنوار ٧٧ : ٢٩٩.

(٣) فاطر : ١.

(٤) بحار الأنوار : ٩٣ / ٢٩٩.

الإجابة^(١).

والله تعالى هو الذي يفتح للعبد بالدعاء، وهو الذي يفتح له أبواب الإجابة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قرع باب الله سبحانه فتح له»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «أكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل

حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، وليس باب يكثر قرعه إلا يوشك أن يفتح لصاحبه»^(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي»^(٤).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم، ويدرك

أرزاقكم؟ قالوا: بلى، قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء»^(٥).

العمل و الدعاء مفتاحان لرحمة الله :

والله تعالى جعل في أيدينا مفتاحين نستفتح بهما خزائن رحمة الله، ونطلب

بهما رزقه وفضله، وهذان المفتاحان هما: «العمل» و «الدعاء»؛ وكل منهما لا يغني عن الآخر.

(١) كنز العمال، رقم الحديث: ٣١٥٦. (٢) غرر الحكم، رقم الحديث: ٨٢٩٢.

(٣) بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٥؛ وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٦، ح ٨٦١٦.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٤، ح ٨٦٥٧؛ وأصول الكافي: ٢ / ٥١٧.

(٥) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٥، ح ٨٦٥٨.

فلا العمل يغني عن الدعاء، ولا الدعاء يغني عن العمل، فلا يصح أن يكتفي الإنسان بالدعاء عن العمل.

وقد روي عن رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أباذر، مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة تُرد عليهم دعوتهم: رجل جلس في بيته وقال: يا ربّ ارزقني، فيقال له: ألم أجعل لك السبيل إلى طلب الرزق؟...»^(٢).

ولا يصح أن يكتفي الإنسان بالعمل عن الدعاء.

روي عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله عبادة يعملون فيعطيه، وآخرين يسألونه صادقين فيعطيه، ثم يجمعهم في الجنة. فيقول الذين عملوا: ربّنا، عملنا فأعطيتنا، فيما أعطيت هؤلاء؟ فيقول: هؤلاء عبادي، أعطيتكم أجوركم ولم ألتكم من أعمالكم شيئاً، وسألني هؤلاء فأعطيتهم وأغنيتهم، وهو فضلي أوتيته من أشاء»^(٣).

وقد جعل الله تعالى الدعاء جابراً لعجز الإنسان في العمل، لئلا يعتمد الإنسان على نفسه، ويغتر بما أوتي من حول وقوة، وبما يقوم به من عمل. إذن العمل والدعاء هما مفتاحان من أعظم المفاتيح التي يستفتح الإنسان بهما رحمة الله.

ولسنا الآن بصدد البحث عن «العمل» وعلاقته بـ «رحمة الله» في مقابل

(١) وسائل الشريعة، أبواب الدعاء، باب ٣٢، ح ٣.

(٢) وسائل الشريعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٥٠، ح ٣.

(٣) وسائل الشريعة: ٤ / ١٠٨٤، ح ٨٦٠٩.

العلاقة بين «الدعاء» و «خزائن رحمة الله»، وعلاقة «العمل» بـ «الدعاء»؛ فإن هذه العلاقة من أمهات المسائل الإسلامية.

والله تعالى يعطي عباده بهما معاً «العمل والدعاء» ومعنى ذلك أن الله يعطي عباده «بما عندهم» و «ما ليس عندهم»، وما عندهم هو جهودهم وأعمالهم، وما يقدمون إلى الله من جهد وإنفاق من أنفسهم وأموالهم وهو «العمل»، وما ليس عندهم هو فقرهم وحاجتهم إلى الله، وعرض الفقر والحاجة على الله. وكل منهما من مفاتيح رحمة الله في حياة الإنسان، وبكل منهما يستنزل الإنسان رحمة الله، بما يرفع إلى الله من جهده وعمله ونفسه وماله، وبما يرفع إلى الله من حاجته وفقره وعدمه واضطراره.

العلاقة بين الدعاء والعمل :

وليس من الصحيح أن نفهم (الدعاء) فهماً منفصلاً عن سنن الله تعالى، فإن الله تعالى قد سنّ لعباده سنناً في الكون، في شؤونهم وحاجاتهم، ولا يصح للناس أن يهملوا هذه السنن في شؤونهم وحاجاتهم.

وليس الدعاء بديلاً عن هذه السنن، ولا يغني سلوك هذه السنن الإنسان عن الدعاء (أي أن سلوك هذه السنن لا يكون بديلاً عن الدعاء).

وفهم هذه النقطة من رقائق الثقافة الربانية في الإسلام، فلا يصح أن يكتفي الفلاح عن حرث الأرض وسقيها وتشذيب الأرض من الأعشاب الزائدة ورعاية الزرع ومكافحة الأمراض النباتية من مزرعته ... بالدعاء.

فإنّ هذا دعاء لا يستجاب وهو مصداق قول الإمام الصادق عليه السلام: «الداعي

بلا عمل كالرامي بلا وتر».

كما لا يستجاب دعاء المريض إذا أهمل الطبيب والدواء. وكيف يستجاب مثل هذا الدعاء وقد أعرض صاحبه عن سنن الله تعالى، فلا يستجاب دعاء إلا ضمن السنن الإلهية، فإن الذي يستجيب لدعاء عباده هو خالق هذه السنن في الطبيعة، وهو الذي أمر عباده بسلوك هذه السنن وأن يبتغوا رزقهم وحاجاتهم من خلال هذه السنن بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ...﴾^(١).

ويقول تعالى: ﴿فَانْثَرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢).

وكما لا يكون الدعاء بديلاً عن العمل كذلك لا يكون العمل بديلاً عن الدعاء. فإن مفاتيح هذا الكون بيد الله تعالى، والله يرزق عباده بالدعاء ما لا يقدر عليه بالعمل، ويوفق عباده بالدعاء للأسباب الطبيعية ما لا يقدر عليه بالعمل.

وليس معنى تمكين الله تعالى للإنسان من الأسباب الطبيعية للرزق أن الإنسان يستغني بالتعامل مع الأسباب الطبيعية من الدعاء والسؤال والطلب من الله تعالى.

فإن الله تعالى هو الباسط القابض، المعطي المانع، النافع الضار المحيي المهلك، المعزّ المذل، الرافع الواضع، بيده مفاتيح هذا الكون، ولا يمتنع عن أمره، شيء في هذا الكون، ولا يخرج عن أمره وسلطانه شيء، وكل قوة وسلطان ونافع

وضار في هذا الكون خاضع لأمره وحكمه وسلطانه، وليس لقوى الطبيعة في هذا الكون الرحيب وجود مستقل عن سلطان الله وإرادته حتى يستغني الإنسان بالتعامل معها عن الدعاء والطلب والسؤال من الله تعالى.

ونحن نستبح الله وننزهه تعالى عما يقول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(١) ونقول بما يقول القرآن: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٢).

فنتعامل مع الله في كل حال، ولا نفصل بين التعامل مع الله والتعامل مع السنن الذي جعلها الله تعالى وسائل لرزق عباده ونعتقد أنَّ هذه القوى والسنن تنفعنا وتضرنا في امتداد إرادة الله تعالى ومشيئته وسلطانه، وليس في عرض إرادته وسلطانه، ولا مستقلاً عن إرادته تعالى وسلطانه.

ونلمس يد الله تعالى ورحمته وفضله وحكمته في كل صغيرة وكبيرة من أمورنا وشؤوننا، ونلمس إرادة الله وتوفيقه وفضله في مسيرة حياتنا كلها، وفي كل منعطف من منعطفات حياتنا فنحن نحتاجه تعالى في كل لحظة ونفتقر إلى رحمته وفضله ورعايته وتسديده وتوفيقه وهدايته في كل لحظة من لحظات حياتنا، ندعوه تعالى أن يتولى كل أمورنا بالتسديد، والتأييد، والهداية، والتوفيق، ونعوذ بوجهه الكريم من أن يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ونسأله تعالى أن يتفرد بكل حاجاتنا وشؤوننا، ولا يحوجنا إلى غيره.

وليس معنى هذا الدعاء أن يعزل الإنسان حاجاته وأموره عن الناس والأسباب الطبيعية في هذا الكون، إذا دعا الله تعالى أن يتفرد بها ... وإنما معنى ذلك أن

يدعو الله تعالى ليُجعل حاجته إلى غيره تعالى في امتداد حاجته إليه تعالى، وأن يجعل اعتماده على غيره تعالى في امتداد اعتماده عليه تعالى، وأن يجعل تعامله مع غيره تعالى في امتداد تعامله مع الله تعالى، وليس في عرضه، ولا مستقلاً عنه... فكل هذا الكون أسباب مسخرات لله تعالى، سخرها لخلقها.

والتعامل مع هذه الأسباب، والأخذ منها، والاعتماد عليها في امتداد التعامل مع الله، والأخذ من الله، والاعتماد على الله ومن صلب التوحيد الذي يدعو إليه القرآن وليس مع الله ولا مستقلاً عن الله.

ومن هذا المنطلق نقول أن على الإنسان أن يدعو الله تعالى في كل شيء ويسأله كل شيء، في صفات أموره وكبارها من ملح عجيب خبزه، وعلف دابته، إلى الانتصار على الأعداء في ساحات المواجهة والقتال، ولا يعزل شأناً من شؤون حياته صغيراً أو كبيراً عن هذه الكلّية (كلية الدعاء والسؤال من الله)، ولا يستغني عن الله تعالى في شيء من حاجاته وطلباته بغير الله تعالى من خلقه، ويعوذ بالله تعالى أن يكله إلى نفسه طرفة عين في صغيرة أو كبيرة من صفات أموره أو كبارها.

وفي نفس الوقت، نعتقد أن هذا اللجوء العام إلى الله في كل شيء، والسؤال، والطلب من الله في كل شيء... لا ينافي أن يأخذ الإنسان مما خلق الله تعالى وسخر له في هذا الكون ويستعين به، فيدعو الله تعالى بالسلامة والشفاء لمرضه، ثم يأخذ بكل ما جعل الله تعالى في الطب من أسباب الشفاء والعلاج وبكل ما جعل الله تعالى في الدواء من أسباب الشفاء.

بل نعتقد أنَّ الإنسان إذا أُخْلٍ بهذا التوازن فدعا الله تعالى بمعزل عن سنن الله تعالى في هذا الكون لا يستجاب له الدعاء ويكون كالرامي بلا وتر. بهذا الفهم الدقيق والصافي يثَقَّننا الإسلام في التعامل مع الله تعالى ومع سنن الله في هذا الكون.

وبهذا الفهم نجد أنَّ نصوص الأدعية زاخرة بالطلب إلى الله تعالى أن يتفرد بأمر عبده جميعاً وأن لا يحوجه إلى غيره، وأن لا يكله إلى نفسه، وأن يصل حبله بحبله تعالى، ويقطعه عن كل شيء يقطعه عن الله.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء: «ولا تكنني إلى خلقك بل تفرّد بحاجتي، وتولّ كفايتي، وانظر إليّ، وانظر لي في جميع أموري»^(١).

وفي دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «اللهم ما أخاف فاكفني، وما أخطر فقني، وفي نفسي وديني فاحرسني، وفي سفري فاحفظني، وفي أهلي ومالي فاخلقني، وفيما رزقتني فبارك لي وفي نفسي فذلّني، وفي أعين الناس فعظمني ومن شر الجن والإنس فسلمني، وبذنوبي فلا تفضحني، وبسريري فلا تخزني، وبعملي فلا تبتلني، ونعمك فلا تسلبني، وإلى غيرك فلا تكنني»^(٢).

والآن نتحدث عن العلاقة بين الدعاء والاستجابة.

العلاقة بين الدعاء والاستجابة:

إنّ وعي الحاجة والفقر هو السر الذي نستطيع من خلاله أن نكتشف علاقة

(١) الصحيفة الكاملة السجادية، الدعاء: ٢٢. (٢) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

الدعاء بالاستجابة، ونفهم كيف يكون الدعاء مفتاحاً لرحمة الله، وكيف يستنزل الدعاء رحمة الله تعالى.

فإن كل دعاء يجسّد درجةً من وعي الفقر، ويعبّر عن مرتبة من مراتب وعي الحاجة إلى الله.

وبقدر ما يكون وعي العبد لحاجته إلى الله أكثر يكون دعاؤه أقرب إلى الاستجابة، وتكون رحمة الله أقرب إليه.

فليس من شغ ولا بخلٍ في رحمة الله تعالى، وإنما يختلف حظّ الناس من رحمة الله لإختلاف أواني نفوسهم وأوعيتها.

ومن عجب أن الحاجة والفقر، ووعي الحاجة والفقر هو وعاء الإنسان الذي ينال به رحمة الله، وكلما يكون وعيه لفقره إلى الله أكثر، يكون وعاءه الذي ينال به رحمة الله أكبر.

والله تعالى يعطي كلاً بقدر وعائه؛ وكلّ ينال من رحمة الله بقدر ما يتسع له وعاءه، وكلما كان وعاءه أكبر كان حظّه من رحمة الله أعظم.

ويمكننا في هذا السياق أن نختصر الدعاء في ثلاث كلمات:

١- الفقر إلى الله.

٢- وعي الفقر.

٣- رفعه ونشره وبثّه بين يدي الله.

والكلمة الثالثة تختلف عن الثانية والثانية تختلف عن الأولى.

فإنّ الفقر غير وعي الفقر. فقد يكون الإنسان وهو الفقير إلى الله في كل

مشيىء غير واع لفقره إلى الله.

وقد يكون واعياً لفقره إلى الله، ولكنه لا يحسن أن يرفع فقره إلى الله وينشره ويثبه بين يديه، ولا يحسن السؤال والطلب والدعاء من الله.

وعند ما تجتمع هذه الكلمات الثلاثة يتحقق الدعاء. والفقر هنا من الناحية الفلسفية ليس فقراً في الحدوث فقط، كما يفتقر البناء إلى المهندس والبناء، وإنما هو فقر في الحدوث والبقاء، كما في حاجة الإنارة الكهربائية إلى السيلال الإلكتروني، فإنّ المصباح يضيء ما دام السيلال الإلكتروني متصلاً، فإذا انقطع السيلال لحظة واحدة انقطع الضوء في نفس تلك اللحظة.

وفقر الإنسان إلى الله من هذا القبيل في الحدوث والاستمرار، ووجود الإنسان، ومواهبه وحركته وحياته كلها ترتبط بالله تعالى، وتفتقر إلى الله لحظة بعد لحظة، وبصورة مستمرة ومتصلة.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).^(١)

والحاجة والفقر تستنزلان رحمة الله تعالى وعاهما الإنسان أم لم يعهما، ورفعهما الإنسان إلى الله وعرضهما عليه تعالى أم لم يرفعهما، إلا أنّ الحاجة والفقر اللذين يعيها الإنسان، ويرفعهما إلى الله، وينشرهما بين يدي الله تعالى أقوى في اجتذاب رحمة الله.

وعليه فنحن نتحدث عن «الفقر» وعلاقته بـ «رحمة الله» قبل الوعي والرفع إلى الله، وبعد الوعي والرفع إلى الله.

الحاجة قبل الوعي و الرفع إلى الله :

إنَّ الحاجة إلى الله، بحدّ ذاتها تستنزل رحمة الله حتّى قبل الوعي والرفع إلى الله. ومثلها مثل الأرض الواطئة الهشّة التي تجتذب المياه، وتمتصّها.

كما أنّ مثل الاستكبار عن الله والغرور مثل الأرض الناتئة الصلدة التي تردّ الماء. كذلك المتسكبرون عن عبادة الله ودعائه يردّون رحمة الله تعالى فلا ينالهم منها شيء، وإن وسعت السماوات والأرضين. إنّ بين الفقر والرحمة علاقة تكوينيّة، كل منهما يطلب الآخر ويسعى إليه، الفقر إلى الله يسعى إلى رحمة الله، ورحمة الله تطلب مواضع الحاجة والفقر، كما أنّ بين ضعف الطفل وحاجته وبين حنان الأمّ وعطفها علاقة و صلة، كلّ منهما يطلب الآخر، ضعف الطفل يطلب حنان الأمّ، وحنان الأمّ ورحمتها يطلبان ضعف الطفل لرعايته.

بل في دائرة الممكنات كل منهما يحتاج الآخر، وليست حاجة الأمّ إلى رعاية ضعف الطفل بأقل من حاجة الطفل إلى حنان الأمّ.

كذلك العالم يطلب الجاهل ليعلمه، كما أنّ الجاهل يطلب العالم ليتعلّم منه، وليست حاجة العالم إلى تعليم الجاهل بأقل من حاجة الجاهل إلى التعلم من العالم.

والطبيب يطلب المريض ليداويه، ويعلن عن مهنته واختصاصه ليدعو المرضى إليه، كما أنّ المريض يطلب الطبيب، وليست حاجة الطبيب إلى المريض بأقل من حاجة المريض إلى الطبيب.

والقوي يبحث عن الضعيف ليحميه، كما أنّ الضعيف يبحث عن القوي

ليحتمي به، وليست حاجة القوي إلى أن يحمي الضعيف بأقل من حاجة الضعيف إلى الاحتماء بالقوي.

إنَّها سنة الله في كل شيء.

وكذلك في رحمة الله تعالى وفقر عباده، فكما أنَّ الفقر يطلب الرحمة كذلك الرحمة تطلب الفقر، والله تعالى تنزَّه صفاته الحسنی عن الحاجة، فلا حاجة في ساحة الله تعالى، ولكن رحمة الله تطلب مواضع الحاجة والفقر. ولا شحّ، ولا بخل في ساحة الله، واختلاف مراتب الرحمة يتبع اختلاف مراتب الحاجة والفقر.

إنَّ الأرض تحتاج إلى الحرارة، والنور، والماء، والهواء، لكي تُنبَت، فيهاها الله تعالى الحرارة، والنور، والماء، والهواء، وهذه الحاجة: طلب وسؤال، ولكن بلسان التكوين، وكلما يحتاجه «الشيء»، ويقتضيه بتكوينه، فهو طلبه وسؤاله، بلسان التكوين، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١) وما يحتاجه الشيء ويطلبه بلسان التكوين لا يتخلف عن الإجابة.

إنَّ الطفل الرضيع الذي لا يعي من نفسه شيئاً ليعطش ويشد به العطش فيعلمه الله تعالى أن يبكي ويصرخ، ويُعطف عليه قلب أمه وأبيه ليدركاه ويسقيه، وعطش الرضيع وجوعه يستنزلان رحمة الله تعالى وعطفه، من دون طلب ودعاء ويتألم المريض ويعاني من المرض فيستنزل مرضه وألمه رحمة الله تعالى. وإنَّا لنعصي الله تعالى ونرتكب الذنوب والمعاصي، فتطلب ذنوبنا

ومعاصينا عفو الله تعالى ومغفرته بالسؤال والدعاء، ومن دون سؤال ودعاء أحياناً، ما لم يتمرد العبد على مولاه ويقسو قلبه ويُطرد عن ساحة رحمة الله. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

وهذه العلاقة بين العفو والرحمة من الله والذنوب والمعاصي منّا، وبين قوة الله تعالى وضعفنا، وبين غنى الله تعالى وفقرنا، وبين شفاء الله تعالى لنا وأمراضنا، وبين إنقاذ الله تعالى لنا واضطرارنا إليه، وبين علم الله تعالى وجهلنا وشططنا حتى عن غير سؤال وطلب ودعاء....

أقول: إنّ هذه العلاقة من أسرار هذا الدين كما هي من أسرار هذا الكون وقوانينه. وما لم يفهم الإنسان هذا القانون في الكون، وفي علاقة الإنسان بالله تعالى، لا يستطيع أن يدرك طائفة واسعة من معارف هذا الدين وأسراره. وكم من مريض شفي برحمة الله من غير سؤال ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٢).

وكم من فقير جائع رزقه الله تعالى وأطعمه من جوع من غير سؤال ولا دعاء.

وكم من مضطر في لجج البحار أو تحت الأنقاض أو تحت ظلال السيوف أو في وسط الحريق، أدركته رحمة الله تعالى وأنقذته من غير سؤال ولا دعاء. وكم من ظمآن بلغ به الظما مبلغاً استنفد مقاومته فأدركته رحمة الله تعالى وأروته من غير سؤال ولا طلب.

وكم من إنسان واجه الأخطار، وكان على قاب قوسين منها وهو يعلم أو لا يعلم، فجاءه «ستر الله» فأنقذه منها.

وكم من إنسان وصل إلى طريق مسدود في حياته ففتح الله تعالى له ألف طريق، وكل ذلك من غير سؤال ولا طلب ولا دعاء، بل دون أن يعرف صاحبه الله تعالى كثيراً، فضلاً عن أن يعرفه فلا يطلب منه.

وكم من رضيع تدركه رحمة الله تعالى دون أن يطلب من الله، ودون أن يسأل الله تعالى^(١).

وقد ورد في دعاء الافتتاح:

«فكم يا إلهي من كربة قد فرجتها، وهموم قد كشفتها، وعثرة قد أفلتها، ورحمة قد نشرتها، وحلقة بلاء قد فككتها».

وورد في أيام رجب:

«يا من يعطي من سألته، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة».

(١) وهذا لا يعني أن الناس لا يموتون تحت الأنقاض في الزلازل، ولا يحترقون في الحرائق، ولا يهلكون في لبحج البحار، ولا يموت إنسان من المرض والألم، ولا يموت طفل رضيع. فقد صمم الله تعالى هذا الكون بموجب «الرحمة» و«الحكمة»؛ فإذا كانت حكمة الله تقتضي وقوع كارثة في إنسان أو حيوان أو نبات فلا يعني ذلك أن تنفي البعد الآخر من فضل الله تعالى وصفاته الحسنی، وهو الرحمة. ومن الناس ممن يخضع لسنن الله تعالى وحكمته في البلاء والضراء، لم يلمس رحمة الله تعالى الواسعة في اليسر والعسر، وفي اللحظات العرجة من حياته، ومن الناس من لم يتعرف على رحمة الله تعالى الواسعة في لحظات الاضطراب القصوى في حياته.

وفي المناجاة الرجبية:

(ولكن عفوك قبل عملنا).

إنَّ عفواً الله تعالى يطلب سيئاتنا.

إذن الحاجة والفقر من منازل رحمة الله تعالى، وحيث يكون الفقر وتكون الحاجة تجد رحمة الله تعالى.

وللعارف الرّومي الشهير بيت من الشعر في هذا الباب أذكر ترجمته.

يقول العارف الرّومي: «لا تطلب الماء واطلب الظمأ حتّى يتفجّر الماء من كل أطرافك وجوانبك».

وقد وردت الإشارة إلى هذه العلاقة بين رحمة الله تعالى وحاجة عباده وفقيرهم، في مناجاة بليغة ومؤثرة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نور فيما يلي طرفاً منها:

«مولاي يا مولاي، أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلا المولى؟ مولاي يا مولاي، أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلا المالك؟ مولاي يا مولاي، أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلا العزيز؟ مولاي يا مولاي، أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلا الخالق؟ مولاي يا مولاي، أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلا القوي؟ مولاي يا مولاي، أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلا الغني؟ مولاي يا مولاي، أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلا المعطي؟ مولاي يا مولاي، أنت الحي وأنا الميت، وهل يرحم الميت إلا الحي؟».

وهذه هي الحاجة قبل الوعي والطلب (الفقر غير الواعي).

الحاجة بعد الوعي و الطلب (الفقر الواعي):

وهي الحاجة التي يعيها الإنسان ويرفعها إلى الله.

فقد يعي الإنسان فقره إلى الله ويرفعه وينشره بين يدي الله، ويسأل الله

تعالى ويدعوه ويطلب منه، وهو الفقر الواعي.

وهذه الحاجة المقترنة بالوعي والطلب تستنزل رحمة الله أكثر من الشطر

الأول من الحاجة غير المقترنة بالدعاء.

ورحمة الله تنزل هنا وهناك، ولكن الحاجة إذا اقترنت بالطلب والدعاء

تكون أقوى في اجتذاب رحمة الله تعالى، ورحمة الله تستجيب لها أكثر مما

تستجيب لغيرها.

وإلى هذه الحاجة تشير الآية الكريمة من سورة النمل:

﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾. ^(١)

والآية الكريمة تركّز على نقطتين اثنتين: «اضطرار» و «دعاء»، ﴿الْمُضْطَرُّ

إِذَا دَعَاهُ﴾ ^(٢)، وكل منهما يجذب الرحمة، الإضطرار والدعاء؛ فإذا اجتمع

الإضطرار والدعاء فلا بد أن تهبط عندهما رحمة الله تعالى.

وقد ورد تأكيد بليغ في الإسلام على الدعاء والسؤال من الله، والإهتمام

برفع الحاجة إلى الله، ونشرها بين يديه عزّ شأنه، وابتغاء رحمته.

وتقترن الإستجابة بالدعاء في النصوص الإسلامية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. ^(٣)

(٢) النمل: ٦١.

(١) النمل: ٦١.

(٣) المؤمن: ٦٠.

ويؤكد القرآن أَنَّ قيمة العبد عند الله تعالى بدعائه: ﴿قُلْ مَا يَغْبِؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾. (١)

ويؤكد القرآن أَنَّ الصدود عن الدعاء استكبار عن عبادة الله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. (٢)

وواضح أَنَّ الاستكبار عن عبادة الله استكبار عن الله. والذي يستكبر عن الله يطرد من رحمة الله ويدخل جهنم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

القوانين الثلاثة في علاقة الدعاء بالاستجابة:

ونتساءل لماذا يكون هبوط الرحمة أشد إذا اقترنت الحاجة بالدعاء والسؤال، ولماذا تتأكد العلاقة بين الدعاء والاستجابة أكثر مما هي في الحالة السابقة بين الحاجة غير المقترنة بالدعاء ورحمة الله؟ إِنَّ الإجابة على هذا التساؤل في الحقيقة إجابة على السؤال الذي استفتحنا به هذا الفصل عن سرّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة وتحليل هذه العلاقة.

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إِنَّ الدعاء يستنزل رحمة الله تعالى من خلال ثلاثة قوانين:

القانون الأول: هو علاقة رحمة الله بالفقر والحاجة؛ وقد شرحنا هذا

القانون فلا نعيد. وكل حالة من حالات الدعاء تتضمن حالة الحاجة والفقر إلى رحمة الله. وهذا هو المنزل الأول من منازل رحمة الله.

القانون الثاني: في علاقة الفقر والحاجة بعد الوعي برحمة الله تعالى.

والفقر بعد الوعي يختلف عن الفقر قبل الوعي.

وكل منهما فقر وحاجة، وكل منهما يجتذب رحمة الله تعالى ويستنزلهما، ولكن أحدهما من الفقر غير الواعي والآخر من الفقر الواعي.

والفقر غير الواعي أن يفتقر الإنسان إلى الله وهو لا يعي فقره وحاجته إلى الله، بل قد لا يعرف الله.

والفقر الواعي أن يعي صاحبه فقره وحاجته إلى الله، وهذا الوعي يخرج الفقر إلى الله من دائرة الظلمة إلى النور والوعي، بينما الفقر غير الواعي يبقى في دائرة الظلمة، لا يشعر به صاحبه.

ولكن الفقير الذي يعي فقره إلى الله، يستدعي من رحمة الله وفضله ما لا يستدعيه الفقير الذي لا يعي فقره وحاجته إلى الله.

وكأنما وعي الفقر يركّز ويكرّس حالة الفقر، وكلما كان الفقر أكبر وأركز وأكثر تكريساً كان وعاء النفس لتقبل رحمة الله أوسع، وقد ذكرنا من قبل أن خزائن رحمة الله تعالى لا شغ فيها ولا عجز، وإنما أوعية الناس تختلف في تقبل رحمة الله، فمن كان وعاءه أكبر كان حظّه من رحمة الله أكثر؛ والوعاء هنا الفقر ولكن يتركّز الفقر وكلما كان الإنسان أوعى لفقره وحاجته إلى الله.

إنّ المجرم الخاطيء الذي يؤخذ لينقذ به حكم الإعدام وهو يعلم بذلك،

يستعطف قلوب الناس والحكام أكثر من المجرم الذي يؤخذ لتنفيذ حكم الإعدام به وهو لا يعلم إلى أين يذهب، علماً بأنهما يؤخذان إلى الإعدام على نحو سواء، إلا أن المجرم المعترف بجريمته والعارف بالعقوبة يستعطف الناس أكثر من غيره، لوعيه للجريمة والعقوبة وعدم وعي الثاني لهما.

أمارات وعي الفقر إلى الله :

ولوعي الفقر إلى الله في دعاء الإنسان أمارات وعلامات؛ فكلما يكون وعي الإنسان لفقره وحاجته إلى الله أكثر، تظهر هذه الأمارات في دعائه بشكل أوضح.

ومن أهم هذه الأمارات: الخشوع والخضوع والبكاء والتضرع والإقبال على الله، وحالة الاضطراب واللجوء في الدعاء إلى الله.

وقد ورد التأكيد في النصوص الإسلامية على هذه الحالات و الأمارات في الدعاء، وتأكيد دورها في استجابة الدعاء.

وفي الحقيقة إن هذه الأمارات تكشف عن تركيز العامل الثاني والثالث في الدعاء، وهما عامل «وعي الفقر» وعامل «الطلب والسؤال»، وكلما كان تضرع الإنسان وخشوعه واضطراره في الدعاء أكثر كان ذلك دليل وجود عمق أكثر للطلب والسؤال أولاً، ولوعي العبد لحاجته وفقره إلى الله ثانياً.

وهما سبب تأكيد استجابة الدعاء في هذه الأحوال. وقد ورد الأمر بهذه الحالات والترغيب إليها في القرآن الكريم نذكر جانباً منها.

يقول تعالى:

١- ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^(١).

٢- ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

والتضرع، والخوف حالتان تؤكدان وعي الإنسان لفقره إلى الله وحاجته إلى الأمن من جانب الله.

والطمع حالة تؤكد وعي الإنسان لرغبته فيما عند الله.

والخفية في الدعاء تمنح الإنسان الإقبال على الله.

٣- ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا وَقَدْ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

و فيه اعتراف وإقرار بالظلم من العبد بين يدي الله تعالى ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

والاعتراف بالظلم من وعي الظلم، وهو يعمق حالة الاستغفار واللجوء إلى

الله في نفس العبد المذنب، وكلما كان العبد أوعى لظلمه وذنبه كان اضطرابه ولجؤه إلى الله واستغفاره لله تعالى أكثر.

٤- ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٥).

(٢) الاعراف : ٥٦.

(١) الأنعام : ٦٣

(٤) الأنبياء : ٨٧.

(٣) الأنبياء : ٨٨ - ٨٧.

(٥) الانبياء : ٩٠.

والرغبة، والرغبة، والخشوع حالات نفسية تؤكد وعي الإنسان لفقره إلى الله، وخوفه من عقوبة الله ورغبته فيما عند الله من الرزق الحسن والثواب.

٥- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(١).

والاضطرار حالة نفسية تؤكد وعي الإنسان لحاجته وفقره إلى الله، ووعيه لانقطاع كل وسيلة وسبب للنجاة والنجدة إلا من عند الله.

٦- ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٢).

والإجابة من جانب الله تعالى تأتي على قدر وعي الإنسان لفقره واضطراره إلى الله، وعلى قدر الحاجة في السؤال والدعاء، يقول تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

وقرب رحمة الله تعالى من العبد يتناسب طردأً مع ما في نفس العبد من الخوف من عذاب الله والطمع في إحسان الله.

وكلما كان الخوف في نفس العبد أشد كان اللجوء إلى الله تعالى في نفسه أقوى، وكان دعاؤه لله تعالى أقرب إلى الاستجابة.

وكلما كان طمعه في ما عند الله من الرزق الحسن والثواب أكثر كان دعاؤه لله أقرب إلى الاستجابة.

القانون الثالث: في العلاقة بين الدعاء والاستجابة، وهي من أوضح

(٢) السجدة: ١٦.

(١) النمل: ٦١.

(٣) الأعراف: ٥٥.

القوانين التي يدركها الإنسان بفطرته، وعليه تنص الآية الكريمة: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)

فإن لكل دعوة إجابة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وهذا قانون فطري و واضح، يتقبله الإنسان بفطرته، وهو قانون عام إلا أن يمنع عن الإجابة عائق.

والعوائق التي تمنع عن الإجابة على نوعين: فمنها ما يرجع إلى المسؤول، ومنها ما يرجع إلى السائل.

والذي يرجع إلى المسؤول إما أن يكون من قبيل العجز عن الإجابة، أو من قبيل البخل والشح بالإجابة.

وقد يرجع إلى السائل نفسه، كما لو كانت الإجابة ليست في صالحه وهو يجهل ذلك، والله تعالى يعلم به.

أما النوع الأول من العوائق فلا وجود له في ساحة سلطان الله، فإن سلطانه سبحانه وتعالى سلطان مطلق، لا يعجز عن شيء ولا يفوته شيء، ولا يخرج عن سلطانه وقدرته شيء، ولا حد لجوده وكرمه، ولا تنقص خزائنه، ولا تزيد كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً.

إذن فلا يمكن أن نتصور عائقاً عن الإجابة من النوع الأول.

وأما العوائق التي ترجع إلى السائل فهي أمر ممكن، ويتفق كثيراً أن الله تعالى يؤخر إجابة دعاء عباده لا لبخل و شح في ساحته، ولا لعجز، ولكن لعلمه

بأن التأخير أصلح لحالهم، ويتفق كثيراً أن الإجابة تضر بالعبد، فلا يستجيب الله تعالى لدعوة عبده، ولكن يعوضه عن الإجابة بخير واسع في الدنيا، ومغفرة للذنوب أو درجات رفيعة في الآخرة، أو كل ذلك جميعاً.

ونحن هنا نتحدث عن النوع الأول من العوائق أولاً، ثم نتحدث عن النوع الثاني من العوائق ثانياً، ثم نتحدث عن العلاقة بين الدعاء والإجابة ثالثاً.

النوع الأول من العوائق :

أما العوائق من النوع الأول فلا وجود لها، كما ذكرنا في ساحة سلطان الله تعالى وجوده؛ فإن سلطان الله سلطان مطلق لا يعجز عن شيء، ولا يفوته شيء، ولا حدّ لسلطانه وقدرته، وكل شيء في الكون خاضع لسلطانه وقدرته، لا يمتنع عن إرادته وأمره شيء إذا قال له: «كن».

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا نَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

وليس في الكون شيء يخرج عن قبضة سلطانه وقدرته:

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

(٢) النحل : ٤٠.

(١) البقرة : ١٧.

(٤) الزمر : ٦٧.

(٣) يس : ٦٨.

(٥) آل عمران : ١٦٥.

وأمره سبحانه وتعالى نافذ لا يوقفه شيء، ولا يعلقه شيء، ولا يعيقه شيء.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ذلك من حيث سعة سلطانه وقدرته ونفوذ حكمه وأمره.

ولا وجود كذلك لشئ أو بخل في ساحته، فهو سبحانه وتعالى الجواد

الذي لا حد لجوده وكرمه.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^(٢).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾^(٣) وعطاؤه سبحانه عطاء ممدود

غير مجذوذ: ﴿كَلَّا نُسَبِّحُ هُوْلَاءِ هُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

مَحْظُورًا﴾^(٤). ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ ... عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾^(٥).

وإذا أراد الله إرسال رحمة فلا ممسك لها: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا

مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٦).

ولا نفاد لخزائن رحمته: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٧).

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٨).

ولا تنقضي خزائن رحمته بما يهب عباده من رزق، ولا تزيده كثرة العطاء

إلا جوداً وكرماً.

وفي دعاء الافتتاح: «الحمد لله الفاشي في الخلق أمره وحمده ... الباسط

(٢) غافر: ٧.

(١) النحل: ٧٧.

(٤) الاسراء: ٢٠.

(٣) الأنعام: ١٤٧.

(٦) فاطر: ٢.

(٥) هود: ١٠٨.

(٨) الحجر: ٢٠.

(٧) المنافقون: ٦.

بالجود يده، الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً».

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام برواية الشريف الرضي: «اعلم أنّ الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يفضحك حيث الفضيحة، ولم يشدد عليك في قبول الإجابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب.

فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبنتته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفت كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائها غيره، من زيادة الأعمار وصحة الأبدان، وسعة الرزاق.

ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب النعمة، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته، فإنّ العطية على قدر النية»^(١).

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، كلّم ضال إلا من هديته، فاسألوني الهدى اهدكم؛ وكلّم فقير إلا من أغنيته، فاسألوني الغنى أرزقكم؛ وكلّم مذنب

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل والكتب، الكتاب: ٣٦.

إلا من عافيته، فاسألوني المغفرة أغفر لكم ... ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم اجتمعوا فيتمنى كل واحد ما بلغت أمنيته، فأعطيته لم يستبين ذلك في ملكي ... فإذا أردت شيئاً فأتما أقول له كن فيكون»^(١).

النوع الثاني من العوائق :

أما النوع الثاني من عوائق إجابة الدعاء فكثيرة.

فقد تضر السائل إجابة الدعاء وهو يجهل ذلك، والله تعالى أعلم بحاله وصلاحه وفساده منه.

وقد يضره الاستعجال بإجابة الدعاء، والله تعالى يعلم أن التأخير في الاستجابة أصلح لحاله وأنفع له، فيؤخر الله تعالى الإجابة دون أن يلغىها أو ينفيها.

وفي دعاء الافتتاح: «فصرت أدعوك آمناً، وأسالك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلًا، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلك بعاقبة الأمور».

وقد يؤخر الله تعالى إجابة دعاء عبده، كي يطول قيامه وتضرّعه بين يديه تعالى، والله تعالى يحب أن يطول وقوف عبده وتضرّعه بين يديه؛ ففي الحديث القدسي: «يا موسى، إني لست بغافل عن خلقي، ولكني أحب أن تسمع صلاتك»^(٢).

(١) تفسير الإمام: ١٩-٢٠، بحار الأنوار: ٩٣: ٢٩٣.

(٢) عدة الداعي.

وعن الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيدْعُو فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَكَيْنِ: قَدْ اسْتَجَبْتَ لَهُ، وَلَكِنْ احْبِسُوهُ بِحَاجَتِهِ، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيدْعُو فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَجَّلُوا لَهُ حَاجَتَهُ فَإِنِّي أَبْغِضُ صَوْتَهُ»^(١).

ولكن حتى لو كانت الإجابة تضره فإنَّ الله تعالى لا يلغي الإجابة بشكل مطلق، وإنما يبده إلى كفارة لذنوبه، وغفران لها، أو إلى رزق يرزقه إياه في الدنيا عاجلاً، أو درجات رفيعة له في الجنة.

وفيما يلي نذكر ثلاثة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في هاتين الحالتين: «التبديل» و «التأجيل».

«التأجيل» و «التبديل» في الإجابة :

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من مسلم دعا الله سبحانه دعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم، إلا أعطاه الله إحدى خصال ثلاثة: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يؤخر له، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها» قالوا: يا رسول الله، إذن نكثر. قال: «أكثرُوا»^(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء مخ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلا استجاب له، إما أن يعجل له في الدنيا، أو يؤجل له في الآخرة، وإما أن يكفر من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم»^(٣).

ويقول أمير المؤمنين في وصيته لابنه الحسن عليه السلام كما في رواية الشريف

(١) وسائل الشيعية، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢١، ح ٣.

(٢) وسائل الشيعية: ١٠٨٦/٤، ح ٨٦١٧.

(٣) وسائل الشيعية، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ١٥، و ٤: ١٠٨٦، ح ٨٦١٨.

الرضي: «فلا يقتنظك إبطاء إجابته؛ فإنَّ العطية على قدر النية، وربما أُخِّرت عنك الإجابة؛ ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لمعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك. فربَّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته؛ فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفَى عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له»^(١).

وإذا جمعنا بين هذه النصوص نلتقي خمس حالات في الإجابة:

١ - «التعجيل» في الإجابة للحاجة التي يدعو الله تعالى بها العبد.

٢ - «التأجيل» في الإجابة للحاجة التي يسألها العبد من ربه.

٣ - «التبديل» في الإجابة وذلك بدفع السوء عن الداعي، إذا كانت إجابة الداعي إلى حاجته ليست في صالحه.

٤ - «التبديل» في الإجابة بما يرزق الله تعالى عبده من الدرجات والنعم والمنح في الآخرة، إذا كانت إجابة الداعي إلى طلبه ليست في صالحه.
عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملاً يزيدهم في الجنة»^(٢).

وفي حديث آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «والله ما أخر الله عزَّ وجلَّ عن المؤمنين ما يطلبون من هذه الدنيا، خير لهم عمّا عجل لهم منها»^(٣).

٥ - «التبديل» في الإجابة بما يكفر الله تعالى من ذنوبه وسيناته، إذا

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل والكتب، الكتاب : ٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٦، ح ٨٦١٥. (٣) قرب الاسناد: ١٧١؛ أصول الكافي: ٥٢٦.

كانت إجابة الداعي ليست في صالحه^(١).

وقد لا يكون التبديل والتأجيل لمصلحة الداعي فقط في حالتي تأجيل الإجابة وإلغائها، وإنما قد يكون ذلك لمصلحة النظام الذي يشمل السائل وغيره، فيكون في إجابة الدعاء أو التعجيل في الإجابة إخلال بمصلحة النظام الذي أقره الله تعالى للإنسان خاصة، أو الكون عامة.

عند ما ينقلب «الدعاء» إلى «عمل» :

إنَّ «الدعاء» و «العمل» مقولتان مختلفتان، وكل منهما من منازل رحمة الله، فإنَّ العمل يستنزِل رحمة الله تعالى كما يستنزِل الدعاء رحمة الله، يقول تعالى:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَتَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾^(٢).

﴿فَمَنْ يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٣).

وكذلك الدعاء من مفاتيح الرحمة ﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤).

ولكن ليس كل ما يسأله الإنسان ممكناً في حساب النظام الكوني العام، فقد يدعو الإنسان الله تعالى بما لا يمكن في حساب النظام العام (القضاء والقدرة)، فلا يستجاب الدعاء.

(١) الثلاثة الأخيرة تختص فقط بحالة إلقاء دعوة العبد، فقد يرزق الله تعالى عبده مع استجابة دعائه كفارة ذنوبه ودفع السوء عنه ودرجات رفيعة في الآخرة.

(٢) الزلزلة : ٧.

(٣) التوبة : ١٠٥.

(٤) المؤمن : ٦٠.

وقد لا تكون الإجابة أو الاستعجال بها في صالح صاحب الدعاء، فماذا يكون مآل هذا الجهد الذي يبذله الإنسان في الدعاء؟
والجواب: أنَّ الدعاء بنفسه يتحول إلى عمل وعبادة تستنزل رحمة الله عليه.

فلا يكون إذن (القضاء والقدر) من مشبطات الدعاء، فإنَّ الله تعالى إن لم يستجب لدعاء عبده، حوَّله إلى عمل وعبادة يجزيه بها في الدنيا والآخرة.
والنصوص الإسلامية تشير إلى هذا المعنى الدقيق في انقلاب الدعاء إلى العمل.

روى حماد بن عيسى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سمعتَه يقول: ادع، ولا تقل قد فرغ من الأمر^(١)، فإنَّ الدعاء هو العبادة»^(٢).
وفي حديث آخر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ادعه، ولا تقل قد فرغ من الأمر، فإنَّ الدعاء هو العبادة؛ إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ﴾^(٣)»^(٤).
العلاقة بين الدعاء والإجابة:

عرفنا أنَّ العوائق من النوع الأول منتفية من ساحة الله تعالى بشكل مطلق.
ولكن العوائق من النوع الثاني حقيقة قائمة وموجودة في حياة العباد

(١) يعني هذا الأمر من قضاء الله وقدره الذي لا يمكن تجاوزه واختراقه بالدعاء.

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٢، ح ٨٦٤٣؛ أصول الكافي: ٥١٦.

(٣) المؤمن: ٦٠.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٢، ح ٨٦٤٥؛ أصول الكافي: الفروع: ١: ٩٤.

وأدعيتهم، ولذلك فإنَّ الله تعالى قد يؤجل الاستجابة، وقد يبذل الإجابة. وفي غير هاتين الحالتين (حالة التأجيل وحالة التبديل) لا بد من الإجابة، وهذه الحتمية نابعة من حكم الفطرة القطعي، إذا كان السائل محتاجاً وفقيراً ومضطراً إلى المسؤول والمسؤول قادر على إجابة طلبه، ولا بخل ولا شح مع خلقه.

والقرآن الكريم يؤكد هذه العلاقة الحتمية^(١)؛ يقول تعالى:

١ - ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(٢).

فلا يحتاج المضطر في الإجابة لاضطراره، وكشف السوء عنه إلا إلى الدعاء ﴿إِذَا دَعَا﴾، فإذا دعاه سبحانه استجاب لدعائه، وكشف عنه السوء.

٢ - ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِبُونَ عَنِّ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣).

والآية الكريمة واضحة وصريحة في الربط بين الدعاء والاستجابة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤).

٣ - ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٥).

والعلاقة القطعية بين الدعاء والإجابة واضحة وصريحة في هذه الطائفة من آيات كتاب الله، وهي تدفع كل شك وريب من النفس في قطعية الإجابة من الله

(١) ليس معنى القول بحتمية هذه العلاقة فرض أمر على الله تعالى، فهو سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة :

﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأُنعام : ٥٤).

(٢) المؤمن : ٦٠.

(٣) النمل : ٦٢.

(٤) البقرة : ١٨٦.

(٥) المؤمن : ٦٠.

لكل دعاء، ما لم تكن الإجابة مضرّة بالداعي، أو بالنظام العام الذي يعتبر الداعي جزءاً منه، والاستجابة في هذه الآيات غير مشروطة ولا معلقة بشيء.

وأما الشروط التي سوف نتحدث عنها فهي في الحقيقة ترجع إلى تحقيق الدعاء وتثبيته، أو مصلحة الداعي نفسه، ومن دونها يضعف الدعاء أو ينتفي.

إذن فإنّ العلاقة بين الدعاء والاستجابة علاقة حتميّة لا يمكن أن تتخلف، وعلاقة مطلقة لا يمكن أن تتعلق، إلّا أن يكون الشرط مما يؤكد ويثبت حالة الدعاء، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعَاءُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(١).

وفي النصوص الإسلامية في أحاديث رسول الله ﷺ وأهل بيته  ما يؤكد ويعمّق هذه العلاقة بين الدعاء والإجابة. ففي الحديث القدسي: «يا عيسى! إني أسمع السامعين، أستجيب للداعين إذا دعوني»^(٢).

وعن رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسلك وادياً فيبسط كفيه، فيذكر الله ويدعو إلّا ملأ الله ذلك الوادي حسنات، فليعظم ذلك الوادي أو ليصغر»^(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث: «لو أنّ عبداً سدّ فاه، ولم يسأل لم يعط شيئاً، فسل تعط»^(٤).

وعن ميسر بن عبد العزيز عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «يا ميسر، إنه ليس من باب يقرع إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»^(٥).

(٢) اصول الكافي.

(١) التل: ٦٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٤، ح ٨٦٠٦.

(٣) نواب الأعمال: ١٣٧.

(٥) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٥، ح ٨٦١١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «متى تكثر قرع الباب يفتح لك»^(١).

وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي! أوصيك بالدعاء فإن معه الإجابة»^(٢).

وعن الصادق عليه السلام: «إذا ألهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أن البلاء قصير»^(٣).

وعن الصادق عليه السلام: «لا والله لا يلح عبد على الله عز وجل إلا استجاب الله له»^(٤).
والنصوص الإسلامية تؤكد هذه الحتمية والإطلاق في العلاقة بين الدعاء والإجابة، وتبين بشكل واضح وصريح أن الله تعالى يستحيي أن يرد دعاء عبده إذا دعاه.

وفي الحديث القدسي: «ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أردّه، ويعصيني ولا يستحيي مني»^(٥).

وعن الصادق عليه السلام: «ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبار إلا استحيى الله عز وجل أن يردّها»^(٦).

وفي الحديث القدسي: «من أحدث وتوضأ وصلّى ودعاني فلم أجبه فيما

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٥، ح ٨٦١٣.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢، ح ١٨.

(٣) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

(٤) أصول الكافي، كتاب الدعاء، باب الإلحاح في الدعاء، ح ٥.

(٥) إرشاد القلوب للدليمي.

(٦) عدة الداعي؛ وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٤، ح ١.

يسأل عن أمر دينه ودنياه فقد جفوته، ولست برُبِّ جانبٍ»^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما كان الله ليفتح باب الدعاء، ويفلق عليه باب الإجابة»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «من أُعطي الدعاء لم يحرم الإجابة»^(٣).

وفي النصين الأخيرين التفاتة ذات مغزى ونكهة علوية؛ فإنَّ الله تعالى كريم ووفي، فإذا فتح باب الدعاء فلا يمكن أن يغلق على العبد باب الإجابة، وإذا رزق العبد توفيق الدعاء فلا يمكن أن يحرمه الإجابة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما فتح لأحد باب دعاء إلا فتح الله له فيه باب إجابة، فإذا فتح لأحدكم باب دعاء فليجهد فإنَّ الله لا يمل»^(٤).

وهذا هو المنزل الثالث من منازل رحمة الله. اللهم سمعنا وشهدنا وآمنا.

المنازل الثلاثة للرحمة :

في قصة هاجر وإسماعيل عليهما السلام، وفي قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام نلتقي مشهداً فريداً أو نادراً من نوعه، في اجتماع منازل ثلاثة للرحمة في موضع واحد، وفي قصة واحدة، وهي الفقر والحاجة (أولاً) والدعاء والسؤال (ثانياً)، والسعي والحركة (ثالثاً) وذلك عند ما أودع أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر

(١) ارشاد القلوب للدليمي.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢، ح ١١٢؛ و: ٤ / ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٢؛ و: ٤ / ١٠٨٦، ح ٨٦٢٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٧، ح ٨٦٢٤.

في وادٍ غير ذي زرع وترك معها ابنتهما إسماعيل عليه السلام وهو يومئذ طفل رضيع، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

وذهب إبراهيم خليل الله بعد ذلك إلى شأنه كما أمره الله تعالى، وترك هذه المرأة والطفل الرضيع وحدهما في هذا الوادي القفر بأمر الله تعالى، فنقد ما كان لديهما من الماء، وعطش الطفل وغلب عليه الظمأ وبحث المرأة عن الماء فلم تجد له أثراً، وأخذ الطفل يصرخ ويضرب بيديه ورجليه، والأم تهول هنا وهناك، فتصعد على الصفا تارة، تنظر إلى الأفق البعيد بحثاً عن الماء، ثم تهبط وتهول باحثة عن الماء إلى جانب جبل المروة، وتدعو الله تعالى أن يرزقهما الماء في هذا الوادي القفر، والطفل يصرخ ويبكي ويضرب بيديه ورجليه عند البيت الحرام.

ففجّر الله تعالى الأرض بالماء تحت قدمي الطفل، فأسرعت الأم إلى الماء، لتروي طفلها الرضيع، وتللملم الماء لئلا يذهب هدرأً، فتقول للماء وهي تصنع له حوضاً يجمعه: «زم ... زم ...».

إنّ هذا المشهد العجيب استنزل يوم ذاك رحمة الله تعالى، ففجّر الله تعالى زمزم في وادٍ غير ذي زرع، وجعلها مصدراً ومبدأً لكثير من البركات على هذه الأرض المباركة.

وجعل الله تعالى هذا المشهد جزءاً من أعمال الحج، وثبته الله تعالى في واحد من أشرف فرائضه.

فما هو السر الكامن في هذا المشهد؟ ولماذا هذا الاهتمام به في أصل الدين، وتثبيته في الحج؟ وما هو السبب المؤثر والقوي الذي استنزل رحمة الله تعالى بقوة في هذا المشهد، وجعلها مبدءاً لبركات كثيرة في تاريخ أجيال الموحدين؟

فلا بد أن يكون هذا المشهد منظوياً على سرٍّ خاص استدعى نزول رحمة الله تعالى في ذلك الوادي القفر، واستدعى دوام هذه الرحمة وثباتها، وجعل منها مصدراً ومبدءاً لكثير من البركات، واستدعى أن يثبتها الله تعالى في حج أجيال الموحدين عند بيته الحرام.

إنني أعتقد - والله تعالى أعلم بأسرار هذا المشهد - أن هذا المشهد النادر كان يجمع يومئذ بين ثلاثة منازل من منازل رحمة الله تعالى، كل منها يستنزل رحمة الله.

وأول هذه المنازل: الحاجة التي كان يمثلها الظمأ الذي أضر بالطفل الرضيع، والحاجة والفقر إلى الله من منازل رحمة الله.

وكلّما أضر الفقر بصاحبه أكثر كان أقرب إلى رحمة الله، ولذلك نرى أن الأطفال الرضع إذا أضرّ بهم ألم أو جوع أو ظمأ أو برد أو حرّ، كانوا أقرب إلى رحمة الله من الكبار الذين يطيقون ذلك.

وذلك لأن الحاجة تضرّ بهم أكثر من غيرهم.

وقد ورد في الدعاء: «اللَّهُمَّ أعطني لفقري» والفقر إلى الله وحده يستنزل رحمة الله تعالى، وكلما كان الفقر إلى الله أعظم كان أدعى لنزول رحمة الله. فإنَّ الفقر إلى الله يجعل الإنسان عند رحمة الله، ويقرب الإنسان منه، سواء كان الإنسان يعي فقره إلى الله أم لا يعي، وإن كان وعي الفقر إلى الله يضاعف من قيمته وقدرته في استنزال رحمة الله تعالى، كما ذكرنا.

ولكن بشرط ألاَّ يحرف الإنسان الفقر عن موضعه، فيتصور أنه من الفقر إلى المال أو إلى حطام الدنيا، أو إلى بعض عباد الله بدل أن يعيه على واقعه من الفقر إلى الله.

وشتان بين هذا الفقر وذاك الفقر. والذي يستنزل رحمة الله تعالى هو الفقر إلى الله، فإذا حُرِفَ الإنسان هذا الفقر من الفقر إلى الله إلى الفقر إلى عباد الله، فقد الفقد قيمته في استنزال رحمة الله تعالى، وأكثر فقر الناس من هذا النوع.

وفي هذا المشهد كان صراخ الطفل وضجيجهِ وبكاؤه من شدة العطش مشهداً نافذاً مؤثراً في استنزال رحمة الله تعالى.

وليس في مشاهد الحاجة والفاقة إلى الله مشهد مؤثر ورقيق يستنزل رحمة الله تعالى، أكثر من مشهد طفل يتلظى من العطش، ولا تجد له أمه إلى الماء سبيلاً.

والمنزل الثاني لرحمة الله في هذا المشهد هو «السعي»، وهو شرط للرزق، ولا رزق من دون سعي، وقد جعل الله تعالى السعي والحركة في حياة الإنسان مفتاحاً للرزق.

وإذا كان عامل الفقر يتطلّب من الإنسان حالة الاضطراب والفاقة والحاجة، فإنّ عامل السعي يتطلب من الإنسان العزم والقوة والإرادة، والحركة والنشاط، وعلى قدر حركة الإنسان وسعيه وعزمه يرزقه الله تعالى من رحمته.

وقد تحركت أم إسماعيل عند ما نفذ عندهما الماء، وغلب الظمأ على إسماعيل تحركت للبحث عن الماء وسعت في طلبه، تصعد إلى الصفا مرة، تنظر في الأفق البعيد باحثة عن الماء، وتنزل من الصفا وتتجه إلى المروة تارة أخرى لتصعد عليه وتنظر إلى الأفق البعيد تبحث عن الماء، ورغم أنها استعرضت في هذه الحركة كل الأفق من على الصفا والمروة فلم تجد ماءً، لم تيأس وكررت هذه الحركة والصعود والنزول والهرولة من الصفا إلى المروة وبالعكس سبع مرات.

ولولا هذا الأمل والرجاء لا تقطع سعيها في الشوط الأول، ولكن الأمل والرجاء اللذين كانا يعمران قلبها العامر كانا يدعوانها كل مرة إلى إعادة السعي مرة أخرى، حتى فرّج الله عنهما وفجر زمزم تحت قدمي إسماعيل، ولكن الأمل هنا في الله وليس في سعيها، ولو كان أملها في سعيها لا تقطع أملها في المرة الأولى أو الثانية.

وقد جعل الله تعالى هذا السعي وهذه الحركة شرطاً للرزق، ولنزول رحمته على الإنسان، والله تعالى يرزق عباده، وينزل عليهم رحمته، ولكن الله تعالى شاء أن يكون السعي والحركة مفتاحاً لرزقه ورحمته.

والمنزل الثالث لرحمة الله تعالى في هذا المشهد هو دعاء أم إسماعيل، و

انقطاعها إلى الله واضطرارها إليه عزَّ شأنه في طلب الماء في هذا الوادي القفر غير ذي الزرع.

وكَلَّمَا انقطع الإنسان في دعائه إلى الله أكثر كان أقرب إلى رحمة الله. ولست أدري في أية حالة من حالات الانقطاع إلى الله كانت هذه المرأة الصالحة، في تلك اللحظات في ذلك الوادي، وليس من إنسان أو حيوان حولها، ووحدها الرضيع يتلظى عطشاً، ويكاد أن يلفظ آخر أنفاسه.

لقد انقطعت هذه المرأة إلى الله في تلك اللحظة انقطاعاً ضجَّت له ملائكة الله بالدعاء، وضموا أصواتهم إلى صوتها، ودعاهم إلى دعائها.

و لو أَنَّ الناس كلهم انقطعوا إلى الله بمثل هذا الانقطاع ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(١) وعَمَّتْهم رحمة الله تعالى.

عليك سلام الله يا أُمُّنا! أم إسماعيل من أبناك الذين آتاهم الله النور والهدى، والإيمان والنبوة ومن المهتدين بهداهم ونورهم، فلولا انفرادك في ذلك الوادي القفر غير ذي الزرع في هجير الحجاز، ولولا تلك المعاناة والمحنة لم تنقطعي إلى الله عزَّ وجلَّ بمثل هذا الانقطاع في ذلك الموقف العسير على جبلي الصفا والمروة، ولولا ذلك الانقطاع إلى الله، لم تنزل رحمة الله تعالى عليكما، ولولا تلك الرحمة لم يكن انقطاعك إلى الله وسعيك بين الصفا والمروة من شعائر الله في الحج.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ

يَطْلُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطْلُوَعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ^(١).

لقد ثبت الله تعالى يا أمنا انقطاعك إليه في ذلك الهجير، وسعيك إلى الماء وصراخ صغيرك إسماعيل في ذاكرة التاريخ، ليعرف الأجيال من بعدك كيف يستنزلون رحمة الله، وكيف يتعرضون لرحمة الله.

إن رحمة الله تعالى واسعة لا شخ فيها ولا نقص، ولا عجز، ولكن الناس لا يعرفون مواضع هذه الرحمة ومنازلها، ولا يحسنون التعرض لها والاستفادة منها. ومنك تعلمنا يا أمنا كيف نطلب منازل رحمة الله وكيف نتعرض لرحمة الله، ومنك يا أمنا أخذنا مفاتيح الرحمة.

وعذراً يا أمنا إذا كنا نحن أبنائك لم نحفظ هذه المفاتيح التي سلمتها إلى إسماعيل من بعدك، وتوارثها أبناء إسماعيل من إسماعيل وتوارثناها نحن من ابنك محمد المصطفى رسول الله ﷺ، فضيعناها فيما ضيعنا من تراث الأنبياء ومواريتهم.

لقد تعلمنا من أبنينا إبراهيم كيف نوحّد الله، وتعلمنا من أمنا هاجر كيف نسأل الله.

و في متاهات الهوى والطاغوت ضيعنا هذا وذاك.

فَاعْنَا اللَّهُمَّ عَلَى تَحْصِيلِ مَا ضِيعْنَا مِنْ تَرَاثِ أَبِينَا وَأُمِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَهَاجِرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَسْرَتِهِمْ، وَلَا تَطْرُدْنَا رَبَّنَا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِزْرَانَ عَلَى الْغَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً
بَتَّضَهَا مِنْ بَعْضِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

﴿وَرَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

لقد أخذت أمنا (أم إسماعيل) يوم ذاك في ذلك الوادي القفر، وفي رمضاء
ذلك الهجير بأسباب الخير كلها، وذلك هو السعي والدعاء والفقر.

لقد كانت أمنا تسعى إلى الماء وتشرف على الوادي تارة من على الصفا،
وأخرى من على المروة باحثة عن الماء، والله تعالى يحب من عباده الحركة
والسعي والعمل، وجعل ذلك من أهم شروط الرزق.

ولكنها في سعيها كانت منقطعة إلى الله، وتدعوه تعالى وتسأله في حالة من
الانقطاع، يقل نظيرها في تاريخ الإنسان.

فلا السعي والتحرك، كان يحجبها عن الله، ويقطعها عنه تعالى، ولا الانقطاع
إلى الله كان يعطل فيها حالة الحركة والسعي، السعي إلى الماء بأقصى ما تستطيعه
إمرأة في ذلك الوادي، وفي ذلك الهجير، في أشواط سبعة من الصفا إلى المروة
ومن المروة إلى الصفا.

وإننا اليوم في شعائر حجنا، نسعى هذه الأشواط بين هذين الجبلين، من
غير معاناة ولا عذاب، ولا هم، ولا قلق فنكدح ونتعب ويرهقنا هذا السعي.

وقد قامت أمنا هاجر بهذا السعي كله في ذلك الوادي القفر وفي رمضاء

ذلك الهجير، وهي ظمأى قد استنفد العطش كل حولها وقوتها، ورضيعها الصغير يكاد يلفظ آخر أنفاسه، ولكنها مع ذلك قامت بهذا السعي إلى الماء بقوة وهمة وعزم وإرادة.

ومع ذلك لم يقطعها هذا السعي ولو لحظة واحدة عن الانقطاع إلى الله، ولم يحجبها ولو لحظة واحدة عن الله. لقد كانت في هذا السعي المرير كله على اتصال بالله وانقطاع إلى الله، لا يشغلها هذا عن ذاك ولا يحجبها ذاك عن هذا، فقرنت السعي إلى الدنيا بالانقطاع إلى الله، وقرنت الانقطاع إلى الله بالسعي إلى الدنيا، ومن منا يقدر على ذلك؟

والملائكة يومئذ ينظرون إليها ويعجبون منها، كيف استطاعت أن تنقطع إلى الله هذا الانقطاع؟ وكيف تمكنت أن تسعى إلى الماء وهي مثقلة بالمتاعب والمحن هذا السعي؟ وكيف استطاعت أن تجمع بين السعي والانقطاع إلى الله بمثل هذا الجمع؟ فيضجّون إلى الله تعالى أن يستجيب لدعائها وسعيها، وأن يستنزل سعيها ودعاؤها رحمة الله تعالى، وتستقرب رحمة الله حتى تكاد أن تنطبق السماء على الأرض.

لقد صعد يومئذ عمود من الدعاء والعمل الصالح من الأرض إلى السماء، ونزل عمود من الرحمة من السماء إلى الأرض، واتصلت الأرض بالسماء والسماء بالأرض، وحشود الملائكة يشهدون هذا المشهد الفريد، ويضجّون إلى الله تعالى ويتضرعون، فيحدث ما ليس بالبال ولا بالخيال، وتتفجّر الأرض تحت أقدام الرضيع ماءً بارداً زلالاً شفافاً هنيئاً.

وسبحان الله والحمد لله، لقد استجاب الله لسعيها ودعائها، ولكن لا حيث سعت وإنما تحت أقدام الرضيع الذي كان يضرب يديه ورجليه ظمأً يوم ذاك، ليعلمها الله أنه تعالى هو وحده الذي رزقها هذا البارد العذب في هذه الرمضاء وذلك الهجير، وليست هي التي حققت ذلك بسعيها وحركتها، وإن كان لابداً لها أن تسمى وتتحرك ليرزقها الله تعالى «زمزم».

فجبرَّ الله «زمزم» تحت أقدام الرضيع، وأقام الله تعالى في ذلك الوادي بيته المحرَّم، وبارك في زمزم وجعل منها سقاية الحاج مدى الأجيال، وثبت الله هذا السعي والدعاء في ذاكرة التاريخ، وجعل منه شعيرة من شعائر الحج، يحذو فيها حشود الحجاج كل عام حذوها، ويحيون فيها من بُعد، أمهم هاجر وأبويهم إبراهيم وإسماعيل.

لقد اجتمع في هذا الوادي يوم ذاك ثلاثة أسباب من أسباب نزول رحمة الله تعالى: الفقر، والسعي، والدعاء؛ فقر في أقصى درجات الضعف والفاقة، وسعي في قوة وحزم وعزم، ودعاء في تضرُّع وانقطاع واضطرار.

وفي الحج نحوي نحن كل عام هذا المشهد لتتعلم من أمتنا أم إسماعيل عليه السلام كيف نطلب رحمة الله تعالى، وكيف نستنزل فضله ورحمته، وكيف نعرف من رحمته وتعرض لها.



آداب
الدعاء و شروطه

عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قلت له : آيتان في كتاب الله لا أدري ما تأويلهما؟ فقال : و ما هما؟ قال : قلت : قوله تعالى : ﴿ اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ^(١) ثم ادعو فلا أرى الإجابة. قال : فقال لي : أفتري الله أخلف وعده؟ قال : قلت : لا. قال : فمه؟ قلت : لا أدري. فقال : الآية الأخرى، قلت : قوله تعالى : ﴿ وَ مَا اَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ ^(٢) فأنفق فلا أرى خلفاً. قال : أفتري الله أخلف وعده؟ قال : قلت : لا. قال : فمه؟ قلت : لا أدري.

قال : لكنني أخبرك إن شاء الله تعالى. أما إنكم لو أطعتموه فيما أمركم ثم دعوتموه لأجابكم، ولكن تخالفونه و تعصونه فلا يجيبكم، و أما قولك : تنفقون فلا ترون خلفاً، أما إنكم لو كسبتم المال من حله ثم أنفقتموه في حقه، لم ينفق رجل درهماً إلا أخلفه الله عليه، و لو دعوتموه من جهة الدعاء لأجابكم، و إن كنتم عاصين.

قال : قلت : و ما جهة الدعاء؟ فقال : إذا أدت الفريضة مجدت الله و عظمته و تمدحه بكل ما تقدر عليه، و تصلي على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تجتهد في الصلاة عليه و تشهد له بتبليغ الرسالة، و تصلي على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ما أبلاك و أولاك، و تذكر

نعمه عندك وعليك وما صنع بك فتحمدته وتشكره على ذلك، ثم تعترف بذنوبك ذنباً و تقرّ بها أو بما ذكرت منها، و تجعل ما خفي عليك منها، فتتوب إلى الله من جميع معاصيك و أنت تنوي ألا تعود، و تستغفر الله منها بندامة و صدق نية و خوف و رجاء، و يكون من قولك : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِي وَأَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَأَعْتِنِي عَلَى طَاعَتِكَ، وَ وَفَّقْنِي لِمَا أَوْجَبْتَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ مَا يَرْضِيكَ؛ فَإِنِّي لَمْ أَرِ أَحَدًا بَلَغَ شَيْئاً مِنْ طَاعَتِكَ إِلَّا بِنِعْمَتِكَ عَلَيْهِ قَبْلَ طَاعَتِكَ، فَأَنْعَمْ عَلَيَّ بِنِعْمَةِ أَنْالَ بِهَا رِضْوَانَكَ وَالْجَنَّةَ» ثم تسأل بعد ذلك حاجتك؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ لَا يَخَيِّبَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

و روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في آداب الدعاء : «احفظ آداب الدعاء، و انظر من تدعو، و كيف تدعو، و لماذا تدعو، و حقق عظمة الله و كبريائه، و عاين في قلبك علمه بما في ضميرك و اطلّاعه على سرّك، و ما يكن فيه من الحق و الباطل، و اعرف طرق نجاتك و هلاكك كيلا تدعو الله بشيء فيه هلاكك و أنت تظن فيه نجاتك.

قال الله عزّ و جلّ : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢).

و تفكّر ماذا تسأل، و لماذا تسأل.

و الدعاء استجابة الكل منك للحق، و تذويب المهجة في مشاهدة الربّ، و

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣١٩، فلاح السائل: ٣٨-٣٩، عدة الداعي: ١٦.

(٢) الإسراء: ١٠.

ترك الاختيار جميعاً، و تسليم الأمور كلها ظاهراً و باطناً إلى الله.

فإن لم تأت بشروط الدعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنه يعلم السرّ و أخفى، فلعلك تدعو بشيء قد علم من سرّك خلاف ذلك»^(١).

و هذه الرواية و تلك تشير إلى شروط استجابة الدعاء و آدابه.

و كنّا نوّد في هذا الفصل أن نتحدث أولاً عن شروط استجابة الدعاء، ثم نتحدث عن آداب الدعاء، لولا أنني واجهت بعض الصعوبة في فرز «الشروط» عن «الآداب»، و آثرت دمج الشروط و الآداب.

و فيما يلي أشير إشارة سريعة إلى طائفة من الشروط و الآداب المتعلقة بالدعاء من خلال النصوص الإسلامية.

١- معرفة الله :

من أهم شروط استجابة الدعاء معرفة الله، و الإيمان بسلطانه المطلق و قدرته المطلقة على تحقيق ما يطلبه عبده منه. ففي الدر المنثور عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ : «لو عرفتم الله حق معرفته، لزالتم لدعائكم الجبال»^(٢).

و روى العياشي في تفسيره عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَيُؤْمِنُوا بِبَيِّ﴾^(٣)، قال : «يعلمون أنني أقدر أن أعطيهم ما يسألوني»^(٤).

و روى الطبرسي في مجمع البيان في تفسير الآية نفسها عن الإمام

(٢) الميزان : ٢ / ٤٣.

(١) بحار الأنوار : ٩٠ / ٣٢٢.

(٤) المصدر السابق .

(٣) البقرة : ١٨٥.

الصادق عليه السلام: «وَلْيُؤْمِنُوا بِي»^(١) ليتحققوا أنني قادر على إعطائهم ما سألوه
«لَعَلَّهُمْ يَرْضَوْنَ»^(٢).

و روي أن الإمام الصادق عليه السلام قرأ: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا»^(٣).
فسئل: ما لنا ندعو، ولا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا
تعرفون، و تسألون ما لا تفهمون»^(٤).
وفي هذا الحديث تأكيد على أهمية دور وعي السؤال والمسؤول عنه في
أمر الاستجابة في الدعاء.

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل
: من سألني، و هو يعلم أنني أضر و أنفع إستجبت له»^(٥).

في مناجاة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «تمدّحت بالفناء عن
خلقك، و أنت أهل الغنى عنهم، و نسبتهم إلى الفقر و هم أهل الفقر إليك، فمن حاول سدّ
خلّته من عندك، و رام صرف الفقر عن نفسه بك، فقد طلب حاجته في مظانها، و أتى
طلبته من وجهها»^(٦).

و يقول أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة: «سبحان الذي يتوكل كل مؤمن
عليه، و يضطر كل جاحد إليه، و لا يستغني أحد إلا بفضل ما لديه»^(٧).

(٢) المصدر السابق.

(١) البقرة: ١٨٥.

(٣) النمل: ٦١.

(٤) الصافي: ٥٧، (ط. حجرية - إيران) في تفسير الآية ٨٦ من سورة البقرة.

(٦) الصحيفة الكاملة السجادية: الدعاء ١٣.

(٥) نواب الأعمال: ٨٤.

(٧) البلد الأمين: ٩٦.

و يقول علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام كما في الدعاء السابع في الصحيفة الكاملة: «أصبحنا في قبضتك، يحوينا ملكك و سلطانك، و تضمننا مشيتك، و نتصرف عن أمرك، و نتقلب في تدبيرك، ليس لنا من الأمر إلا ما قضيت، و من الغير إلا ما أعطيت».

و في الصحيفة العلوية : «من ذا الذي يضارك و يغالبك أو يمتنع منك أو ينجو من قدرك».

و من المعرفة أن يعرف الداعي أن الله قريب منه، و أقرب إليه من كل شيء، يعرف ما توسوس به نفسه، و هو أقرب إليه من حبل الوريد، و يحول بينه و بين نفسه.

يقول تعالى : ﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ^(١).

و يقول تعالى : ﴿تَعَزَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ^(٢).

و يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ﴾ ^(٣).

و يقول أميرالمؤمنين في الدعاء : «أتقرب إليك بسعة رحمتك التي وسعت كل شيء، و قد ترى يا ربّ مكاني، و تطلع على ضميري، و تعلم سرّي، و لا يخفى عليك أمري و أنت أقرب إليّ من حبل الوريد» ^(٤).

و في دعاء يوم الجمعة يقول عليه السلام : «لا إله إلا الله المجيب لمن ناداه بأخفض صوته، السميع لمن ناجاه لأغضض سرّه، الرؤوف بمن رجاه لتفريج همّه، القريب ممّن

(٢) ق : ١٦.

(١) البقرة : ١٨٦.

(٤) البلد الأمين : ٩٦.

(٣) الأنفال : ٢٤.

دعاء لتنفيس كربهِ وغمِّهِ»^(١).

و يقول ﷺ في إحدى خطبه: «سبق في العلوّ فلا شيء أعلا منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعدهِ عن شيءٍ من خلقه، ولا قربهِ ساواهم في المكان به»^(٢).

٢- حسن الظن بالله:

حسن الظن بالله من شعب معرفة الله تعالى، والله تعالى يعطي عباده بقدر حسن ظنهم به و يقينهم بسعة رحمته و كرمه.

في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، فلا يَظُنُّ بي إلّا خيراً»^(٣).

و عن رسول الله ﷺ: «ادعوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة».

و أوحى الله تعالى إلى موسى: «ما دعوتني ورجوتني فأني سامع لك»^(٤).

و عن أبي عبد الله الصادق ﷺ قال: «إذا دعوت فأقبل بقلبك، و ظنّ حاجتك بالباب»^(٥).

و عنه ﷺ: «فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة»^(٦).

و في مقابل ذلك القنوط عن رحمة الله، و عن إجابة الدعاء، و هو من أسباب ابتعاد الإنسان عن رحمة الله، فقد يدعو الإنسان فيؤخر الله تعالى الإجابة لأمر يعود إليه بالصلاح، و لا يعرفه، و يعرفه الله فيسوء ظنّه بالله تعالى، و يقنط

(١) البلد الأمين: ٩٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٤٩.

(٣) الميزان: ٣٧ / ٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٠٥، ح ٨٧٠٣.

(٥) أصول الكافي: ٥١٩؛ وسائل الشيعة: ٤ / ١١٠٥، ح ٨٧٠٠.

(٦) أصول الكافي، باب الاقبال على الدعاء.

من رحمته عزّ شأنه، فيحجبه هذا القنوط و اليأس عن رحمة الله.

عن الإمام الصادق عليه السلام : «لا يزال العبد بخير و رجاء و رحمة من الله عزّ و جلّ، ما لم يستعجل، فيقنط، و يترك الدعاء، و قيل له : كيف يستعجل؟ قال : يقول : قد دعوت منذ كذا و كذا و ما أرى الإجابة»^(١).

و عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال : «قلت لأبي الحسن عليه السلام : جعلت فداك، إنّي قد سألت الله الحاجة منذ كذا و كذا سنة، و قد دخل قلبي من إبطائها شيء، فقال : يا أحمد، إياك و الشيطان أن يكون له عليك سبيل حتى يقنطك. أخبرني عنك لو أنّي قلت لك قولاً كنت تتق به منّي. فقلت له : جعلت فداك، إذا لم أثق بقولك فبمن أثق، و أنت حجة الله على خلقه؟ قال : فكن بالله أوثق، فإنك على موعد من الله عزّ و جلّ. أليس الله يقول : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢) و قال : ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٣) و قال : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾^(٤) فكن بالله أوثق منك بغيره، و لا تجعلوا في أنفسكم إلّا خيراً فإنّه لغفور لكم»^(٥).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «إنّ العبد إذا عجل فقام لحاجته (يعني انصرف عن الدعاء و لم يطل في الدعاء، و الوقوف بين يدي الله طالباً للحاجة) يقول الله عزّ و جلّ : أما يعلم عبدي أنّي أنا الله الذي أقضي الحوائج؟!»^(٦).

(١) أصول الكافي : ٥٢٧، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٠٧، ح ٨٧١١.

(٢) البقرة : ١٨٥. (٣) الزمر : ٥٢.

(٤) البقرة : ٢٦٧. (٥) قرب الاسناد : ١٧١.

(٦) وسائل الشيعة : ٤ / ١١٠٦، ح ٨٧٠٩.

و عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : « كان بين قول الله عزَّ و جلَّ : ﴿ قَدْ أَجَبْتُ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ^(١) و بين أخذ فرعون أربعون عاما » ^(٢).

و عن إسحاق بن عمار قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : يستجاب للرجل الدعاء ثم يؤخر؟

قال : نعم، عشرين سنة » ^(٣).

٣- الاضطراب إلى الله :

و لابد في الدعاء أن يلجأ الإنسان إلى الله تعالى، لجوء المضطر الذي لا يجد من دون الله عزَّ و جلَّ من يرجوه و من يضع فيه ثقته و رجاءه، فإذا توزَّع رجاء الإنسان في الله تعالى و غيره من عبادِه، لم ينقطع إلى الله حق الانقطاع، و لم يجد في نفسه حالة الاضطراب إلى الله، و هو شرط أساسي في استجابة الدعاء. عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمحمد بن الحنفية : « و بالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدَّ الفزع فإلى الله المَفزع » ^(٤).

ففي حالة الاضطراب ينقطع رجاء الإنسان عن كل أحد، و يفزع إلى الله حق الفزع، و لا يكون له رجاء إلا عند الله عزَّ و جلَّ. و روي أن الله أوحى إلى عيسى عليه السلام :

ادعني دعاء العزين الفريق، الذي ليس له مغيث، يا عيسى! سلني و لا

(٢) أصول الكافي : ٥٦٢.

(١) يونس : ٨٨.

(٤) وسائل الشيعة : ٤ / ١١٢١، ح ٨٧٦٤.

(٣) أصول الكافي : ٥٦٢.

تسأل غيري، فيحسن منك الدعاء و مني الإجابة»^(١).

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مناجاة له مع الله تعالى :
«إلهي ليس تشبه مسألتي مسألة السائلين لأنَّ السائل إذا مُنِع امتنع عن السؤال، وأنا لا غناء بي عما سألتك على كل حال، إلهي إرض عني، فإن لم ترض عني فاعف عني، فقد يعفو السيد عن عبده و هو عنه غير راض، إلهي كيف أدعوك وأنا أنا؟ وكيف أياأس منك و أنت أنت؟»^(٢).

و هذه حالة الاضطرار إلى الله، حيث لا يجد العبد بُدّاً له من أن يلجأ إلى الله و يأخذ حاجته من الله تعالى.

و كما ذكرنا، تتطلب حالة الاضطرار إلى الله الانقطاع إليه، حيث يعرف العبد أن حاجته التي يضطر إليها عند الله تعالى، و ليس عند غيره، فينقطع إليه عزّ و جلّ، و ينقطع عن غيره، و ينصرف إليه تعالى و يصرف وجهه عن غيره.
يقول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الدعاء : «واجعلني ممن يدعوك مخلصاً في الرخاء دعاء المضطّرين لك»^(٣).

و يقول في موضع آخر : «اللهم إني أخلصت بانقطاعي إليك، و أقبلت بكلي عليك، و صرفت وجهي عمّن يحتاج إلى رفقك، و قلبت مسألتي عمّن لا يستغني عن فضلك، و رأيت أن طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه، و ضلّة من عقله»^(٤).
و ليس معنى ذلك بالتأكيد أن لا يتوسل الإنسان بالوسائل المادية التي

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٧٤، ح: ٨٩٥٨. (٢) البلد الأمين: ٣١٦.

(٣) الصحيفة الكاملة السجادية: الدعاء ٢٢. (٤) الصحيفة الكاملة السجادية: الدعاء ٢٨.

جعلها الله تعالى سبباً لقضاء حاجات الناس وأمورهم، فقد أمر الله تعالى بذلك، و إنما معنى ذلك أن يجعل هذه الأسباب التي أمر الله تعالى بالتوسل بها في امتداد مشيئة الله وإرادته وأمره.

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام :

«وإذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فليأس من الناس كلهم، و لا يكون له رجاء إلا عند الله عزّ وجلّ، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه»^(١).

٤- الدخول من الأبواب التي أمر الله تعالى بها :

و الدعاء إقبال على الله تعالى، فلا بد أن يكون هذا الإقبال عن الطرق التي أمر الله تعالى بها.

روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل عبد الله تعالى أربعين ليلة ثم دعا الله تعالى، فلم يستجب له، فشكا ذلك إلى عيسى ابن مريم عليه السلام. فسأل عيسى ابن مريم الله تعالى عن ذلك، فقال الله : «يا عيسى! إنه دعائي، وفي قلبه شكّ منك»^(٢).

٥- إقبال القلب على الله :

و هو من أهمّ شروط الاستجابة؛ فإنّ حقيقة الدعاء في إقبال القلب على الله، فإذا اشتغل قلب الإنسان بغير الله تعالى من شواغل الدنيا لم يحقق الإنسان

(١) تفسير الصافي : ٥٨، ط : العجمية - إيران ؛ أصول الكافي : ٣٨٢ ؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١٧٤، ح :

(٢) كلمة الله، ح : ٣٧١.

حقيقة الدعاء.

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ دُعَاءَ بَظْهَرِ قَلْبٍ سَاهٍ»^(١).

و عنه عليه السلام : «فَإِذَا دَعَوْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ ثُمَّ اسْتَيْقِنِ الْإِجَابَةَ»^(٢).

و عنه عليه السلام قال : «قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام : لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لَاهٍ»^(٣).

و في الحديث القدسي : «يَا مُوسَى، ادْعُنِي بِالْقَلْبِ النَّقِيِّ وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ»^(٤).

و في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دُعَاءَ قَلْبٍ سَاهٍ»^(٥).

و عن سليمان بن عمرو قال : «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ بَظْهَرِ قَلْبٍ سَاهٍ، فَإِذَا دَعَوْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ ثُمَّ اسْتَيْقِنِ الْإِجَابَةَ»^(٦).
و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ بَظْهَرِ قَلْبٍ قَاسٍ»^(٧).

فلابد في الدعاء من إقبال القلب على الله، و حضوره عند الله. و (اللهو) و (السهو) و (القسوة) من الحجب و العوائق التي تعيق القلب و تمنعه من الإقبال على الله.

(١) أصول الكافي، باب الإقبال على الدعاء.

٢- أصول الكافي، باب الإقبال على الدعاء، ح ١.

(٣) المصدر السابق : ح ٢.

(٤) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٤.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ٢ / ٣٣٩.

(٦) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٠٥، ح: ٨٧٠٥.

(٧) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٠٦، ح: ٨٧٠٧.

و في قراءة الأدعية الماثورة ينبغي أن يستحضر القارئ للدعاء حالة الدعاء، و يحذر من أن يفصل قلبه عن لسانه فيشتغل لسانه بقراءة الدعاء و ينصرف قلبه إلى غير ذلك من شواغل الدنيا.

يقول الفقيه العارف بالله الشيخ جواد ملكي تبريزي رحمته الله في كتابه المربي القيم «المراقبات» : «اعلم أنك لا تنال خير الدعاء و إجابته إلا إذا اتصف بسرك و روحك و قلبك بصفات الدعاء، و الاتصاف بصفاته عبارة عن أن يكون المُنشئ للدعاء سرك و روحك و قلبك.

مثلاً إذا قلت : «أرجوك لكل خير» تكون راجياً لله بسرك و روحك و قلبك، و لكل منها آثار، فليظهر آثاره في عملك، فمن تحقق الرجاء في سرّه و حقيقته، فكأنّه يصير رجاءً كله، و من كان ذلك في روحه، فكأنّه يكون حياته بالرجاء، و من كان راجياً بقلبه يكون أعماله التي تصدر عن قصد و إختيار ملازماً للرجاء، فاحذر أن لا يوجد في شيء من شؤونك شيء من الرجاء، و اعتبر ذلك من أعمالك، فانظر هل ترى في حركاتك أثر الرجاء و هو الطلب أم لا؟ أما سمعت قول المعصوم عليه السلام : «من رجا شيئاً طلبه» و هو كذلك لأنك ترى في أحوال الراجين من أهل الدنيا في الأمور الدنيوية أنهم إذا رجوا خيراً من أحد أو شيء طلبوه من هذا الشخص و من هذا الشيء الذي رجوه فيه بقدر رجائهم، ألا ترى أن التاجر لا يفارق تجارته و الصانع ملازم لصنعتة، فذلك كلّ من جهة أنهم يرجون الخير في التجارة و الصنعة؛ و هكذا كلّ فرقة يطلبون ما يرجونه فيما يرجونه و لا يفارقونه حتى ينالوا به، إلا راجي الجنة و الآخرة، وإلا راجي فضل

الله و كرامته غالباً، هيهات هذه الآثار للصفات مما حكم به الله الحكيم و لا ترى
تغيّراً لسنة الله، و لكن التخلف في اشتباه الدعوى بالحقيقة و إلا فلا يوجد ذرة من
الرجاء إلا و عنده مثله من الطلب و هكذا، هذا.

و قس على الرجاء غيره من مطالب الدعاء من التوسيع و التهليل و
التحميد و التضرع و الاستكانة و الخوف و الاستغفار و التوبة، فإنّ كلّ ذلك لها
حقائق و دعاوي فالأثر للحقيقة لا خُلف»^(١).

٦- الخضوع و ترقيق القلب :

إذا أراد الإنسان أن يصيب دعاؤه الاستجابة فلا بدّ له أن يطلب رقة القلب،
و يسعى إلى ترقيق قلبه. فإنّ القلب إذا رَقَّ شَفَّ و زالت الحجب بينه و بين الله
تعالى، و كان قريباً من الله.

و لأسلوب السؤال و الدعاء تأثير في ترقيق القلب. و ما ورد من النصوص
في التذلل عند الطلب و الدعاء، ورد لتحقيق هذه الغاية.

روى أحمد بن فهد الحلبي في «عدة الداعي»: «أن رسول الله ﷺ إذا ابتهل و
دعا كان كما يستطعم المسكين»^(٢).

و روي أنه كان فيما أوحى الله عزّ و جلّ إلى موسى عليه السلام :

«ألقى كفئك ذُلّاً بين يديّ كفعل العبيد المستصرخ إلى سيّده، فإذا فعلت ذلك
رحمت، و أنا أكرم الأكرمين القادرين»^(٣).

(٢) عدة الداعي : ١٣٩، و المجالس للمفيد : ٢٢.

(١) المراقبات ٦٠-٦١.

(٣) عدة الداعي : ١٣٩.

و عن محمد بن مسلم قال : «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿فَمَا أَشْكَبُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾^(١)، فقال عليه السلام : الاستكانة هي الخضوع، والتضرع هو رفع اليدين والتضرع بهما»^(٢).

و لأنَّ الغاية من هذا الأسلوب في الدعاء لم يكن واضحاً للناس، كان المشككون يشككون الناس في (أسلوب الدعاء). تُرى لماذا نرفع اليدين إلى السماء؟ و هل يكون الله في جهة السماء حتى نرفع يدينا إلى السماء؟ فكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يوضحون لهم أنَّ الله تعالى في كل مكان، و لكننا بهذا الأسلوب في الدعاء نتخذ شعار الاستكانة و الحاجة بين يدي الله، فإنَّ رفع اليدين علامة الاستكانة و الحاجة. و هذا الشعار له تأثير إيجابي في ترقيق القلب و إزالة القسوة عنه، و تخليصه و تحضيره بين يديه تبارك و تعالى.

روى الطبرسي في (الاحتجاج) أنَّ أبا قره، قال للرضا عليه السلام :

«ما بالكم إذا دعوتم رفعتم أيديكم إلى السماء؟ قال أبو الحسن عليه السلام : إنَّ الله استعبد خلقه بضروب من العبادة ... و استعبد خلقه عند الدعاء و الطلب و التضرع ببسط الأيدي و رفعها إلى السماء لحال الاستكانة، علامة العبودية و التذلل له»^(٣). و لحظات (الرقعة) هي لحظات نزول الرحمة. و على الإنسان أن يغتنم هذه اللحظات بالتوجّه إلى الله للدعاء، فإنَّ الرحمة نازلة من دون حساب في هذه اللحظات. لا لأنَّ لنزول رحمة الله تعالى وقتاً خاصاً و محدوداً، بل لأنَّ لاستقبال

(٢) أصول الكافي: ٢ / ٣٤٨.

(١) المؤمنون: ٧٦.

(٣) أصول الكافي: ٥٢٢؛ وسائل الشيعة: ٤ / ١١٠١، ح: ٨٦٨٧.

الرحمة وقتاً محدوداً و حالة خاصة و هي حالة الرقة، فإذا رق قلب الإنسان أمكنه أن يستقبل هذه الرحمة.

عن رسول الله ﷺ : «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة». (١)

عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «إذا رَقَّ أحدكم فليدع؛ فإنَّ القلب لا يرقَّ حتى يخلص» (٢).

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «إذا اقشعرَّ جلدك و دمعت عيناك، فدونك دونك فقد قصد قصدك» (٣).

و الحديث دقيق، فإنَّ الاستجابة لها علاقة مباشرة بحالة الداعي، وإنَّ القلب كلما رَقَّ، و استكان، كان الداعي أقرب إلى الاستجابة، و بعكس ذلك كلما تمنَّع القلب و قسى كان أبعد عن الاستجابة.

و قد ورد في النصوص الإسلامية الاستفادة من لحظات انكسار النفس و رَقَّة القلب، لما يلم بالإنسان من المصائب و الهموم في هذه الدنيا للتوجه إلى الله بالدعاء و السؤال.

فإنَّ هذه اللحظات تهَيِّئ الإنسان للإقبال على الله و لاستقبال رحمة الله؛ و السر في ذلك كلُّه أنَّ القلب لا يتمكَّن من هذا (الإقبال) و (الاستقبال) إلَّا في حالات الرقة. و على الإنسان الذي يريد وجه الله و الإقبال عليه تعالى في

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣١٣.

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٢٠، ح: ٨٧٦١؛ أصول الكافي: ٥٢١.

(٣) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٤١، ح: ٨٧٦٣.

الدعاء أن يكتسب هذه الرقة.

روي عن إسحاق بن عمار قال : «قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أدعو فأشتهي البكاء، ولا يجيئني، وربما ذكرت بعض من مات من أهلي فأرقّ وأبكي، فهل يجوز ذلك؟ فقال : نعم، فتذكر فإذا رقت فابك، وادع ربك تبارك و تعالي» ^(١).

وإذا لم يتسنّ له البكاء ليرق قلبه فليتبأك، فإنّ التباكي يؤدي إلى البكاء، و البكاء، يؤدي إلى ترقيق القلب، و رقة القلب تفتح القلب على الله تعالى.

عن سعد بن يسار قال : «قلت لأبي عبدالله (الصادق) عليه السلام : إني أتباكي في الدعاء، و ليس لي بكاء. قال : نعم» ^(٢).

و عن أبي حمزة قال : قال أبو عبدالله عليه السلام لأبي بصير : «إن خفت أمراً يكون أو حاجة تريدها، فابدأ بالله فمجّده، و اثن عليه كما هو أهله، و صلّ على النبي صلى الله عليه وآله و سل حاجتك، و تباك ... إنّ أبى كان يقول : إنّ أقرب ما يكون العبد من الربّ عزّ و جلّ و هو ساجد بال» ^(٣).

و كان من ذكر الإمام الصادق عليه السلام في السجود : «سجد وجهي الذليل لوجهك العزيز، سجد وجهي البالي لوجهك الدائم الباقي، سجد وجهي الفقير لوجهك الغني، سجد وجهي و سمي و بصري و لحمي و دمي و جلدي و عظمي و ما أقلت الأرض منّي لله رب العالمين» ^(٤).

(١) أصول الكافي : ٥٢٣؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١٢١، ح : ٨٧٦٧.

(٢) وسائل الشيعة : ٤ / ١١٢٢، ح : ٨٧٦٩؛ أصول الكافي : ٥٢٣.

(٣) أصول الكافي : ٥٢٤، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٢٢، ح : ٨٧٧٠.

(٤) البلد الامين : ٣٣١.

٧- مداومة الدعاء في الشدة و الرخاء :

المداومة على الدعاء في الشدة و الرخاء، و تقدم الدعاء في الرخاء على الدعاء في الشدة مما ورد التأكيد عليه في النصوص الإسلامية.

و قد روي عن رسول الله ﷺ :

«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^(١).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل البلاء، و قيل : صوت معروف، و

لم يعجب عن السماء، و من لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل البلاء، و قالت الملائكة : ذا الصوت لا نعرفه»^(٢).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«إن الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج في البلاء»^(٣).

و عنه عليه السلام أيضاً :

«من سرّه أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء»^(٤).

و عنه عليه السلام أيضاً :

«كان جدي يقول : تقدّموا في الدعاء، فإنّ العبد إذا كان دعاءً فنزل به البلاء

فدعا، قيل : صوت معروف. و إذا لم يكن دعاءً، يقول : فنزل به البلاء، قيل : أين كنت قبل اليوم؟»^(٥).

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٦، ح : ٨٦٦٤.

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٧، ح : ٨٦٧٢.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٦، ح : ٨٦٦٠.

(٣) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٦، ح : ٨٦٦٥.

(٥) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٦، ح : ٨٦٦٧.

وهذه النصوص ترمز إلى معني ظريف و دقيق، فإنَّ الدعاء إقبال على الله، و أنفذ الدعاء و أقربه إلى الاستجابة أكثره إقبالاً على الله.

فإذا تم الإقبال و خلص القلب، و توجه بكّله إلى الله لم يكن بين الدعاء و بين الاستجابة عند ذلك حجاب؛ و إذا ضعف الإقبال كانت الاستجابة بقدرة، و الإقبال على الله، و تحضير القلب عند الله يتم للإنسان بكثرة الدعاء.

و هو يتمّ للإنسان بكثرة الدعاء، شأنه في ذلك شأن أي عمل آخر في حياة الإنسان، و كلّما أكثر الإنسان من الدعاء تمكن من الإقبال على الله تعالى أكثر، و انقاد له قلبه في التوجه إلى الله أكثر.

فإذا فاجأه البلاء، و توجه إلى الله عند نزول البلاء انقاد له قلبه في الإقبال و التوجه بسرعة و بيسر، و كان دعاؤه قريباً من الاستجابة، و لم يحل بينه و بين الاستجابة يومئذ شيء.

و روي عن الفضل بن عباس قال : «قال لي رسول الله ﷺ : احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» ^(١).

و عن علي بن الحسين عليه السلام أنه كان يقول : «لم أر مثل التقدم في الدعاء، فإنَّ العبد ليس تحضره الإجابة في كل ساعة» ^(٢).

و عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : يا أباذر، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، فإذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله» ^(٣).

(١) من لا يحضره الفقيه: ٢ / ٣٥٨.

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٨؛ عدة الداعي لابن فهد الحلبي: ١٢٧.

(٢) الارشاد للمفيد: ٢٧٧.

و روي أَنَّ أبا جعفر عليه السلام كان يقول :

«ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدة، ليس إذا أُعطِيَ فتر، فلا تمل الدعاء فإنه من الله عزَّ وجلَّ بمكان» ^(١).

٨- الوفاء بعهد الله :

في تفسير القمي، أنه قيل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : «إِنَّ الله تعالى يقول : ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾» ^(٢) وإنا ندعوه فلا يستجاب لنا، فقال : «لأنكم لا توفون بعهد الله، وإن الله يقول : «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم» والله لو وفيتم الله لوفى لكم» ^(٣).

٩- اقتران الدعاء بالعمل :

من شروط استجابة الدعاء اقتران الدعاء بالعمل، فلا ينفع الدعاء من غير عمل ولا يغني العمل عن الدعاء.

و هاتان نقطتان : النقطة الأولى أَنَّ الدعاء لا يغني عن العمل.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصاياه لأبي ذر :

«يا أباذر، مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر» ^(٤).

و عن عمر بن يزيد قال : «قلت لأبي عبد الله عليه السلام : رجل قال : لأقعدنَّ في بيتي، ولأصليَنَّ ولأصومنَّ، ولأعبدنَّ ربِّي، فأما رزقي فسيأتيني، فقال :

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١١١١، ح: ٨٧٢٩. (٢) المؤمن : ٦٠.

(٣) تفسير الصافي : ٥٧، (ط الحجرية) تفسير الآية ١٨٦، من سورة البقرة.

(٤) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، باب ٣٢، ح ٣.

هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»^(١).

و عن الصادق عليه السلام :

«الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»^(٢).

و عنه عليه السلام أيضاً :

«ثلاثة تُرد عليهم دعوتهم :

رجل جلس في بيته وقال : يا رب ارزقني، فيقال له : ألم أجعل لك سبيلاً إلى

طلب الرزق»^(٣).

فلو دعا الله والدُّ لصلاح ولده و هدايته إلّا أنّه كان عديم الاهتمام بتربية

ابنه ... لا يستجاب له دعاء. و كان هذا الدعاء مما يحجب عن الاستجابة وإذا كان

المريض يدعو الله تعالى بالشفاء، ولكن من دون مراجعة طبيب، و لا تناول دواء،

و لا اتخاذ الحِمية اللازمة للشفاء ... كان هذا الدعاء مما يحجب عن الاستجابة.

و النقطة الثانية أنّ العمل لا يغني عن الدعاء.

و قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

«يدخل الجنة رجلان كانا يعملان عملاً واحداً، فيرى أحدهما صاحبه

فوقه فيقول :

يا رب، بم أعطيتة و كان عملنا واحداً؟

فيقول الله تعالى : سألتني، و لم تسألني.

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٦٠، ح: ٨٩١٣. (٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٧٥، ح: ٨٩٦٥.

(٣) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٧٥، ح: ٨٩٦٥.

ثم قال : اسألوا الله من فضله، و أجزلوا فإنه لا يتعاضمه شيء»^(١).

و عن رسول الله ﷺ أيضاً : «إنَّ الله تعالى عباداً يعملون فيعطيههم، و آخرين يسألون صادقين فيعطيههم، ثم يجمعهم في الجنة، فيقول الذين عملوا: ربَّنَا عملنا فأعطيتنا، فما أعطيت هؤلاء؟

فيقول : هؤلاء عبادي. أعطيتكم أجوركم و لم ألتكم من أعمالكم شيئاً، و سألتني هؤلاء فأعطيتهم و أغنيتهم، و هو فضلي أوتيته من أشاء»^(٢).

١٠- الدعاء ضمن السنن الإلهية :

ليس الدعاء اختراعاً لسنن الله تعالى في الطبيعة و الكون و المجتمع و التاريخ. و سنن الله تعالى لا تتحول و لا تتبدل.

و على الداعي أن لا يطلب في دعائه ما يخالف سنن الله تعالى في المجتمع و التاريخ أو في الطبيعة و الكون، أو ما يخالف أحكام الله التشريعية.

و قد سئل أمير المؤمنين عليه السلام : «أيّ دعوة أضل؟

قال : الداعي بما لا يكون»^(٣).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام :

«يا صاحب الدعاء، لا تسأل ما لا يكون و ما لا يحل».

و (ما لا يكون) هو طلب تغيير السنن الإلهية في المجتمع و التاريخ أو الطبيعة و الكون.

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٤، ح: ٨٦٠٨. (٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٤، ح: ٨٦٠٩.

(٣) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٤.

و (ما لا يحل) هو مخالفة النظام التشريعي لله تعالى في حياة الإنسان.
و في ذلك يقول تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(١).

١١- اجتناب الذنوب :

و من شروط الاستجابة اجتناب الذنوب و التوبة عنها، فَإِنَّ جوهر الدعاء الإقبال على الله تعالى، وكيف يتأتى لإنسان يمارس معصية الله تعالى، و يعرض عن أمره و حكمه، و لم يتب إلى الله، كيف يتأتى له أن يقبل على الله؟
عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : «إِنَّ العبد يسأل الله تعالى الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب، أو إلى وقت بطيء، فيذنّب العبد ذنباً، فيقول الله تعالى للملك : لا تقض حاجته، و احرمه إياها، فَإِنَّه تعرّض لسخطي و استوجب الحرمان مني»^(٢).

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «مَرَّ موسى عليه السلام برجل و هو ساجد، فانصرف من حاجته و هو ساجد، فقال عليه السلام : لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها لك، فأوحى الله إليه، يا موسى، لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلته (ما استجبت له) حتى يتحوّل عما أكره إلى ما أحب»^(٣).

١٢- الاجتماع للدعاء و طلب التامين من المؤمنين :

مما ورد التأكيد عليه في النصوص الإسلامية الدعاء في اجتماع المؤمنين.
فإِنَّ اجتماع المؤمنين بين يدي الله تعالى دائماً من منازل رحمة الله تعالى. و لم

(٢) أصول الكافي : ٤٤٠.

(١) التوبة : ٨٠.

(٣) عدة الداعي : ١٢٥.

يجتمع جمع من المؤمنين، والله تعالى في اجتماعهم رضىً إلا كان اجتماعهم قريباً من رحمة الله تعالى، ومن منازل رحمته و فضله.

عن ابن خالد قال: «قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: ما من رهط أربعين رجلاً اجتمعوا ودعوا الله عزّ وجلّ في أمرٍ إلا استجاب لهم، فإن لم يكونوا أربعين فأربعة يدعون الله عزّ وجلّ عشر مراتٍ إلا استجاب الله لهم، فإن لم يكونوا أربعة فواحد يدعوا الله أربعين مرةً، فيستجيب الله العزيز الجبار لهم» (١).

و عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال :

«كان أبي إذا حزنه أمر دعا النساء والصبيان، ثم دعا وأُثِنوا» (٢).

١٣- الترسل في الدعاء :

و مما ينبغي أن نتنبه إليه في الدعاء أن لا يفقد الداعي في الدعاء حالة الترسل في السؤال و الطلب من الله. فإن حقيقة الدعاء و روحه هو الإقبال على الله بالسؤال، و الإلحاح و التضرع في الطلب، و قراءة الأدعية المأثورة و ترتيلها. ينبغي أن لا يفقد الداعي هذه الحالة، ففي حالة الترسل في الدعاء من دون تكلف قد يجد الإنسان في نفسه من الإقبال و التوجه إلى الله و التضرع و الرقة ما لا يجده في حالة قراءة الأدعية المأثورة.

إذن ينبغي للداعي أن يحتفظ في نفسه بـ «حالة الدعاء» بما في هذه الحالة من الترسل، و عدم التكلف في التوجه إلى الله و التضرع بين يديه. و قد كان أئمة

(١) أصول الكافي : ٥٢٥.

(٢) أصول الكافي : ٥٢٥؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١٤٤، ح : ٨٨٦٣.

أهل البيت عليهم السلام يفضلون للداعي أحياناً أن يدعو مترسلاً بما يخطر على باله، ولا يدعو بالمأثور لئلا يفقد الدعاء بالمأثور حالة الترسل والاسترسال في الدعاء.

روي عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : علّمني دعاءً.

فقال : «إِنَّ أَفْضَلَ الدُّعَاءِ مَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ» ^(١).

١٤- تحضير النفس للدعاء بالحمد والاستغفار والصلاة :

الدعاء إقبال على الله، ولا بدّ لهذا الإقبال من تحضير للنفس.

ومن التحضير لذلك البدء بحمد الله تعالى و الثناء عليه و الشكر لنعمائه و فضله، و الاستغفار بين يدي الله من الذنوب، و الصّلاة و السّلام على رسول الله صلى الله عليه وآله و أهل بيته عليهم السلام، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِعْدَادِ وَ التحضير النفسي للدعاء، و يتهيأ الإنسان خلال هذا التقديم للإقبال على الله و السؤال و الطلب من الله.

و قد ورد الحمد، و الثناء، و الشكر، و الاستغفار و الصّلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله و أهل بيته عليهم السلام في مقدمة أكثر الأدعية كما يتخلل الكثير منها.

عن العيص بن قاسم قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : «إِذَا طَلَبَ أَحَدُكُمْ الْحَاجَةَ فَلْيُثْنِ عَلَى رَبِّهِ وَ لِيَمْدَحْهُ ... فَإِذَا طَلَبْتُمْ الْحَاجَةَ فَمَجِّدُوا اللَّهَ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ، وَ اْمْدَحُوهُ، وَ أَثْنُوا عَلَيْهِ، تَقُولُ : يَا أَجُودَ مَنْ أَعْطَى، وَ يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ، وَ يَا أَرْحَمَ مَنْ اسْتُرْحِمَ، يَا أَحَدَ، يَا صَمَدَ، يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، يَا مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَ لَا وَلَدًا، يَا مَنْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَ يُحْكَمُ مَا يَرِيدُ وَ يَقْضِي مَا

(١) الأمان من الأخطار، لابن طاووس : ٣.

أحب، يا من يحول بين المرء و قلبه، يا من هو بالمنظر الأعلى، يا من ليس كمثلته شيء، يا سميع يا بصير. و أكثر من أسماء الله عزّ و جلّ فإنّ أسماء الله عزّ و جلّ كثيرة، و صلّ على محمد و آل محمد، و قل: اللهم أوسع عليّ من رزقك الحلال ما أكفّ به وجهي، و أؤدي به عني (عن) أمانتي، و أصل به رحمي، و يكون عوناً لي في الحج و العمرة و قال: إنّ رجلاً دخل المسجد فصلّى ركعتين، ثم سأل الله عزّ و جلّ، فقال رسول الله ﷺ: عجل العبد ربه؛ و جاء آخر فصلّى ركعتين ثم أتى على الله عزّ و جلّ و صلّى على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: سل تعط «^(١)». و عن أبي كهمس عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «دخل رجل المسجد فابتدأ قبل الثناء على الله و الصلّة على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: عجل العبد ربه، ثم دخل آخر فصلّى، و أتى على الله عزّ و جلّ، فصلّى على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: سل تعطه» ^(٢).

و عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كل دعاء يدعى الله عزّ و جلّ به محبوب عن السماء حتى يصلّي على محمّد و آل محمّد» ^(٣). و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً: «لا يزال الدعاء محبوباً عن السماء حتى يصلّي على محمّد و آل محمّد» ^(٤).

١٥- دعوة الله بأسمائه الحسنی:

(١) أصول الكافي: ٥٢٤؛ وسائل الشیعة: ٤ / ١١٢٦، ح: ٨٧٨٦.

(٢) وسائل الشیعة: ٤ / ١١٢٧، ح: ٨٧٨٨؛ أصول الكافي: ٥٢٥.

(٣) أصول الكافي: ٥٢٨؛ وسائل الشیعة: ٤ / ١١٣٥، ح: ٨٨٢٦.

(٤) مجالس المفید: ٦٠؛ وسائل الشیعة: ٤ / ١١٣٧، ح: ٨٨٣٧.

إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَدْعُوهُ عِبَادُهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّخْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (١)

فإنَّ كل واحد من أسماء الله الحسنى مفتاح لباب من أبواب رحمة الله وفضله.

و قد ورد في النصوص الإسلامية تأكيد كثير على الدعاء بأسماء الله الحسنى، و ورد في نصوص عديدة أنَّ المؤمن إذا دعا الله بأسمائه الحسنى عشرًا لبَّاه الله تعالى.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «من قال : يا الله، عشر مرات قيل له : لبيك ما حاجتك؟» (٢).

و عن أبي بصير عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام : «إذا قال العبد و هو ساجد : يا الله، يا ربَّاه، يا سيده، ثلاث مرات، أجابه الله تبارك و تعالى : لبيك عبدي سل حاجتك» (٣).

و روى عبد الله بن جعفر في قرب الاسناد عن مسعدة بن صدقة قال : حدثني جعفر، قال : إشتكى بعض ولد أبي فمرَّ به، فقال له : «قل عشر مرات : يا الله، يا الله، فإنه لم يقله أحد من المؤمنين قط إلا قال له الربُّ تبارك و تعالى : لبيك عبدي سل حاجتك» (٤).

(١) الاسراء : ١١٠.

(٢) أصول الكافي : ٥٤١، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٣٠، ح : ٨٧٩٨.

(٣) وسائل الشيعة : ٤ / ١١٣١، ح : ٨٨٠٢.

(٤) قرب الاسناد : ٢، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٣٢، ح : ٨٨٠٩.

و عن علي بن الحسين عليه السلام : «سمع النبي ﷺ رجلاً يقول : يا أرحم الراحمين، فأخذ بمنكب الرجل، فقال : هذا أرحم الراحمين قد استقبلك بوجهه، سل حاجتك» ^(١).

١٦- بث الحاجات بين يدي الله :

والله تعالى يعلم ما نريد و ما نحتاج و ما نطلب و يغنيه علمه عن سؤالنا، ولكن الله تعالى يحب أن نبث إليه حاجتنا، بل يحوجنا حتى نبث إليه حاجتنا. و قد يمقت الله عبداً فيكفيه و يغنيه، حتى لا يسأله و لا يرفع يديه إليه تعالى. فإنّ الإنسان عندما يبث حاجاته بين يديه تعالى، يتقرب منه، و يتعلق به، و يأنس إليه، و يحس بفقره و حاجته إليه و كل ذلك يحبه الله تعالى.

فإذا دعونا الله تعالى في شؤوننا أحب الله تعالى أن نسهب في الدعاء و نفصل فيه، و لا نوجز، و لا نخترل الكلام، كما يتحدث الناس إلى الزعماء. عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام :

«إن الله تعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعا، و لكن يحب أن يبث إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجتك» ^(٢).

١٧- الإلحاح في الدعاء :

و الإلحاح في الدعاء يكشف عن عمق ثقة العبد و رجائه في الله تعالى و عمق تعلقه به تعالى، و كلّما كانت ثقة الإنسان بالله تعالى أكثر، كان إلحاحه في الدعاء أكثر. و بالعكس إذا كانت ثقة الإنسان بالله ضعيفة فإنه ينقطع عن الدعاء

(١) محاسبة النفس : ١٤٨؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١٣٢، ح : ٨٨١٥.

(٢) أصول الكافي : ٥٢٠؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١٠٩١، ح : ٨٦٤٢.

و ييأس إذا لم يجد لدعائه استجابة.

و كما يكشف الإلحاح في الدعاء عن عمق الثقة و العلاقة بالله، كذلك الإلحاح في الدعاء يعمّق الثقة و العلاقة بالله و يثبتها.

و على قدر ثقة الإنسان بالله تعالى و علاقته بالله يكون قربه من الله. و قد ورد في النصوص الإسلامية تأكيدات كثيرة على الإلحاح في الدعاء، و عدم اليأس عن الاستجابة في كل الأحوال.

عن رسول الله ﷺ :

«إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُلْحِينَ فِي الدَّعَاءِ»^(١).

و عنه ﷺ :

«إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ السَّائِلَ اللَّوْحَ»^(٢).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام :

«الدعاء ترس المؤمن، و متى تكثر قرع الباب يفتح لك»^(٣).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«الدعاء يرّد القضاء بعد ما أبرم إبراهيم، فأكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كل رحمة، و نجاح كل حاجة، و لا ينال ما عند الله عزّ و جلّ إلّا بالدعاء، و إنه ليس باب يكثّر قرعه إلّا أوّشك أن يفتح لصاحبه»^(٤).

و عن الباقر عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ إِلْحَاحَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَ

(٢) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٧٤.

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٠٠.

(٤) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٦، ح: ٨٦١٦.

(٣) وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٨٥، ح: ٨٦١٢.

أَحَبُّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ» (١).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام : «فَالْحَمْدُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ يَفْتَحُ لَكَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ» (٢).

و عن الوليد بن عتبة الهجري قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : «و الله لا يلح عبد مؤمن على الله في حاجته إِلَّا قضاها له» (٣).

عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

«رحم الله عبداً طلب من الله عزّ وجلّ حاجة فآلح في الدعاء، استجيب له أو لم يستجب، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ لَأَ كُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾» (٤).
و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : «لا والله لا يلح عبد على الله عزّ وجلّ إِلَّا استجاب له» (٥).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«سل حاجتك و ألح في الطلب؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إلْحاحَ الْمُلتَمِّينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» (٦).

١٨- الدعاء للآخرين و من الآخرين :

سوف نتحدث عن هذه النقطة في فصل قادم من هذا الكتاب فيما ينبغي و ما لا ينبغي من الدعاء. و نتحدث الآن عن هذا الموضوع بقدر ما يتعلق بآداب

(٢) بحار الأنوار: ٧٧ / ٢٠٥.

(٤) مريم : ٤٧.

(٦) قرب الاسناد : ٥٢٠.

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٧٤.

(٣) أصول الكافي : ٥٢٠.

(٥) المصدر السابق.

و شروط الدعاء، فإنَّ الإنسان إذا انفتح على إخوانه بين يدي الله تعالى، و أزال من نفسه ما بينه و بينهم من ضغن و نفور فتح الله تعالى عليه أبواب رحمته؛ فإنَّ انفتاح المؤمنين بعضهم على بعض و تعميق حالة التحابب و التعاطف و المودة فيما بينهم، من مفاتيح رحمة الله تعالى للداعي و للمدعو له.

أما الداعي فقد روي عن معاوية بن عمار عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : «الدعاء لأخيك بظهر الغيب يسوق إلى الداعي الرزق، و يصرف عنه البلاء، و يقول الملك : و لك مثل ذلك» ^(١).

و عن رسول الله صلى الله عليه و آله : «من دعا لمؤمن بظهر الغيب قال الملك : فلك مثل ذلك» ^(٢).

و عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام : «دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب يدرّ الرزق و يدفع المكروه» ^(٣).

و عن ابن خالد القمّاط قال : «قال أبو جعفر عليه السلام : أسرع الدعاء نجحاً للإجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب. يبدأ بالدعاء لأخيه، فيقول له ملك موكل به : آمين، و لك مثلاه» ^(٤).

و أما المدعو له فقد روي أنّ الله تعالى قال لموسى بن عمران عليه السلام : «ادعني على لسان لم تعصني به.

(١) أمالي الطوسي: ٢ / ٢٩٠، بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٨٧.

(٢) أمالي الطوسي: ٢ / ٩٥، بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٨٤.

(٣) أصول الكافي: ٤٣٥؛ وسائل الشيعة: ٤ / ١١٤٥، ح: ٨٨٦٧.

(٤) المصدران السابقان.

قال : يا رب، أننى لي بذلك؟ قال : أدعني على لسان غيرك»^(١).

١٩- الدعاء عند نزول الرحمة :

بالدعاء يستنزل الإنسان رحمة الله تعالى.

و لذلك فإنَّ أفضل أوقات الدعاء هي الأوقات التي تنزل فيها الرحمة، فيكون الإنسان قريباً من رحمة الله، و يتعرض لرحمة الله.

و ساعات هبوط الرحمة كثيرة منها :

ساعة قراءة القرآن، و أوقات الأذان، و ساعة نزول المطر، و ساعة التقاء الصفين و مصرع الشهداء.

و هذه الساعة الأخيرة من أفضل الساعات تنفتح فيها أبواب رحمة الله على الأرض.

عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام :

اغتنموا الدعاء عند أربع : عند قراءة القرآن، و عند الأذان، و عند نزول الغيث، و عند التقاء الصفين للشهادة»^(٢).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : «اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن : عند قراءة القرآن، و عند الأذان، و عند نزول الغيث، و عند التقاء الصفين للشهادة، و عند دعوة المظلوم، فإنها ليس لها حجاب دون العرش»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٤٢؛ عدة الداعي : ١٢٨.

(٢) أصول الكافي : ٥٢١؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١١٤، ح : ٨٧٣٩.

(٣) وسائل الشيعة : ٤ / ١١١٥، ح : ٨٧٤٢.

و عن أمير المؤمنين عليه السلام : « من قرأ مائة آية من القرآن، من أي القرآن شاء، ثم قال : يا الله سبع مرات، فلو دعا على الصخرة لقلعها إن شاء الله » ^(١).
 عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « كان أبي إذا طلب الحاجة طلبها عند زوال الشمس، فإذا أراد ذلك قَدَّمَ شيئاً فتصدق به وشم شيئاً من طيب، وراح إلى المسجد و دعا في حاجته بما شاء الله » ^(٢).

٢٠- الدعاء في جوف الليل :

إنَّ لخلوة الليل تأثيراً عظيماً في إقبال النفس على الله، واستقبال رحمة الله تعالى، و ما يجده الإنسان في نفسه في الساعات المتأخرة من الليل من الإقبال على الله، و القدرة على استقبال رحمة الله تعالى قلماً يجدها في وقت آخر. و قد جعل الله تعالى في هذه الساعات المتأخرة من الليل من البركة و الرحمة ما لم يجعله في الساعات الأخرى من الليل و النهار.

و ليس من شك، لمن يتأمل النصوص الإسلامية، أنَّ الأوقات ليست سواء، فمن الأوقات ما تنفتح فيها أبواب الرحمة على الإنسان أكثر من غيرها، و من الأوقات ما تستنزل رحمة الله تعالى أكثر من غيرها، و من أفضل هذه الأوقات، و أكثرها حظاً من رحمة الله ساعات النصف الأخير من الليل.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ ^(٣).

(٢) أصول الكافي : ٥٢٦.

(١) نواب الأعمال للصدوق : ٥٨.

(٣) المزمّل : ١ - ٦.

روى المفضل بن عمرو عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : « كان فيما ناجى الله به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له : يا بن عمران، كذب من زعم أنه يحبني، فإذا جئته الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا يابن عمران مطّلع على أحبائي، إذا جئتهم الليل حوّلت أبصارهم في قلوبهم و مثلت عقوبي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، و يكلموني عن الحضور.

يابن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، و من بدنك الخضوع، و من عينيك الدموع، و ادعني في الظلمات فإنك تجدني قريباً مجيباً»^(١).

و في هذا النص مواضع للتأمل لا نريد أن نقف عندها طويلاً، إنّ الليل يجن أولياء الله، و يستترهم عن زحمة الحياة و شواغلها، و كأنما الليل ينتزع الإنسان انتزاعاً من وسط شواغل الدنيا التي تشغله عن الانصراف و الانقطاع إلى الله، و تستره، و تجنّه، و هذه هي فرصة خلوة الليل، حيث يخلو للإنسان وجه الله عن كل شاغل و صارف، و يتمكن من الانقطاع إلى الله في هذه الخلوة.

و يكذب من يزعم أنه يحب الله، فإذا جئته الليل نام عن مناجاة من يحب و القيام بين يديه، و التضرع عنده. أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه؟

إنّ زحمة النهار و شواغله الكثيرة و المتعددة تشتت أبصارنا و أسمعنا، فإذا جئنا الليل، و انتزعنا من زحمة الحياة تجمّعت شتات أبصارنا و أسمعنا (التي شتتها النهار) و تحولت من الخارج إلى الداخل، و من زحمة الحياة في النهار إلى داخل القلب، مصدر البصيرة و النور في حياة الإنسان، فيجتمع شتات الأبصار، و

يتحول من الخارج إلى الداخل، ويفتح الله على قلب الإنسان حينئذ أبواب البصيرة والنور «إذا جنَّهم الليل حوَّلت أبصارهم في قلوبهم»، وعندئذ يرى الإنسان نفسه مائلاً بحضرة الله، و يرى غضب الله تعالى و رحمته مائلة أمامه، فإذا خاطب الله خاطبه عن مشاهدة و حضور لا عن بعد و غياب «يخاطبوني عن المشاهدة»، و إذا كلم الله يكلمه عن حضور، وليس عن غياب «و يكلموني عن الحضور» و تتمثل عقوبة الله تعالى و عذابه و غضبه بين عينيه «و مثلت عقوبتي بين أعينهم» فيسلبهم أنس حضور الحبيب و الخلوة به و مخافة العقوبة المائلة بين أعينهم راحة النوم، و كيف ينام من يرى نفسه في خلوة الليل بحضور حبيبه، يناجيه، و يخاطبه؟ و كيف يقلب عليه النعاس و هو يرى عذاب الله مائلاً بين عينيه؟

و هذه الحالة نتيجة طبيعية لتحول الابصار من الخارج إلى الداخل و تركزه و تجمعه في الليل بعد تشتته في النهار.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المعروفة بخطبة المتقين في وصف هذه الحالة من انقلاب الأبصار من الخارج إلى القلب : «أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، و يستشيرون به دواء داءهم. فإذا مزوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، و تطلعت نفوسهم إليها شوقاً، و ظنوا أنها نصب أعينهم، و إذا مزوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقتها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباهم و أكفهم و رُكَبهم، و أطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم؛ و أما النهار

فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءٍ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ...»^(١).

و في نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين عليه السلام لتوف البكالي في صفة الليل :
«يا نوف، إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل، فقال : إنها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له»^(٢).

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «إذا كان آخر الليل يقول الله عزّ وجلّ : هل من داع فأجيبه؟ و هل من سائل فأعطيه سؤله؟ و هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟».

٢١-المسح على الوجه و الرأس بعد الدعاء :

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبار إلا استحيا الله عزّ وجلّ أن يردها صفراً، حتى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح على وجهه و رأسه»^(٣).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة، القسم الثاني ص ١٦٥.

(٣) أصول الكافي: ٢ / ٣٤٢؛ من لا يحضره الفقيه: ١ / ١٠٧؛ بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٠٧.



العوائق و العقبات

ما هي العوائق والعقبات التي تحبس الدعاء عن الصعود إلى الله؟

هذا ما نحاول أن نجيب عليه إن شاء الله في هذه النقطة من هذا المقال.

فإنّ الدعاء، كما يقولون، قرآن صاعد في مقابل القرآن النازل من الله تعالى؛ وفي القرآن النازل دعوة إلى العبودية، واللجوء والإقبال على الله و الإنقطاع إلى الله، وفي القرآن الصاعد تلبية لهذه الدعوة.

و الدعوة من الله تعالى إلى العباد؛ والتلبية من العباد إلى الله.

لكن هناك طائفة من العوائق والعقبات تحبس الدعاء من الصعود إلى الله؛

و من أهم هذه العوائق التي تحبس الدعاء عن الصعود إلى الله الذنوب والمعاصي.

و قد ورد في دعاء كميل : «اللَّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

و في نفس الدعاء :

«فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي».

و فيما يلي سوف نحاول إن شاء الله تحليل هذه العوائق.

دور الذنوب في حجب الإنسان عن الله :

للذنوب في حياة الإنسان دوران :

الدور الأول : تحجب الإنسان عن الله، و تقطعه عنه تعالى فلا يتمكن

الإنسان من الإقبال على الله و التوجه إليه، و لا يتمكن من الدعاء، فإنّ الدعاء

من الإقبال على الله.

وإذا حجب الذنوب صاحبها عن الله، فقد حجبته عن الدعاء أيضاً.

الدور الثاني: الذنوب تحجب الدعاء عن الصعود إلى الله، لأن الدعاء إذا صعد إلى الله تتم الإجابة من عند الله، فليس في ساحة الله تعالى عجز أو شح إذا صعد دعاء العبد، وإنما العجز في الدعاء عن الصعود إلى الله.

إذن فإن الذنوب قد تحبس الإنسان عن الدعاء، وقد تحبس الدعاء عن الصعود إلى الله.

ولا بد لهذا الإجمال من توضيح، وإليك هذا التوضيح.

الدور المزدوج للقلوب في الأخذ والعطاء:

إن القلب (الجانحة) جهاز ارتباط يأخذ ويتلقى من الله تعالى من جانب، و يعطي من جانب آخر. كالقلب (الجارحة) الذي يقوم بدور مزدوج في ضخ الدم واستعادته و تجميعه من خلال الشرايين والأوردة.

فإذا فقد القلب (الجانحة) هذه الخاصة في وصل الإنسان و ربطه بالله تعالى فقد كل قيمته، و لم يعد له نفع و لا جدوى، و أصبح ميتاً، كالقلب الجارحة تماماً.

و القلوب في هذا الأخذ و العطاء، تأخذ من الله تعالى الهدى و النور و البصيرة من جانب، و تمنح الإنسان في حركته و كلامه و مواقفه و أعماله و علاقاته هذا الهدى و النور من جانب آخر.

و لنأمل في كتاب الله، لنعرف هذا الدور المزدوج للقلوب من خلال القرآن.

في الجانب الأول (التلقي و الأخذ من عند الله) يقول الله تعالى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(١).

فالقرآن إذن ينزل على القلوب جملة واحدة و نجوماً، و يثبت الأفئدة، و تأخذ القلوب منه النور و الهدى.
و يقول تعالى :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

إن القلوب تأخذ من القرآن فتحشع و تلين، و تتفاعل مع هدى الله و نوره الذي أرسل إلى عباده. فإن القرآن هدى الله و نوره الذي أرسله إلى عباده، و برهانه و حجته إلى خلقه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾^(٣).

و قلوب المؤمنين و المتقين دون غيرهم تختص بهذا النور و الهدى، و تأخذ منه، و تتفاعل معه.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

و هذا هو الدور الأول للقلوب، تتلقى الهدى و النور و البصيرة و البرهان

(٢) الزمر : ٢٣.

(١) الفرقان : ٣٢.

(٤) آل عمران : ١٣٨.

(٣) النساء : ١٧٢.

(٥) الأعراف : ٢٠٣.

من عند الله، و تختص بما أنزل الله تعالى إلى عباده من النور والهدى، و تتفاعل معه و تلين له.

الدور الثاني للقلوب البث و العطاء :

تبث فيه القلوب النور و الهدى الذي تلقته من عند الله، و تمنح النور لحركة الإنسان و منطق و موقفه، و علاقاته، و اهتماماته. و عند ذاك يتحرك الإنسان بنور الله و هداه، و يتكلم بنور الله و هداه، و يحدد مواقفه بنور الله و هداه، و يمشي في الناس بنور الله و هداه.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَشْهَى بِهِ فِي النَّاسِ﴾ ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٢).

و هذا النور الذي يقيم به المؤمنون علاقاتهم مع الناس و يتحركون به في صفوف الناس، في السياسة، أو في التجارة، أو في سائر شؤون الحياة هو من نور الله تعالى الذي أرسله لعباده.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ^(٣).

و هذا النور يتلقاه القلب من عند الله ثم يوجّه القلب به بصر الإنسان و سمعه و أعضائه و جوارحه.

و دور القلب في هذا الأخذ و العطاء دور الوسيط، يتلقى النور من عند الله و يوجّه به سلوك الإنسان و تحركه و كلامه و مواقفه.

(٢) الحديد : ٢٨.

(١) الأنعام : ١٢٢.

(٣) النور : ٤٠.

وهذه أمانة سلامة القلب وصحته يتلقى القرآن، و يعطي القرآن، كالتربة
الخصبة تتلقى النور والهواء والماء و تعطي الثمار الطيبة.
يقول أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن :
«كتاب الله تبصرون به و تنطقون به و تسمعون به».

فإذا فقد القلب سلامته فقد خاصية الاستقبال و التوجيه، فلا يتمكن من
استقبال القرآن (النازل) من عند الله.

و إذا فقد القلب القدرة على استقبال القرآن (النازل) فقد القدرة على توجيه
صاحبه و على رفع القرآن (الصاعد) إلى الله بالصلاة و الدعاء.
و تلك الحالة هي حالة (انغلاق القلب). يقول تعالى : ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ﴾^(١).

و الأصم الأعمى لا يستطيع أن يستقبل نداءً و لا نوراً، و من ثم لا يستطيع
أن ينطق أيضاً، فيكون أبكم بطبيعة الحال.
و يقول تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ثُمَّ قَصَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ
كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾^(٢).

إنَّ الحِجَابَةَ لا تتمكن من أن تستقبل نوراً و لا هواءً و لا ماءً، و تردّ كل ما
يتوجه إليها من النور و الهواء و الماء، و بطبيعة الحال لا تستطيع أن تعطي ثمرة،
فإنَّ الثمرة التي تعطيها التربة الخصبة هي مما تستقبل من النور و الهواء و الماء.
و القلب إذا فقد سلامته يكون كذلك، لا يستقبل النور و لا يمنح النور، و

هي حالة الانغلاق الكامل، و حالة (موت القلب) يفقد فيها القلب كل حيويته، فإن حياة القلب بما يأخذ، و يعطي، فإذا فقد هذه الخاصية فقد الحياة.

يقول تعالى في موت القلب : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(١).

و يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الْعُمْمُ الدُّعَاءَ﴾^(٢).

و يقول تعالى : ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

و ليس العجز في قوة النداء و الأداء، و لكن العجز في قابلية الميت على السمع.

تلك هي حالة موت القلب و انغلاقه و انقطاعه عن الله تعالى.

فما هو سبب هذا الانقطاع و الانغلاق؟

العوامل التي تؤدي الى انغلاق القلوب :

النصوص الاسلامية تؤكد أن أهم عوامل انغلاق القلوب و انقطاعها عن الله

اثنتان :

١- الإعراض عن آيات الله و تكذيبها.

٢- ارتكاب الذنوب و المعاصي.

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾^(٤).

و التكذيب بآيات الله، في هذه الآية الكريمة سبب الصمم و الاستقرار في

(٢) النمل : ٨.

(١) فاطر : ٢٣.

(٤) الأنعام : ٣٩.

(٣) يس : ١٠.

الظلمات في حياة الناس.

و يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾^(١).

و نلاحظ في هذه الآية الكريمة العلاقة المتبادلة بين الإعراض عن آيات الله والاستكبار عنها والوقر في الآذان.

و هذا هو العامل الأول (الإعراض).

و عن العامل الثاني (الذنوب) يقول تعالى :

﴿كَلَّا بَلْ زَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

و الآية الكريمة واضحة في أَنَّ الذنوب التي يكسبها الإنسان تتحول إلى رين و صدأ على القلوب، تغلق القلب و تقطعه عن الله.

بالذنوب تفتكس القلوب :

و إِنَّ الإنسان يمارس الذنب حتى ينقطع قلبه عن الله، فإذا انقطع قلبه عن الله انتكس القلب، فكان أعلاه أسفله، و أسفله أعلاه، و فقد كل خصائصه.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

« كان أبى يقول : ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته؛ إِنَّ القلب ليواقع الخطيئة، فلا تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله »^(٣).

(٢) المطففين : ١٤

(١) لقمان : ٧.

(٣) بحار الأنوار : ٧٣ / ٤١٢.

و عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أيضاً :

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انصحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»^(١).

بالذنوب يفقد الإنسان حلاوة الذكر :

و لذكر الله حلاوة في القلوب المؤمنة، ليس فوقها حلاوة، فإذا انتكس القلب فقد هذه الحلاوة، و لم يعد يتذوق حلاوة الذكر، كالمريض الذي تنتكس سلامته فيفقد شهية الطيبات، لا لأن الطيبات فقدت طيبها، و لكن لأن المريض فقد الشهية إليها، كذلك القلوب إذا انتكست فقدت حلاوة ذكر الله، و لم يعد لذكر الله تعالى لديها حلاوة و جاذبية.

في الحديث : «إنَّ الله أوحى إلى داود أن أدنى ما أنا صانع بعبد غير عامل بعلمه من سبعين عقوبة باطنية أن أنزع من قلبه حلاوة ذكرى»^(٢).
جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال : «يا أمير المؤمنين، إنِّي قد حرمت الصلاة بالليل.

فقال عليه السلام : أنت رجل قد قيدتك ذنوبك»^(٣).

و عن الإمام الصادق عليه السلام :

«إنَّ الرجل يذنب الذنب، فيحرم صلاة الليل، وإنَّ العمل السيئ أسرع في

(١) بحار الأنوار: ٧٣ / ٣٢٧.

(٢) دار السلام للشيخ النوري: ٣ / ٢٠٠.

(٣) علل الشرائع: ٢ / ٥١.

صاحبه من السكين في اللحم»^(١).

الذنوب التي تحبس الدعاء :

إذن انقطاع القلب عن الله من المردودات المباشرة للذنوب، و إذا انقطع القلب عن الله فلا يأخذ و لا يعطي.

و الدعاء ممّا يرفعه الإنسان إلى الله تعالى. و لذلك قلنا : إنه «القرآن الصاعد» الذي يرفعه العبد إلى الله، بعدما يستقبل من عند الله «القرآن النازل»، فإذا انقطع الإنسان عن القرآن النازل انقطع بالضرورة عن القرآن الصاعد، فيحبس عن الدعاء، و لا يتوفق له. و حتى إذا ألحّت عليه الضرورات و دعا الله تعالى حبس الله تعالى دعاءه عن الصعود و لم يجد الاستجابة.

و روي عن علي عليه السلام : «المعصية تمنع الإجابة».

و سأل رجل علياً عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ : «ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال عليه السلام : فأني دعاء يستجاب لكم، و قد سدّتم أبوابه و طرقه، فاتقوا الله و أصلحوا أعمالكم، و أخلصوا سرائركم، وأمروا بالمعروف، و انهوا عن المنكر، فيستجيب الله دعاءكم»^(٢).

و عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : «و الذنوب التي تردّ الدعاء، و تُظلم الهواء عقوق الوالدين»^(٣).

و في رواية أخرى : «و الذنوب التي تردّ الدعاء : سوء النسيّة، و خبث

(١) أصول الكافي / ٢ / ٢٧٢.

(٢) بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٧٦.

(٣) معاني الأخبار : ٢٧٠.

السريرة، والنفاق، وترك التصديق بالاجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله عزّ وجلّ بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول»^(١).

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام :

«إنّ العبد يسأل الله الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للملك : لا تقض حاجته، واحرمه إياها، فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني»^(٢).

(عوائق) و (عوامل) صعود الأعمال :

في النصوص الإسلامية ورد ذكر للعوائق عن صعود الأعمال و لعوامل صعود الأعمال.

و لكليهما علاقة مباشرة بعمل الإنسان، إلّا أنّ العوائق تعيق صعود الأعمال إلى الله تعالى، و «العوامل» تعين على صعود الأعمال إلى الله. و فيما يلي نستعرض نموذجاً واحداً من النصوص الواردة في العوائق، و نموذجاً واحداً من النصوص الواردة في العوامل من دون توضيح و تعليق، و نترك الشرح و التعليق في هذه المسألة المهمة في الثقافة و التربية الإسلامية إلى مجال مناسب إن شاء الله.

عوائق صعود الأعمال :

روى الشيخ أبو جعفر محمد بن أحمد بن علي القمي، نزيل الري، في كتابه: المنبئ عن زهد النبي ﷺ، عن عبد الواحد عمّن حدثه عن معاذ بن جبل قال : قلت : حدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ و حفظته من دقة ما حدثك به. قال : نعم، و بكى معاذ، ثم قال : بأبي و أمي حدثني و أنا رديفه، فقال: بينا نسير إذ رفع بصره إلى السماء فقال: الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحب، ثم قال: يا معاذ، قلت : لبيك يا رسول الله و سيّد المؤمنين. قال : يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله إمام الخير و نبي الرحمة، فقال: أحدثك شيئاً ما حدّث به نبي أمته إن حفظته نفعك عيشك، و إن سمعته و لم تحفظه انقطعت حجتك عند الله، ثم قال: إنّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات فجعل في كل سماء ملكاً قد جللها بعظمته، و جعل على كل باب من أبواب السماوات ملكاً بواباً، فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسي، ثم ترتفع الحفظة بعمله و له نور كنور الشمس حتى إذا بلغ سماء الدنيا فتزكيه و تكثره فيقول الملك: قفوا و ا ضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الغيبة، فمن اغتاب لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، أمرني بذلك ربي.

قال ﷺ: ثم تجيئ الحفظة من الغد و معهم عمل صالح، فتمر به فتزكيه و تكثره حتى تبلغ السماء الثانية، فيقول الملك الذي في السماء الثانية: قفوا و ا ضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنما أراد بهذا عرض الدنيا، أنا صاحب الدنيا، لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: ثم تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً بصدقة و صلاة فتعجب به الحفظة، و تجاوز به إلى السماء الثالثة، فيقول الملك: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه و ظهره، أنا ملك صاحب الكبر، فيقول: إنه عمل و تكبر على الناس في مجالسهم؛ أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كالكوكب الدرّي في السماء، له دوي بالتسبيح و الصوم و الحج، فتمر به إلى السماء الرابعة فيقول له الملك: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه و بطنه، أنا ملك العُجب، إنه كان يعجب بنفسه إنه عمل و أدخل نفسه العُجب؛ أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها، فتمر به إلى ملك السماء الخامسة بالجهداد و الصلاة [و الصدقة] ما بين الصلاتين، و لذلك العمل رنين كرنين الابل و عليه ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: قفوا أنا ملك الحسد، و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، و احملوه على عاتقه؛ إنه كان يحسد من يتعلم أو يعمل لله بطاعته، و إذا رأى لأحد فضلاً في العمل و العبادة حسده و وقع فيه، فيحمله على عاتقه و يلعنه عمله.

قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة و زكاة و حج و عمرة، فيتجاوزون به إلى السماء السادسة، فيقول الملك: قفوا أنا صاحب الرحمة و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، و اطمسوا عينيه لأنّ صاحبه لم يرحم شيئاً، إذا أصاب عبداً من عباد الله ذنب للآخرة أو ضرّ في الدنيا شمت به؛ أمرني به ربي أن لا أدع عمله يجاوزني.

قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد بفقهِ و اجتهاد و ورع و له صوت كالرعد، و ضوء كضوء البرق، و معه ثلاثة آلاف ملك، فتمر به إلى ملك السماء السابعة، فيقول الملك: قفوا و اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الحجاب أحجب كل عمل ليس لله؛ إنه أراد رفعة عند القُود، و ذكراً في المجالس و صيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ما لم يكن لله خالصاً.

قال: و تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من صلاة و زكاة و صيام و حج و عُمره و حسن الخلق و صمت و ذكر كثير، تشيعه ملائكة السماوات و الملائكة السبعة بجماعتهم، فيطأون الحجب كلّها حتى يقوموا بين يديه سبحانه، فيشهدوا له بعمل و دعاء فيقول: أنتم حفظة عمل عبدي، و أنا رقيب على ما في نفسه. إنه لم يردني بهذا العمل. و عليه لعنتي. فيقول الملائكة: عليه لعنتك و لعنتنا. قال: ثم بكى معاذ قال: قلت: يا رسول الله، ما أعمل و أخلص فيه؟ قال: اقتد بنبيك يا معاذ في اليقين. قال: قلت: أنت رسول الله و أنا معاذ. قال: و إن كان في عملك تقصير يا معاذ فاقطع لسانك عن إخوانك، و عن حملة القرآن، و لتكن ذنوبك عليك لا تحملها على إخوانك، و لا ترك نفسك بتذميم إخوانك، و لا ترفع نفسك بوضع إخوانك، و لا تراء بعملك، و لا تدخل من الدنيا في الآخرة؛ و لا تفحش في مجلسك لكي يحذروك لسوء خلقك، و لا تتاج مع رجل و أنت مع آخر، و لا تعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا، و لا تمزق الناس فتمزقك كلاب أهل النار؛ قال الله تعالى: ﴿وَالنَّاسِطَاتِ نَسِطًا﴾^(١) أ فتدري ما الناشطات؟ إنها

كلاب أهل النار تنشط اللحم والعظم. قلت: ومن يطيق هذه الخصال؟ قال: يا معاذ، إنه يسير على من يسره الله تعالى عليه. قال: وما رأيت معاذاً يكثر تلاوة القرآن كما يكثر تلاوة هذا الحديث ^(١).

عوامل صعود الأعمال إلى الله:

و في مقابل العوائق هناك عوامل لصعود الأعمال إلى الله ترفع العمل إلى الله، حيث يعجز العمل عن الصعود وهذه العوامل تقع في مقابل العوائق. وقد ورد ذكر طائفة من هذه العوامل في رواية نبوية شريفة يلوح عليها نور النبوة و هدى الوحي، نذكرها بتمامها برواية العلامة المجلسي رحمته الله في بحار الأنوار عن الصدوق في الأمالي.

روى الصدوق في الأمالي عن سعيد بن المسيب، عن عبدالرحمن بن سمرة، قال: «كُنَّا عند رسول الله ﷺ يوماً، فقال: إني رأيت البارحة عجائب، قال: فقلنا: يا رسول الله، و ما رأيت؟ حَدَّثْنَا بِهِ فداكَ أَنْفُسُنَا وَأَهْلُونَا وَأَوْلَادُنَا؟ فقال: رأيت رجلاً من أمتي و قد أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برّه بالديه فممنعه منه.

(١) نقلنا هذا الحديث بطوله عن كتاب عدة الداعي ٢٢٨-٢٣٠، و التعليق أيضاً من نفس الكتاب «عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ مَا عَدِلُوا مِنْ عَمَلٍ قَبْلَئِنَّا قَبِإُ أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ﴾. قال: أما والله و إن كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي و لكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه». قال في (مرآة العقول): «و فيه دلالة على حبط الطاعات بالفسوق و الاحباط عبارة عن إبطال الحسنه بعدم ترتب ما يتوقع منها عليها، و يقابله التكفير و هو إسقاط السيئة بعدم جريان مقتضى ما عليها».

و رأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فمنعه منه.

و رأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عزّ وجلّ فنجاه من بينهم.

و رأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع، فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه.

و رأيت رجلاً من أمتي والنبيون حلقاً حلقاً كلما أتى حلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جنبهم.

و رأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة و من خلفه ظلمة و عن يمينه ظلمة و عن شماله ظلمة و من تحته ظلمة مستنقعا في الظلمة، فجاءه حجه و عمرته فأخرجاه من الظلمة و أدخلاه النور.

و رأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءه صلته للرحم فقال: يا معشر المؤمنين، كلموه فإنه كان واصلاً لرحمه، فكلمه المؤمنون و صافحوه و كان معهم.

و رأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النيران و شررها بيده و وجهه، فجاءته صدقته فكانت ظلاً على رأسه و سترأ على وجهه.

و رأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف و نهيه عن المنكر، فخلصاه من بينهم و جعلاه مع ملائكة الرحمة.

و رأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه و بين رحمة الله حجاب

فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله في رحمة الله.

و رأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته قبل شماله، فجاءه خوفه من الله عزّ وجلّ فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه.

و رأيت رجلاً من أمتي قد خفت موازينه، فجاءه أفراطه فثقلوا موازينه.

و رأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في الله عزّ وجلّ فاستنقذه من ذلك.

و رأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله فاستخرجته من ذلك.

و رأيت رجلاً من أمتي على الصراط يرتعد كما ترتعد السعفة في يوم ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته و مضى على الصراط.

و رأيت رجلاً من أمتي على الصراط، يزحف أحياناً و يحبو أحياناً و يتعلق أحياناً، فجاءته صلاته عليه فأقامته على قدميه و مضى على الصراط.

و رأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة كلما انتهى إلى باب أغلق دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله صادقاً بها، ففتحت له الأبواب و دخل الجنة»^(١).



الوسائل التي نبتغيها

إلى الله في الدعاء

و ما دمنا قد تحدثنا عن العوائق و العوامل فمن المفيد أن نتحدث عن الوسائل التي نبتغيها إلى الله تعالى في الدعاء.

فإن الله تعالى يدعونا أن نبتغي إليه الوسيلة.

يقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(١).

و يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٢).

و قد جعل الله تعالى هذه الوسائل لعباده الذين تعجز أعمالهم و أدعيتهم عن الصعود إليه رحمة بهم، و هو أرحم الراحمين.

فإن الله تعالى يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْقَوْلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣).

إنَّ في حياة الإنسان (كلماً طيباً) و (عملاً صالحاً).

و «الكلم الطيب» هو إيمان الإنسان بالله، و إخلاصه له تعالى، و ثقته و رجاؤه به، و دعاؤه و تضرعه بين يديه.

و «العمل الصالح» هو العمل الذي يقوم به الإنسان عن «إيمان»، و «إخلاص»، و «ثقة»، و «رجاء».

و «الكلم الطيب» يصعد إلى الله بصريح القرآن، و لكن «العمل الصالح» هو الذي يرفع الكلم الطيب إلى الله، بصريح القرآن كذلك.

و لو لا «العمل الصالح» لم يصعد «الكلم الطيب» إلى الله، إلا أنه قد يكون في «العمل الصالح» عجز و ضعف، فلا يستطيع أن يرفع «الكلم الطيب إلى الله»، فلا يصعد دعاء الإنسان إلى الله، و لا يستجاب دعاؤه. فيجعل الله تعالى في حياة الإنسان و بيده «وسائل» يبتغيها إليه، تعينه في الصعود إليه، رحمة بعباده.

و لو لا هذه الوسائل لم يتمكن من أن يرفع دعاءه و تضرعه إلى الله.

و هذه هي الوسائل التي يشير إليها القرآن.

و من هذه الوسائل دعاء رسول الله ﷺ و استغفاره لأُمَّته.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١).

و الآية الكريمة واضحة في أن استغفار رسول الله ﷺ للمؤمنين، من الوسائل التي رغب الله تعالى عباده أن يبتغوها وسيلة إليه في الدعاء و الاستغفار.

و ما يقال عن المجيء إلى رسول الله ﷺ و استغفاره للمؤمنين في حياته ﷺ يقال بعد وفاته ﷺ، فإن رسول الله ﷺ حي يرزق عند الله بعد وفاته.

التوسل برسول الله ﷺ وأهل بيته:

و في النصوص الإسلامية ورد التأكيد كثيراً على التوسل برسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

روي عن داود البرقي قال: «إني كنت أسمع أبا عبد الله عليه السلام أكثر ما يلج في الدعاء على الله بحق الخمسة، يعني رسول الله، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام» ^(١).

و عن سماعة: «قال لي أبو الحسن عليه السلام: إذا كان لك يا سماعة إلى الله حاجة فقل: اللهم إني أسألك بحق محمد وعلي، فإنّ لهما عندك شأنًا من الشأن وقدرًا من القدر، وبحق ذلك القدر أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تفعل بي كذا وكذا» ^(٢).

الوسائل إلى الله في دعاء كميل:

في دعاء كميل نجد طائفة من الوسائل التي يتوسل بها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الله في الدعاء.

وهذه الوسائل هي الشطر الثاني من الدعاء، ولكي نتحدث عن الوسائل التي يقدمها الإمام عليه السلام بين يدي دعائه وحاجاته إلى الله في هذا الدعاء الشريف، لابد أن أقدم توضيحاً موجزاً عن هيكل الدعاء، والأفكار الرئيسة التي تضمنها، والمنهج الذي تنتظم من خلاله الأفكار الرئيسة المطروحة في هذا الدعاء الشريف.

فإن لكل واحد من نصوص الأدعية المعروفة المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أفكاراً محددة، ومنهجية معينة لتنظيم هذه الأفكار، وطريقة للدخول والخروج من الدعاء.

و لكل واحد من الأدعية المعروفة هيكل وتصميم خاص به، و دراسة هذه المناهج تنفعنا في معرفة أساليب الدعاء والمناجاة مع الله. إن لكل دعاء فكرة أساسية رئيسة، و مجموعة أفكار تحتضن هذه الفكرة، و مطلباً أساسياً و مجموعة مطالب أخرى تحتضن المطلب الأساسي، و منهجاً في السؤال و اسلوباً في الدخول و الخروج. و لو أن العلماء أولوا هذه المسألة اهتماماً علمياً كافياً لخرجوا بنتائج مفيدة.

و لست أريد الآن أن أقدم دراسة عن تصميم دعاء كميل و هيكله و الأفكار الأساسية فيه، و إنما أريد أن أقدم فقط توضيحاً موجزاً للإطار العام، و الأفكار الرئيسة لهذا الدعاء بصورة موجزة لتأمل من خلال هذا الإطار في الوسائل التي يقدمها الإمام عليه السلام بين يدي حاجاته إلى الله في هذا الدعاء.

الإطار العام لدعاء كميل:

دعاء كميل من الأدعية الجليلة المعروفة في أوساط المؤمنين، يواظبون عليه ليالي الجمعة، و يقرأونه بصورة جمعية أو فردية. و هذا الدعاء لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام علّمه لكميل بن زياد

النخمي رحمته الله، و تلقّاه المؤمنون عن هذا الطريق جيلاً بعد جيل.

و هذا الدعاء غني بمفاهيم العبودية و التوبة و الإخبات؛ و زاخر بصور حيّة من التضرع و الاستغاثة و الإنابة.

و لست في هذه التأمّلات بصدد شرح هذا الدعاء الشريف و المفاهيم التي يزخر بها، فذلك أمر يطول و لعلّ الله تعالى يرزقني توفيق ذلك و يهيئ لي أسبابه. أمّا الآن فأنا بصدد توضيح هيكل الدعاء، فإنّ هذا الدعاء مصمّم تصميماً خاصاً على ثلاث مراحل، كلّ مرحلة منها تعدّ للمرحلة التالية لها، و فهم هذا التصميم و الأسس التي يقوم عليها هيكل الدعاء يعيننا كثيراً على قراءة الدعاء و تأمل مفاهيمه و الأفكار الواردة فيه، و التفاعل معه.

و لعلّ الله تعالى يجعل هذا الجهد نافعاً و مفيداً للمؤمنين الذين اعتادوا قراءة هذا الدعاء.

فكرة تصميم الدعاء:

كما ذكرنا، هذا الدعاء مصمّم على ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: بحكم المدخل إلى الدعاء، تعدّ الداعي للوقوف بين يدي الله و للدعاء و التضرع و السؤال، فإنّ الذنوب و المعاصي تحجب الإنسان عن الله، و تحبس الدعاء، و لكي يقف الإنسان بين يدي ربّه موقف الدعاء لابدّ أن يجتاز هذه العقبة أولاً.

و في هذا المدخل يبدأ عليّ عليه السلام بطلبين من الله:

أحدهما طلب المغفرة من الله «اللَّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تهتك المعصم. اللَّهُمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم...»؛ هذا ما يتعلق بطلب المغفرة.

و الآخر طلب الذكر والشكر والقرب فيقول: «وأسألك بجودك أن تدنيني من قريبك، وأن توزعني شكرك، وأن تلهمني ذكرك».

ولا بد للإنسان، لكي يتقدم للوقوف بين يدي الله للدعاء، من هذا وذاك معاً. ولا بد أن يغفر الله له ذنوبه، ويزيل عن قلبه الحجب والغشوات أولاً، و لا بد من أن يأذن الله له أن يدنو منه و يوزعه شكره و يلهمه ذكره ثانياً.

وهذه هي الفقرة الأولى من المدخل في هذا الدعاء.

والفقرة الثانية من المدخل عرض للفاقة والحاجة والرغبة إلى الله: «اللَّهُمَّ وأسألك سؤال من اشتدّت فاقته، وأنزل بك عند الشدائد حاجته، وعظم فيما عندك رغبته»؛ وليس من الله مفر، وليس إلى غيره ملجأ.

و هاتان حقيقتان:

أ- ليس من الله مفر: «اللَّهُمَّ عظم سلطانك، و علامكانك، و خفي مكرك، و ظهر أمرك، و غلب قهرك، و جرت قدرتك، و لا يمكن الفرار من حكومتك».

ب - و ليس إلى غيره ملجأ: «اللَّهُمَّ لا أجد لذنوبي غافراً، و لا لقبائحي ساتراً، و لا شيء من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك لا إله إلا أنت».

وهذه هي الفقرة الثانية من المدخل.

و في الفقرة الثالثة من المدخل يستعرض علي عليه السلام بؤس الإنسان و شقاءه الطويل: «اللَّهُمَّ عظم بلائي، و أفرط بي سوء حالي، و قصرت بي أعمالي، و قعدت بي

أغلالي، وحبسني عن نفعي بعد أملِي، وخدعتني الدنيا بفرورها، ونفسي بجنايتها و
مطالي يا سيدي».

ولهذا البؤس والشقاء أسباب من عمل الإنسان وسعيه، فيسأل الله تعالى
أن يهب له هذه الذنوب، ولا يسمح لها أن تحجبه عن الدعاء.

«فأسألك بعزتك، أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي، ولا تفضحني
بخفي ما أطلعت عليه من سري، ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من
سوء فعلي وإساءتي ودوام تفريطي وجهالتي، وكثرة شهواتي وغفلي».

و في الفقرة الرابعة من المدخل تكرس لمفهوم جليل سبق أن أشير إليه
في هذا المدخل، وهو أن العبد لا يجد ملجأ في ضره وبؤسه غير مولاه: «إلهي
من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري».

و في الفقرة الخامسة من هذا المدخل اعترافان:

اعتراف بالسيئات.

و اعتراف بأن لا حجة للعبد على الله فيما خالف من حدوده وأحكامه و
ركب من أهوائه وشهواته.

و في الفقرة السادسة والأخيرة من هذا المدخل حيث اعترف العبد بذنوبه
ومعاصيه وبؤسه وشقائه، وأعلن أن لا مفر له من الله ولا ملجأ منه إلا إليه و
طلب من الله أن لا يؤاخذَه بسوء أفعاله وجرائمه وجرائره، بعد هذه الجولة من
التضرع والمسكنة بين يدي الله يعلن العبد أنه قد رجع إلى مولاه معترفاً بذنوبه،
نادماً منها، منكسراً مستقيلاً، عالماً أنه لا مفر له من الله إلا إليه، ولا مفرع له في

ضره و يؤسه إلا الله.

«و قد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً، نادماً، منكسراً، مستقيلاً، مستغفراً، منيباً، مقراً، مدعناً، معترفاً، لا أجد مفراً مما كان مني، ولا مفرعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري، وإدخالك إياي في سعة رحمتك».

و بهذا ينتهي المدخل.

و قد أشرف العبد على التحرك للمثول بين يدي الله و الدعاء و التضرع، و أعلن ذلك بقوله: «و قد أتيتك».

و تبدأ المرحلة الثانية من الدعاء، و في هذه المرحلة يذكر الإمام الوسائل التي يتوصل بها إلى الله في هذه المرحلة، و هي أربعة وسائل كما أفهم.

و الوسيلة الأولى هي سابق فضله و رحمته بعباده و حبه لهم: «يا من بدأ خلقي، و ذكرني، و تربيته، و برّني، هبني لابتداء كرمك و سالف برّك بي».

و الوسيلة الثانية حبنا له و توحيدنا إياه: «أترك معذبي بنارك بعد توحيدك، و بعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، و لهج به لساني من ذكرك، و اعتقده ضميري من حبك، و بعد صدق اعترافي و دعائي خاضعاً لرؤيتك».

و الوسيلة الثالثة ضعفنا عن تحمّل العذاب و رقة جلودنا و دقة عظامنا: «و أنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا و عقوباتها و ما يجري فيها من المكاره على أهلها على أن ذلك بلاء و مكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة و جليل وقوع المكاره فيها ... إلهي و ربّي و سيّدي، لأيّ الأمور إليك أشكو، و لما منها أضج و أبكي، لأليم العذاب و شدته، أم لطول البلاء و مدته».

و الوسيلة الرابعة التي يتوسل بها الإمام إلى الله في هذا الدعاء هو لجوء العبد الآبق إلى مولاه الذي أبق منه وعصاه، واستعانت به، واستنجاه منه عند ما تنقطع عليه الطرق، ولا يجد لنفسه ملجأ إلا إلى مولاه.

و يصور الإمام هذه الوسيلة أروع تصوير في هذه الكلمات: «فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لأن تركتني ناطقاً لأضجن إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخن إليك صراخ المستصرخين، ولأبكين عليك بكاء الفاقدين، ولأناديئك أين كنت يا ولي المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين».

و تنتهي المرحلة الثانية من هذا الدعاء الشريف بتقديم هذه الوسائل الأربعة، و توسل العبد بها إلى الله لأجل الدعاء و السؤال، و لطلب الوقوف بين يديه سائلاً و داعياً.

و الآن ندخل مع علي عليه السلام المرحلة الثالثة من هذا الدعاء الشريف و في هذه المرحلة - بعد أن توسل الإمام إلى الله بالوسائل الأربعة - يعرض حاجاته و مطالبه على الله واحدة بعد الأخرى، و هذه الحاجات تبدأ من نقطة الحضيض حيث يكون العبد و عمله، و تنتهي إلى نقطة القمة حيث يكون طمع العبد و طموحه في سعة رحمة مولاه.

في نقطة الحضيض نقول: «أن تهب لي في هذه الليلة و في هذه الساعة كل جرم أجرمته، وكلّ ذنب أذنبته، وكل قببح أسررته».

و في نقطة القمة نقول: «و اجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك و أقربهم

منزلة منك وأخصهم زلفة لديك». و الحاجات التي يطلقها الإمام من خلال هذه الفقرات أربع طوائف:

الطائفة الأولى أن يهب الله لنا ذنوبنا و لا يؤاخذنا بسيئاتنا، ويتجاوز عما فعلناه من سوء واقترفناه من جريمة وارتكبناه من قبيح: «أن تهب لي في هذه الليلة وفي هذه الساعة كل جرم أجرمته، وكل قبيح أسررتة، وكل جهل عملته، كتمته أو أعلنته، أخفيتة أو أظهرته، وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي».

و في الطائفة الثانية يستنزل الإمام رحمة الله في كل شأن و في كل رزق، و يطلب من الله تعالى أن يوفر حظّه من كل خير ينزله: «وأن توفر حظّي من كل خير أنزلته، أو برّ نشرته، أو رزقي بسطته».

و هو دعاء شامل واسع لا يخرج منه شيء من رحمة الله.
و الطائفة الثالثة هي أطول فقرات هذا الدعاء و تأخذ أكثر اهتمام الإمام من الدعاء (علاقته بالله).

فيطلب عليه السلام من الله تعالى أن يجعل أوقاته عامرة بذكره، و موصولة بخدمته، و أن يرزقه الجدّ في خشيته، و يُدنيه منه و يقربه إليه، و يرزقه جواره: «أسألك أن تجعل أوقاتي من الليل و النهار بذكرك معمورة، و بخدمتك موصولة ... قوّ على خدمتك جوارحي، و اشدّد على العزيمة جوانحي، و هب لي الجدّ في خشيتك و الدوام في الاتصال بخدمتك، حتى أسرح إليك في ميادين السابقين، و أشتقاق إلى قربك في المشتاقين، و أدنو منك دنو المخلصين، و أخافك مخافة الموقنين، و أجمع في جوارك

مع المؤمنين».

و لا بدّ أن نوضح أنّ الطائفة الأولى و الطائفة الثالثة من فقرات الدعاء كلها تخص علاقة العبد بالله، إلّا أنّ الطائفة الأولى سلبية، يهتم فيها العبد بطلب مغفرة ذنوبه و التجاوز عنها؛ و الطائفة الثالثة إيجابية يهتم فيها بإقامة علاقته مع الله على أساس متين من الإخلاص و الخوف و الخشية و الحب و الشوق.

و في الطائفة الرابعة من المطالب يطلب فيها الإمام من الله أن يجنبه كيد الظالمين و مكرمهم و شرهم، و يرجع مكرمهم إلى نحورهم، و يحفظه من ظلمهم و أذاهم:

«اللّهمّ و من أرادني بسوءٍ فأرده، و من كادني فكدّه».

«و اكفني شرّ الجن و الإنس من أعدائي».

هذه خلاصة موجزة و سريعة لإطار و هيكل هذا الدعاء الشريف.

و لا بدّ لهذا الإجمال من تفصيل و شرح.

الوسائل الأربعة في دعاء كميل:

و الآن نتحدث عن الوسائل الأربعة في دعاء كميل، و هي الفصل الثاني من هذا الدعاء الشريف.

و الوسيلة الأولى: سابق برّه و كرمه و فضله بعبدّه، و إذا كان في عمل العبد و جهده عجز و قصور يحجبانه عن الله، فإنّ سابق فضله تعالى و رحمته بعبدّه يشفع للعبد إلى الله.

فإنَّ سابق فضله و رحمته تعالى بعده دليل على حب الله لعبده. و هذا الحب الإلهي هو الوسيلة التي يقدمها العبد بين يدي حاجاته إلى الله، فإنَّه إذا كان لا يستحق رحمة الله تعالى فإنَّ حب الله تعالى له يؤهله لرحمته و فضله، و يضعه في موضع الإجابة، يقول الإمام في هذه الوسيلة:

«يا من بدأ خلقي و ذكرى و تربيتي و برّي، هبني لابتداء كرمك و سالف برك بي».

فقد بدأنا بالبر و الذكر و الخلق و التربية قبل أن نسأله تعالى، و دون أن نستحق هذا البر و الذكر، فأولئى به تعالى أن يبرنا و يكرمنا و نحن نسأله و نطلب منه، و إذا كانت سيئاتنا و معاصينا تحجبنا عن بَرِّه و رحمته، فإنَّ حَبِّه لنا يشفع لنا عنده، و يضعنا في مواضع بَرِّه و رحمته.

و الوسيلة الثانية: حبنا له، و هو وسيلة ناجحة كحَبِّه لنا، فقد توسَّل الإمام عليه السلام إلى الله تعالى في الوسيلة الأولى بحَبِّه تعالى لنا، ثم توسَّل بعد ذلك بحَبِّنا له و هو وسيلة ناجحة و مؤثرة عند الله كحَبِّه لنا. فإنَّ للحب قيمة كبيرة لاتضاهيها قيمة عند الحبيب، و مهما شككنا نحن في شيء، فلا تشك في حَبِّنا لله تعالى، و أوليائه و الحبِّ بضاعة لا يردّها الله تعالى.

و في سياق هذه الوسيلة يأتي توحيدنا له تعالى و خشوعنا بين يديه، و صلاتنا و سجودنا و ذكرنا و شهادتنا و اعترافنا له بالربوبية، و على أنفسنا بالعبودية.

و نرجع ذلك كله إلى اثنين: إلى حَبِّنا له، و توحيدنا إياه، و نحن على يقين

أن «الحب» و «التوحيد» بضاعتان لا يردهما الله تعالى، و مهما شككنا في شيء فلا نشك و لا نتردد لحظة واحدة في هذا و لا ذاك.

يقول الإمام عليه السلام في التوسل بهذه الوسيلة:

«أترك معذبي بنارك بعد توحيدك، و بعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، و لهج به لساني من ذكرك، و اعتقده ضميري من حبك، و بعد صدق اعترافي و دعائي خاضعاً لرؤيتك».

و في التعليق على هذه الفقرة من الدعاء تحضرنى قصة.

يقال: إن يوسف عليه السلام لما آتاه الله الملك و السلطان في مصر كان يطل ذات يوم على المدينة من شرفة بيته، و كان معه على الشرفة عبد صالح، من عباد الله ممن آتاه الله علماً و نوراً، فمرّ شاب من تحت الشرفة عابراً، فقال ذلك العبد الصالح ليوسف عليه السلام: أتعرفه؟ قال: كلا.

قال: هذا هو الطفل الذي شهد ببراءتك يوم اتهمتكم امرأة العزيز.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

* وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ^(١)

و قد بلغ ذلك الطفل الرضيع الذي شهدك في المهد مبلغ الشباب، و هو ذا.

فاستدعاه يوسف عليه السلام، و أجلسه إلى جنبه و أكرمه و خلع عليه، و بالغ في

إكرامه. و ذلك العبد الصالح ينظر إلى ما يصنع يوسف عليه السلام متعجباً.

فقال له يوسف عليه السلام: أتعجب مما صنعت بهذا الشاب؟ فقال: لا، ولكن هذا

الشاب لم يكن له من الجميل عندك غير الشهادة لك بالبراءة، وقد أنطقه الله تعالى بها، ولم يكن له من فضل في ذلك، ومع ذلك فقد أكرمه بهذه الصورة و بالفت في إكرامه.

فكيف يمكن أن يحرق الله بالنار وجه عبد طال سجوده بين يديه، أو يحرق قلب عبد، انطوى على حبه، أو يحرق لساناً طالما ذكره، و شهد بتوحيده، و نفى الشرك عنه؟! و

و الإمام عليه السلام يقول بهذا الصدد:

«و ليت شعري يا سيدي و إلهي و مولاي، أتسلط النار على وجوه خَزَت لعظمتك ساجدة، و على السن نطقت بتوحيدهك صادقة، و بشرك مادحة، و على قلوب اعترفت بإلهيتك محققة، و على ضماير حوت من العلم بك حتى صارت خاشعة، و على جوارح سمعت إلى أوطان تعبدك طائعة، و أشارت باستغفارك مدعنة ... ما هكذا الظن بك، و لا أخبرنا بفضلك عنك يا كريم».

و الوسيلة الثالثة: ضعفنا عن تحمّل العذاب، ورقة جلودنا، و دقة عظامنا، و قلة صبرنا و تحملنا، و الضعف وسيلة ناجحة إلى القوي المتين، و في كل ضعف ما يجذب القوي، و يستعطفه، و يكسب عطفه و رحمته.

و إنّ في الضعف سرّاً يطلب القوي دائماً، و في القوة سرٌّ يطلب الضعيف دائماً، فكل منهما يطلب الآخر.

و إنّ الطفل الرضيع في ضعفه يطلب حنان الأم، كما أنّ حنان الأم يطلب ضعف الطفل و رفته.

و ليس سلاح أمضى لدى القوي من البكاء و الرجاء الذي هو وسيلة الضعيف و سلاحه. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا الدعاء:

«يا من اسمه دواء، و ذكره شفاء ... ارحم من رأس ماله الرجاء، و سلاحه البكاء».

إنَّ رجاء الفقير للغني رأس ماله، و إنَّ بكاء الضعيف لدى القوي سلاحه، و من لا يفهم سنن الله تعالى في الكون في علاقة الضعيف بالقوي و القوي بالضعيف، لا يفهم هذه الفقرات المؤثرة من كلام الإمام عليه السلام في دعاء كميل.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في مناجاة له أخرى:

«أنت القوي و أنا الضعيف و هل يرحم الضعيف إلا القوي».

و الإمام عليه السلام في هذا الدعاء يتوسل إلى الله تعالى بضعف العبد، و قلة حيلته، و سرعة نفاد صبره و تحمله، و رقة جلده، و دقة عظمه.

يقول عليه السلام:

«يا رب ارحم ضعف بدني، و رقة جلدي، و دقة عظمي».

و إننا لتشوكونا الشوكة، و تمسنا الجمرة، و يلم بنا المرض إمامة خفيفة في الدنيا فتسلبنا النوم و الراحة و القرار و الاستقرار، و هو بلاء قصير مدته، خفيف وزنه، جعله الله تعالى لامتحان عباده و اختبارهم و ابتلائهم رحمة بهم، فكيف بنا إذا سقنا إلى العذاب الأليم و قيل لملائكة العذاب: ﴿خُذُوهُ فَعَلَّوْهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوْهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ﴾^(١).

يقول الإمام: «وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على أهلها، على أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدته، ويدوم مقامه، ولا يخفف عن أهله، لأنه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك و سخطك، وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض، يا سيدي، فكيف لي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين، يا إلهي وربي و سيدي ومولاي».

و الوسيلة الرابعة التي يتوسل بها الإمام عليه السلام في هذا الدعاء هي اضطرار العبد إلى الله، والاضطرار وسيلة ناجحة إلى من يضطر إليه الإنسان، ولا يجد نجاح حاجته إلا عنده.

و أقصد بالاضطرار ألا يجد العبد موضعاً لقضاء حاجته إلا عند الله، ولا مهرباً إلا إليه، ولا ملجأ إلا عنده، وعند ما يكون فرار العبد وهروبه من الله، ولا يجد ملجأ ومهرباً يلجأ إليه ويحتمي به إلا الله، يكون هذا المشهد من أعدى المشاهد إلى استنزال رحمة الله تعالى ورأفته.

إنَّ الطفل الصغير لا يرى في عالمه الصغير غير أمّه وأبيه من يحميه و يدافع عنه و يقضي حاجته و يلبي طلباته، و يمنحه من رحمته و عطفه، فيأنس بوالديه، و يجد عندهما في أفقه الصغير كل مطالبه و ما يحتاج إليه من الرحمة و الرأفة و الشفقة، فإذا ألمّت به ملّة، وإذا نابته نائبة، وإذا خاف من شيء لجأ إلى أبيه و أمّه، و وجد عندهما الأمن و الرحمة و الشفقة، و قضاء حاجته، و الأمن مما يخاف منه.

فإذا كان قد ارتكب ما يستحق العقوبة منهما، و خافهما على نفسه، نظر إلى يمينه و يساره فلم يجد من يلجأ إليه، و لا من يهرب منه، و لا من يجد عنده الأمن إلاّ هما، فيلجأ إليهما و يلقي بنفسه في أحضانهما مستغيثاً بهما، و هما يريدان عقوبته و مؤاخذته.

و هذا المشهد من أكثر المشاهد التي تستدر عطف الوالدين و تكسبه حبهما و عطفهما.

و الإمام عليه السلام في هذا الدعاء الشريف يشير إلى هذا المعنى، فهو قد تعلّم في أفقه الواسع الكبير أن يلجأ إلى الله تعالى في كلّ شيء، و كلّما ألتمت به ملّة، أو نابتة نائبة، أو داهمته مصيبة فزع إلى الله و لم يجد لحاجته قضاء، و لا لما يلم به مفزعاً غير الله. و ها هو يرى العبد قد تعرّض لغضب الله تعالى الذي يرجو رحمته، و لعقوبة الله الذي يرجو الأمن من عنده.

فلا يرى - و قد تعرض العبد لعقوبة الله - ملجأ له غير الله، و لا مهرباً يهرب إليه غير الله تعالى، و لا من يحتمي به و يسأله غيره تعالى.

فيضجّ إليه تعالى و قد ساقه ملائكة العذاب إلى جهنم، يطلب من الله الأمن، و يعوذ برحمته من غضبه، و يستغيثه، و يستصرخه، و يطلب الرحمة لنفسه منه تعالى، كالطفل الذي يتعرض لغضب والديه فلا يفر منهما إلاّ إليهما، و لا يجد من يحتمي به منهما إلاّ هما.

و لنسمع الإمام عليه السلام في هذه الكلمات الشفافة الرقيقة التي تعبر عن روح التوحيد و الدعاء:

«فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً، لأضجنّ إليك بين أهلها ضجج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين ولأناديّك أين كنت يا ولي المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، يا غيات المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين».

وهذا هو الوجه الأول من القضية. والوجه الثاني كالوجه الأول في البدهة والوضوح في علاقة الله تعالى بعبده.

فقد كان الوجه الأول يتلخص في علاقة العبد بالله في اضطراره إليه و لجوئه إلى أمنه و رحمته.

و الوجه الآخر في علاقة الله تعالى بعبده عند ما يحتمي بحماه و أمنه، و يستغيث برحمته و يهرب منه إليه، و يستصرخ رحمته و فضله و هو يتعرض لعقوبته و انتقامه.

فهل يمكن أن يسمع الله تعالى، و هو أرحم الراحمين، استغاثة عبد ساقه جهله و طيشه إلى نار جهنم، يستغيثه، و يستصرخه، و يناديه بلسان أهل توحيده، و يسأله النجاة من النار، و يضح إليه ... فيتركه في عذابها يحرقه لهيبها، و يشتمل عليه زفيرها، و يتقلقل بين أطباقها، و تزجره زبانياتها، و هو تعالى يعلم صدقه في حبه له، و توحيده له، و لجوءه إليه، و اضطراره إليه.

فاستمع إليه:

«أفترأك سبحانه يا إلهي و بحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم سجن فيها بمخالفته، و ذاق طعم عذابها بمعصيته، و حبس بين أطباقها بجرمه و جريرته، و هو

يضع إليك ضجيج مؤمل لرحمتك، و يناديك بلسان أهل توحيدك، و يتوسل إليك برؤيتك، يا مولاي فكيف يبقى في العذاب، و هو يرجو ما سلف من حلمك، أم كيف تؤلمه النار و هو يأمل فضلك و رحمتك، أم كيف يحرقه لهيبها و أنت تسمع صوته و ترى مكانه، أم كيف يشتمل عليه زفيرها و أنت تعلم ضعفه، أم كيف يتقلقل بين أطباقها و أنت تعلم صدقه، أم كيف تزجره زبانيها و هو يناديك يا ربه، أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها، هيهات ما ذلك الظن بك، و لا المعروف من فضلك، و لا مشبه لما عاملت به الموحدين من برك و إحسانك».



ما ينبغي و ما

لا ينبغي من الدعاء

هذان سؤالان، لهما أهمية كبيرة في الدعاء.
ماذا ينبغي لنا أن نطلب من الله تعالى في الدعاء؟
وماذا لا ينبغي لنا أن نطلبه في الدعاء؟

أ- ما ينبغي من الدعاء؟

و لنبدأ بالسؤال الأول : ماذا ينبغي أن نطلب من الله تعالى في الدعاء؟
إنّ الدعاء هو حاجة العبد إلى الله تعالى.
و لا حدّ لفقر العبد و حاجته كما لا حدّ لغنى الرب و سلطانه و كرمه، و
اجتماع هاتين غير المتناهيتين هو الدعاء :
عدم تناهي حاجة العبد، و عدم تناهي غنى الله تعالى و كرمه.
فلا نفاذ لخزائن ملكه، و لا حدّ لسلطانه و قوته، و لا حدّ لجوده و كرمه، و
لا حدّ لفقر العبد و حاجته و ضعفه و قصوره و تقصيره.
و من خلال هذا الوجه نحاول أن نعرف ماذا نطلب من الله تعالى في الدعاء.

أولاً: الصلاة على محمد و آل محمد في الدعاء :

أهم نقطة في الدعاء، بعد الحمد و الثناء على الله تعالى هو الصلاة على
محمد و آل محمد أولياء أمور المسلمين. و تحتل الصلاة على رسول الله ﷺ و

أهل بيته عليهم السلام مساحة واسعة جداً من الأدعية، وقد ورد في النصوص الإسلامية تركيز و تأكيد كبيران على هذه الصلوات. ولهذا الاهتمام سبب واضح؛ فإن الله تعالى يريد أن نجعل من الدعاء وسيلة لارتباط المسلمين بأوليائهم أمورهم، و اعتصامهم بحبل الولاية الذي جعله الله عصمة للمسلمين. و الصلوات من أهم أسباب هذا الارتباط النفسي؛ فإن حلقات الولاية ممتدة بين الله تعالى و عباده، و ولاء رسول الله صلى الله عليه وآله و أهل بيته عليهم السلام من أهم هذه الحلقات.

و يقع الولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله في امتداد الولاية لله، و الولاية لأهل البيت عليهم السلام يقع في امتداد الولاية لرسول الله، و تأكيد هذا الولاية و تعميقه من تأكيد الولاية لله، و من تعميق الولاية لله تعالى و تثبيته. و هذا باب واسع من المعرفة لا يمكن إيجازه في هذا الموضع و لا يمكن أن نبسط الكلام فيه، كما ينبغي، و لعل الله تعالى يوفقني للحديث عن هذه النقطة الهامة و الحساسة في الثقافة الإسلامية، و في تكوين الأمة الإسلامية في موضع آخر.

و قد ورد في النصوص الإسلامية تأكيد بليغ و كثير على ذلك. و فيما يلي نورد بعض النصوص ذات العلاقة بهذا الموضوع.

و أعظمها نص من كتاب الله. يقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «الصلوة على نور على الصراط»^(٢).

و عنه عليه السلام : «إِنَّ أبخل الناس من ذُكرت عنده، و لم يصلّ علي» ^(١).

و روى عبدالله بن نعيم، قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : «إني دخلت البيت، و لم يحضرني شيء من الدعاء إلا الصلاة على محمد و آله» فقال : «أما إنّه لم يخرج أحد بأفضل مما خرجت به».

و عن الباقر و الصادق عليهما السلام : «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الصلاة على محمد و على أهل بيته» ^(٢).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام برواية الشريف في نهج البلاغة :

«إذا كان لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله عليه السلام ثم سل حاجتك؛ فإنّ الله أكرم من أن يسأل حاجتين، فيقضي إحداهما و يمنع الأخرى» ^(٣).
و الدعاء للأنبياء و المرسلين و أوصيائهم من هذا الدعاء.

و قد ورد الصلاة و السّلام على الأنبياء و أوصيائهم عموماً، أو على نحو التشخيص و التّعيين و التسمية كثيراً في نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، و من ذلك الدعاء الوارد في «عمل أمّ داود» الأيام البيض من شهر رجب، و هو دعاء مروى عن الإمام الصادق عليه السلام.

نموذج من الصلاة على محمد و آل محمد :

و هو من أدعية الصحيفة السجادية : «رَبِّ صَلِّ على محمد و آل محمد، المنتجب، المصطفى، المكرّم، المقرّب أفضل صلواتك و بارك عليه أتمّ بركاتك، و

(٢) بحار الأنوار: ٧١ / ٣٧٤.

(١) كنز العمال: ج ٢١٤٤.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١.

ترحم عليه أمتع رحمتك.

رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةَ زَاكِيَّةٍ، لَا تَكُونُ صَلَاةَ أَزْكَى مِنْهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةَ نَامِيَّةٍ، لَا تَكُونُ صَلَاةَ أُنْمَى مِنْهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةَ رَاضِيَّةٍ، لَا تَكُونُ صَلَاةَ فَوْقَهَا، رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَاةَ تَرْضِيهِ، وَتَزِيدَ عَلَى رِضَاهُ، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةَ تَرْضِيكَ، وَتَزِيدَ عَلَى رِضَاكَ، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةَ لَا تَرْضَى لَهُ إِلَّا بِهَا، وَلَا تَرَى غَيْرَهُ لَهَا أَهْلًا... رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ صَلَاةَ تَنْتَظِمُ صَلَوَاتُ مَلَائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأَهْلِ طَاعَتِكَ».

ثانياً: الدعاء للمؤمنين :

و هو من أعظم مطالب الدعاء بعد حمد الله تعالى و ثنائه و بعد الصلاة على محمد و آلِهِ و الأنبياء و أوصيائهم، و هذا الدعاء من أهم أبعاد الدعاء، فهو يربط الفرد المسلم بالأمة المسلمة في عمق التاريخ و على وجه الأرض، كما أن الصلاة على محمد و آلِهِ تربط المؤمن بحبل الولاة النازل من عند الله.

و هذه العلاقة التي ينسجها الدعاء بين الفرد و الأمة من جانب، و بين الفرد و الأفراد الذين يتعامل معهم و يرتبط بهم بنحو من الأنحاء من أفضل أنواع العلاقة؛ لأنَّ هذه العلاقة تتكون بين يدي الله، و في امتداد العلاقة بالله، و لا يعرفها أحد إلا الله، و هي استجابة لدعوة الله تعالى.

و هذا الدعاء يأتي على نحوين : على نحو التعميم من غير تسمية و تشخيص؛ و على نحو التخصيص و التسمية.

و نتحدث إن شاء الله عن كلٍّ منهما :

أ- التعميم في الدعاء للمؤمنين :

و هو دعاء يحبه الله تعالى، و يستجيب له، كما يستجيب لما يليه و يلحقه من الأدعية، فإنَّ الله تعالى أكرم من أن يبعث في الاستجابة، فيستجيب لبعض الدعاء و يرد بعضاً.

و هذا اللون من الدعاء لعموم المؤمنين الحاضرين، و الذين سبقونا بالإيمان، يشعر المؤمن بالارتباط التاريخي و الفعلي (العمودي و الأفقي) بالأسرة المؤمنة في التاريخ، و على وجه الأرض، و بوحدة هذه الأسرة، و بالعلاقة الوشيعة و القوية التي تربطنا بهذه الأسرة، و يكون للدعاء في حياتنا بعدان : البعد الأول منهما يربطنا بالله تعالى، و البعد الثاني يربطنا بالأمة المسلمة معن آمن بالله تعالى في أعماق التاريخ و على وجه الأرض.

و قد ورد في النصوص الإسلامية تأكيدات بليغة على هذا اللون من الدعاء، و ورد أن الله تعالى يثيب صاحب الدعاء بعدد كل مؤمن يشمله دعاؤه بالحسنات، و أن كل مؤمن يشمله هذا الدعاء يشفع له يوم القيامة بين يدي الله تعالى، عند ما يأذن سبحانه للصالحين من عباده بالشفاعة للمذنبين منهم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال : قال رسول الله ﷺ :

«ما من مؤمن دعا للمؤمنين و المؤمنات إلا رآه الله عليه مثل الذي دعا لهم

به من كل مؤمن و مؤمنة، مضى من أول الدهر، أو هو آت إلى يوم القيامة.

و إنَّ العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب، فيقول المؤمنون و

المؤمنات : يا رب، هذا الذي كان يدعو لنا فشققنا فيه، فيشققهم الله عزَّ و جلَّ،

فينجو»^(١).

و عن أبي عبدالله عليه السلام : قال : «من قال كل يوم خمساً وعشرين مرة : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، كتب الله له بعدد كل مؤمن مضى، وبعدد كل مؤمن ومؤمنة بقي إلى يوم القيامة حسنة، ومحا عنه سيئة، ورفع له درجة»^(٢).

و عن أبي الحسن الأول عليه السلام أنه كان يقول :

«من دعا لإخوانه من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وكل الله به عن كل مؤمن ملكاً يدعو له»^(٣).

و عن أبي الحسن الرضا عليه السلام : «ما من مؤمن يدعو للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إلا كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة، منذ بعث الله آدم إلى أن تقوم الساعة»^(٤).

عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

«ما من مؤمن أو مؤمنة، مضى من أول الدهر، أو هات إلى يوم القيامة، إلا وهم شفعاء لمن يقول في دعائه : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، وإنَّ العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة، فيسحب فيقول المؤمنون والمؤمنات : ياربنا، هذا الذي كان يدعو لنا فشفعنا فيه، فيشفعهم الله، فينجو»^(٥).

(١) أصول الكافي : ٥٣٥؛ أمالي الطوسي : ٩٥ / ٢؛ وسائل الشيعية : ١١٥١ / ٤، ح ٨٨٨٩.

(٢) ثواب الأعمال : ٨٨؛ وسائل الشيعية : ١١٥٢ / ٤، ح ٨٨٩١.

(٣) وسائل الشيعية : ١١٥٢ / ٤، ح ٨٨٩٣. (٤) وسائل الشيعية : ١١٥٢ / ٤، ح ٨٨٩٤.

(٥) أمالي الصدوق : ٢٧٣؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٥.

و عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : « ما من مؤمن يدعو للمؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات الأحياء منهم و الأموات، إلّا ردّ الله عليه من كل مؤمن و مؤمنة حسنة منذ بعث الله آدم إلى أن تقوم الساعة »^(١).

و عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

« ما من عبد دعا للمؤمنين و المؤمنات إلّا ردّ الله عليه مثل الذي دعا لهم من كل مؤمن و مؤمنة، مضى من أوّل الدهر، أو هو آت إلى يوم القيامة. إنّ العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة، و يسحب، فيقول المؤمنون و المؤمنات : يا ربنا، هذا الذي كان يدعو لنا فشَقّعنا فيه، فيشقّعهم الله، فينجو من النار »^(٢).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

« إذا دعا أحدكم فليعم؛ فإنه أوجب للدعاء »^(٣).

و عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : « إذا قال الرجل : اللهم اغفر للمؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات، الأحياء منهم و جميع الأموات ردّ الله عليه بعدد ما مضى و من بقى من كل إنسان دعوة »^(٤).

نماذج من التعميم في الدعاء :

و فيما يلي نذكر نماذج من التعميم في الدعاء من نصوص أدعية أهل البيت عليه السلام. من هذه النماذج :

(١) نواب الأعمال : ١٤٦ ؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٦.

(٢) نواب الأعمال : ١٤٧ ؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٦.

(٣) نواب الأعمال : ١٤٧ ؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٦.

(٤) فلاح السائل : ٤٣ ؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٧.

«اللَّهُمَّ اغْنِ كُلَّ فَقِيرٍ، اللَّهُمَّ أَشْبِعْ كُلَّ جَائِعٍ، اللَّهُمَّ اكْسُ كُلَّ عَرِيَانٍ، اللَّهُمَّ اقْضِ دَيْنَ كُلِّ مَدِينٍ، اللَّهُمَّ فَرِّجْ عَن كُلِّ مَكْرُوبٍ، اللَّهُمَّ رَدِّ كُلَّ غَرِيبٍ، اللَّهُمَّ فَكِّ كُلِّ أَسِيرٍ، اللَّهُمَّ أَصْلَحْ كُلَّ فَاسِدٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ اشْفِ كُلَّ مَرِيضٍ، اللَّهُمَّ سَدِّ فَقْرَنَا بِفَنَّاكَ، اللَّهُمَّ غَيْرِ سَوْءٍ حَالِنَا بِحَسَنِ حَالِكَ، وَ صَلِّ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِينَ».

و من هذه النماذج :

«اللَّهُمَّ وَ تَفْضَلْ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْغِنَى وَ الثَّرْوَةِ، وَ عَلَى مَرْضَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِالشِّفَاءِ وَ الصَّحَةِ، وَ عَلَى أَحْيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِاللُّطْفِ وَ الْكَرَامَةِ، وَ عَلَى أَمْوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْمَغْفِرَةِ وَ الرَّحْمَةِ، وَ عَلَى مُسَافِرِي الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِالرَّدِّ إِلَى أَوْطَانِهِمْ سَالِمِينَ غَانِمِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَ صَلِّ اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَ عَتَرَةِ الطَّاهِرِينَ وَ سَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا».

و من أدعية الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام.

«اللَّهُمَّ وَ صَلِّ عَلَى التَّابِعِينَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا وَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ، وَ عَلَى ذُرِّيَّاتِهِمْ، وَ عَلَى مَنْ أَطَاعَكَ مِنْهُمْ، صَلَاةَ تَعْصِمُهُمْ بِهَا مِنْ مَعْصِيَتِكَ، وَ تَفْسَحَ لَهُمْ فِي رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَ تَمْنَعُهُمْ بِهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَ تَعِينَهُمْ بِهَا عَلَى مَا اسْتَعَانُواكَ عَلَيْهِ مِنْ بَرٍّ، وَ تَقِيَهُمْ طَوَارِقَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يُطْرَقُ بِخَيْرٍ».

الدعاء لحُماة ثغور بلاد المسلمين :

و من هذه النماذج الدعاء لحماة ثغور بلاد المسلمين و هو من أدعية الصحيفة السجادية :

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَصِّنْ ثَغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَ أَيْدِ حِمَايَتِهَا بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَّتِكَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاشْحِذْ أَسْلِحَتَهُمْ، وَاحْرَسْ حُوزَتَهُمْ وَامْنَعْ حُومَتَهُمْ، وَآلِفْ جَمْعَهُمْ وَدَبَّرْ أُمْرَهُمْ، وَوَاتِرِبْ بَيْنَ مَيَرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكَفَايَةِ مُؤْنِهِمْ، وَاعْضُدْهُمْ بِالنَّصْرِ، وَاعْنِهِمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطَفْلِ لَهُمْ بِالْمَكْرِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَعَرِّفْهُمْ مَا يَجْهَلُونَ، وَعَلِّمَهُمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَبَصِّرْهُمْ مَا لَا يَبْصُرُونَ».

و من الدعاء للمجاهدين الرساليين من المسلمين، و هو من أدعية الصحيفة السجادية :

«اللَّهُمَّ وَ أَيْمًا مُسْلِمَ أَهْمَتِهِ أَمْرَ الْإِسْلَامِ، وَ أَحْزَنَهُ تَحْزَبَ أَهْلِ الشَّرْكِ عَلَيْهِمْ، فَتَوَيْ غَزَوًا، أَوْ هَمَّ بِجِهَادٍ، فَقَعِدَ بِهِ ضَعْفٌ، أَوْ أَبْطَأَتْ بِهِ فَاقَةٌ، أَوْ أَخَّرَهُ عَنْهُ حَادِثٌ أَوْ عَرَضَ لَهُ دُونَ إِرَادَتِهِ مَانِعٌ، فَارْتَبِ اسْمُهُ فِي الْعَابِدِينَ، وَ أَوْجِبَ لَهُ ثَوَابَ الْمَجَاهِدِينَ، وَ اجْعَلْهُ فِي نِظَامِ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ».

و من الدعاء للمساندين خلف الجبهة، و هو من أدعية الصحيفة :

«اللَّهُمَّ وَ أَيْمًا مُسْلِمَ خَلْفِ غَايَا أَوْ مَرَابِطًا فِي دَارِهِ، أَوْ تَعَهَّدَ خَالَفِيهِ فِي غَيْبَتِهِ أَوْ أَعَانَهُ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَالِهِ، وَ أَمَدَّهُ بِعَتَادٍ، أَوْ رَعَى لَهُ مِنْ وَرَائِهِ حَرَمَةً، فَأَجْرَ لَهُ مِثْلَ أَجْرِهِ وَزَنًا بِوِزْنٍ، وَ مِثْلًا بِمِثْلٍ».

الصيغ الثلاثة للدعاء في القرآن

صيغ الدعاء في القرآن ثلاثة :

١- دعاء الفرد لنفسه.

٢- دعاء الفرد لغيره.

٣- دعاء الجميع للجميع.

و فيما يلي نستعرض هذه الطوائف الثلاثة من الدعاء، لنستعرف على أساليب القرآن في الدعاء للمؤمنين.

١- دعاء الفرد لنفسه :

و هو اسلوب معروف من الدعاء، و نجد في القرآن نماذج من هذا الدعاء على لسان الأنبياء و الصالحين، أو من تعليم الله تعالى لعباده و من ذلك قوله تعالى :

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١).

﴿رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا﴾^(٢).

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِيْ صَدْرِيْ * وَ يَسِّرْ لِيْ أَمْرِيْ * وَ اجْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِّسَانِيْ يَفْقَهُوا قَوْلِيْ﴾^(٣).

(٢) الاسراء : ٨٠.

(١) يوسف : ١٠١.

(٣) طه : ٢٥ - ٢٧.

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(٢).

﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَخْضَعُونِي﴾^(٣).

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي

الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾^(٤).

٢- دعاء الفرد لغيره :

و هو نحو آخر من الدعاء له نماذج و شواهد في القرآن و من ذلك قوله

تعالى :

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُ بِرَحْمَتِكَ وَأَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ﴾^(٥)

و منه دعاء حملة العرش للمؤمنين : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ

الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦).

٣- دعاء الجميع للجميع :

و هو أشهر أساليب الدعاء في القرآن. و أكثر أدعية القرآن من هذا القبيل.

(٢) المؤمنون : ٢٩.

(١) الأنبياء : ٨٩.

(٤) الشعراء : ٨٣ - ٨٥.

(٣) المؤمنون : ٩٨.

(٦) غافر : ٧ - ٩.

(٥) الاسراء : ٢٤.

و من ذلك قوله تعالى :

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣).

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَبَسِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٤).

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَآغْفُ عَنَّا وَ آغْفِرْ لَنَا وَ آرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٥).

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ﴾^(٦).

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا

دُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَثَرِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا

تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(٧).

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^(٨).

(٢) البقرة : ١٢٧.

(١) الفاتحة : ٦ - ٧.

(٤) البقرة : ٢٥٠.

(٣) البقرة : ٢٠١.

(٦) آل عمران : ٨.

(٥) البقرة : ٢٨٦.

(٨) الأعراف : ١٢٥.

(٧) آل عمران : ١٩٣ - ١٩٤.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَورًا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).



تحليل و تفسير للنوع الثالث من الدعاء :

و ما يعيننا في هذا التقسيم هما النحوان النحو الثاني و الثالث؛ و كلاهما دعاء للمؤمنين، إلا أن النحو الثاني من الدعاء دعاء الفرد للجميع، و النحو الثالث من الدعاء دعاء الجميع للجميع، و في هذا النحو من الدعاء :

١- المدعو له هو الجميع، فلا يدعو الفرد لنفسه، و إنما يدعو الفرد للجميع، و قد لا يكون دعاء الفرد لنفسه نافعاً، كما لو كان البلاء نازلاً على الجميع (الأمة) فيكون الفرد مشمولاً للبلاء، حتى لو لم يدخل فيما دخل فيه الآخرون من الظلم، يقول تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٤).

و في هذا المجال لا ينفع الفرد دعاؤه و استغفاره لنفسه، و عليه أن يستغفر و يدعو للجميع، فإذا رفع الله تعالى العذاب عن الجميع ارتفع عنه أيضاً ﴿رَبَّنَا آكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

(٢) الفرقان : ٦٥.

(٤) الأنفال : ٢٥.

(١) المؤمنون : ١١٠.

(٣) التحريم : ٨.

(٥) الدخان : ١٢.

٢- والداعي أيضاً يمثل الجميع، و ينوب عنهم في هذا الدعاء، فإنّ هذا النحو من الدعاء يتصدر غالباً بكلمة «ربنا»، و كأن الفرد الداعي ينوب عن الجميع في الدعاء للجميع، و لا يعزل الداعي نفسه عن المدعو لهم، كما في النحو الثاني من الدعاء، و إنما ينوب عنهم، و يدعو لهم، و يحشر نفسه ضمن الجميع الذين يدعو لهم، و هو من أقرب الدعاء إلى الاستجابة.

فإنّ الله تعالى إمّا أن يردها جميعاً، أو يستجيب لبعض دون بعض أو يتقبلها للجميع.

و الله تعالى أكرم من أن يردها جميعاً؛ و ليس من شأن الكريم التبعيض في الاستجابة.

فعليه يتعين الفرض الثالث، و هو الاستجابة للدعاء في حق الجميع. و أجمل ما في هذا النحو من الدعاء أنّ الفرد هنا يكون رسولاً عن الجميع إلى الله، و يمثل الجميع و يخاطب الله تعالى باسم الجميع، و يقول : «ربنا»، و ينوب عن الجميع و يكون رسول الجميع إلى الله.

و أجمل من ذلك أن كل واحد ممّا يمنح لنفسه الحق أن يكون رسولاً عن الآخرين إلى الله، فكلّ ممّا رسول الناس إلى الله تعالى في الدعاء، و كما أنّ الله تعالى رسولاً إلى الناس كذلك للناس رُسلًا يرفعون تضرعهم و حاجتهم إلى بارئهم.

و الكل هنا رسول عن الكل، و ينوب عن الكل. و من العجب أننا عند ما نعيش في هذه الدنيا في السوق و الشارع نضع

بيننا الحواجز و السدود، و نفصل بعضنا عن بعض، و يكون لكل واحد منا حدوده و حقوقه التي لا يتراجع و لا يتنازل عنها، و لا يمثل أحدنا إلا نفسه، و لا ينوب عن غيره إلا نفسه، و لا ينوب عن غيره إلا بتصريح و إذن، فإذا صعدنا إلى الله بالصلاة و الدعاء، كسرنا هذه الحواجز جميعاً، و لم يكن أحدنا يفصل نفسه عن غيره، و كان كل واحد منا يمثل الكل. و هذا التمثيل من أروع التمثيل و أجمله (تمثيل الجميع للجميع، و نيابة الجميع عن الجميع في النطق و النداء و الدعاء بين يدي رب العالمين).

و أجمل من ذلك كله أن الله تعالى يقبل هذا التمثيل و النيابة و الرسالة عن الجميع من الجميع، و لا يرده و لا يرفضه، و يعطي لدعوة الداعي في هذه الحالة قوة تمثيل الجميع و النيابة عنهم، فإذا قال أحدنا في صلاته : ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) فكأنما رفع الجميع الدعاء للجميع يطلب الهداية من الله. و ناهيك بذلك قيمة للدعاء في هذه الحالة.

فإن كل دعاء لكل واحد منا في كل صلاة يحمل قوة دعاء الجميع للجميع. و الدعاء في مثل هذه الحالة يحمل كفاءة و قوة على درجة عالية جداً في الاسترحام بين يدي الله.

و أجمل من ذلك كله أن في هذه الأدعية ما يجب أن يرفعها كل مسلم إلى الله تعالى في كل يوم مرات عديدة من نحو قوله تعالى : ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

فإنَّ الجميع يمثل الجميع في الدعاء للجميع، و هو من عجائب الدعاء في حساب الرياضيات، فإنه يعود إلى تمثيل الكل للكل في الدعاء للكل. و لتأمل مرة أخرى في قيمة هذا الدعاء.

إنَّ الدعاء للكل ذو قيمة كبيرة باعتبار أنَّ المدعو له هو عموم المؤمنين. و هذا العموم في المدعو له يعطي قيمة كبيرة للدعاء عند الله.

و الداعي لا يرفع نداءه إلى الله بصفته الشخصية، و إنما يرفع إلى الله أيدي الجميع، و نداءهم و هتافهم، و ينوب هو عن الجميع، و يمثلهم بين يدي الله، و الله تعالى يقبل من عبده هذا التمثيل و النيابة عن الآخرين.

و المؤمنون يقبلون تمثيل بعضهم لبعض بين يدي الله، فالتمثيل هنا ليس أدعاء من قبل الفرد بين يدي الله تعالى، و إنما هو تمثيل حقيقي يقبله الله تعالى، و يقبله الذين ينوب عنهم الفرد في الدعاء بين يدي الله فهو تمثيل شرعي مقبول.

و كل دعاء في هذه الحالة يحمل قوة دعاء الجميع. فإذا دعا منا فرد بين يدي الله و قال: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) فكأنما رفع الجميع هذا الدعاء إلى الله، و هذا الدعاء بهذه الدرجة من القوة و الكفاءة، يرفعه في كل يوم كل مسلم يقف بين يدي الله تعالى للصلاة، و يدعو للجميع بالنيابة عن الجميع.

و في كل يوم يضج الناس إلى الله تعالى بهذه الصرخة غير المتناهية في القدرة على الاسترحام و الاستعطاف عشر مرات إلى الله تعالى.

و أجمل من ذلك كله أنَّ الله تعالى هو الذي دعانا إلى أن نضج إليه كل يوم

بهذه الصرخة عشر مرات، و هو الذي علّمنا أن نستهديه و نطلب منه الهداية للجميع، و هو الذي علّمنا أن ننوب عن الجميع في هذا الدعاء، و هو الذي يقبل منا هذه النيابة و التمثيل.

فهل يمكن أن لا يستجيب بعد ذلك كله لدعائنا؟ حاشا.

ب - التخصيص في الدعاء للمؤمنين :

و كما ورد في النصوص الإسلامية (التعميم في الدعاء للمؤمنين) كذلك ورد التخصيص في الدعاء للمؤمنين، و تسميتهم بالدعاء و تشخيصهم و تعيينهم بأسمائهم.

و إنّ لهذا اللون من الدعاء نكهة أخرى و أثراً آخر في نفس صاحب الدعاء، غير النكهة و الأثر اللذين كانا للتعميم، فإنّ هذا اللون من الدعاء يزيل ما قد يتراكم على العلاقات الثنائية و الفتوية بين الأفراد حيناً، و بين مجاميع المؤمنين و طوائفهم حيناً آخر من السلبيات. فإنّ المؤمن إذا سأل الله تعالى الرحمة و المغفرة لإخوانه الذين يسميهم و يعرفهم، و إذا سأل الله تعالى قضاء حاجاتهم و تيسير أمورهم، و كفاية مهامهم في الدعاء، أحبهم و زال ما كان يجد في نفسه تجاههم من الحسد و الكره و الحساسية و النفور أحياناً.

فيكون للدعاء في هذه الحالة ثلاثة أبعاد؟

البعد الأول منها يربط صاحب الدعاء بالله تعالى.

و البعد الثاني يربطه بالمساحة الواسعة للأمة المسلمة على وجه الأرض و في أعماق التاريخ.

و البعد الثالث يربطه بإخوانه و معارفه و أرحامه، و تلك مساحة واسعة من حياته.

و في النصوص الإسلامية نجد اهتماماً بليغاً بهذا اللون من التخصيص و التسمية في الدعاء.

و فيما يلي نذكر طوائف من هذه النصوص بعناوينها الواردة في المجاميع الحديثة.

أ- الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب :

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام : «دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب يدر الرزق، و يدفع المكروه» ^(١).

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : «أوشك دعوة و أسرع إجابة دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب» ^(٢).

و عن أبي خالد القمّاط قال : قال أبو جعفر عليه السلام : «أسرع الدعاء نجحاً للإجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب. يبدأ بالدعاء لأخيه، فيقول له ملك موكل به: آمين و لك مثلاه» ^(٣).

و عن السكوني عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

«ليس شيء أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب» ^(٤).

(١) أصول الكافي : ٤٣٥؛ وسائل الشيعة : ٤ / ١١٤٥، ح ٨٨٦٧.

(٢) أصول الكافي : ٤٣٥. (٣) المصدر السابق.

(٤) وسائل الشيعة : ٤ / ١١٤٦، ح ٨٨٧٠.

و عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « يا علي، أربعة لا ترد لهم دعوة : إمام عادل، والوالد لولده، والرجل يدعو لأخيه بظهر الغيب، والمظلوم. يقول الله عزّ وجلّ : و عزّتي و جلالتي لأنتصرنّ لك و لو بعد حين »^(١).

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « من دعا لمؤمن بظهر الغيب قال الملك : فلك بمثل ذلك »^(٢).

عن حمران بن أعين قال : دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت : « أوصني »، فقال : « أوصيك بتقوى الله، وإيّاك والمزاح؛ فإنه يذهب بهيبة الرجل و ماء وجهه، و عليك بالدعاء لإخوانك بظهر الغيب؛ فإنه يهيل الرزق. يقولها ثلاثاً »^(٣).
و عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام، قال : « الدعاء لأخيك بظهر الغيب يسوق إلى الداعي الرزق، و يصرف عنه البلاء، و يقول الملك : و لك مثل ذلك »^(٤).

ب - الدعاء لأربعين مؤمن :

ورد التأكيد في النصوص على الدعاء لأربعين مؤمن بأسمائهم، و تقديمه على دعاء الإنسان لنفسه.

علي بن إبراهيم عن أبيه بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال :

(١) الخصال للصدوق: ١ / ٩٢؛ الفقيه ٥ : ٥٢.

(٢) أمالي الطوسي: ٢ / ٩٥؛ بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٨٤.

(٣) السرائر: ٤٨٤؛ بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٨٧.

(٤) أمالي الطوسي: ٢ / ٢٩٠؛ بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٨٧.

«من قدّم في دعائه أربعين من المؤمنين، ثم دعا لنفسه استجيب له»^(١).

و عن عمر بن يزيد، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«من قدم أربعين رجلاً من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه استجيب له فيهم و

في نفسه»^(٢).

ج - إيثار الآخرين بالدعاء :

عن أبي عبيدة، عن ثوير، قال : سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول : «إنّ

الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب، أو يذكره بخير، قالوا

: نعم الأخ أنت لأخيك، تدعو له بالخير، و هو غائب عنك و تذكره بخير، قد

أعطاك الله عزّ و جلّ مثلي ما سألت له، و أثنى عليك مثلي ما أثنيت عليه، و لك

الفضل عليه»^(٣).

و عن يونس بن عبد الرحمن عن عبد الله بن جندب أنه سمع أبا الحسن

موسى عليه السلام يقول : «الداعي لأخيه المؤمن بظهر الغيب ينادى من عنان السماء : لك

بكل واحدة مائة ألف»^(٤).

و عن ابن أبي عمير عن زيد النرسي قال : «كنت مع معاوية بن وهب في

الموقف و هو يدعو، فتفقدت دعاءه، فما رأيته يدعو لنفسه بحرف، و رأيته يدعو

لرجل رجل من الآفاق، و يسميهم، و يسمي آباءهم حتى أفاض الناس.

(١) المجالس : ٢٧٣، بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٤، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٥٤، ح ٨٨٩٨.

(٢) المجالس : ٣٢٨، الأمالي : ٢٧٣، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٥٤، ح ٨٨٩٩.

(٣) أصول الكافي : ٥٣٥، بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٧، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٤٩، ح ٨٨٨٢.

(٤) رجال الكشي : ٣٦١.

فقلت له : يا عم لقد رأيت عجباً!

قال : وما الذي أعجبك مما رأيت؟

قلت : إيثارك إخوانك على نفسك في مثل هذا الموضع، و تفقدك رجلاً رجلاً.

فقال لي : لا تعجب من هذا يا بن أخي، فإني سمعت مولاي ... و هو يقول من دعا لأخيه بظهر الغيب ناداه ملك من السماء الدنيا : يا عبدالله، لك مائة ألف ضعف مما دعوت ...» الخ ^(١).

و عن الحسين بن علي عليه السلام عن أخيه الحسن عليه السلام، قال : «رأيت أُمِّي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راکعة، ساجدة، حتى اتضح عمود الصبح، و سمعتها تدعو للمؤمنين و المؤمنات، و تسميهم و تكثر الدعاء لهم و لا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها : يا أُمّاه : لم لا تدعين لنفسك، كما تدعين لغيرك؟ فقالت : يا بني، الجار ثم الدار» ^(٢).

و عن أبي ناثانة عن علي عن أبيه، قال : «رأيت عبدالله بن جندب بالموقف، فلم أر موقفاً أحسن من موقفه، ما زال ماذاً يديه إلى السماء و دموعه تسيل على خديه حتى تبلغ الأرض. فلما صدر الناس قلت له : يا أبا محمد، ما رأيت موقفاً أحسن من موقفك! قال : و الله ما دعوت إلا لإخواني، و ذلك أن أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أخبرني أنه من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من

(١) عدة الداعي : ١٢٩، بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٧، وسائل الشيعة : ٤ / ١١٤٩، ح ٨٨٨٥.

(٢) علل الشرائع : ٧١.

العرش : و لك مائة ألف ضعف. فكرهت أن أدع مائة ألف ضعف مضمونة لواحدة لا أدري تستجاب أم لا» ^(١).

و عن عبدالله بن سنان قال : «مررت بعبدالله بن جندب فرأيتُه قائماً على الصفا، و كان شيخاً كبيراً فرأيتُه يدعو و يقول في دعائه : اللهمّ فلان بن فلان. اللهمّ فلان بن فلان. اللهمّ فلان بن فلان، ما لم أحصهم كثرة.

فلما سلّم قلت له : يا عبدالله، لم أر موقفاً قط أحسن من موقفك! إلا أني نعتت عليك خلّة واحدة. فقال : و ما الذي نعتت عليّ؟ فقلت له : تدعو للكثير من إخوانك و لم أسمعك تدعو لنفسك شيئاً.

فقال لي : يا عبدالله، سمعت مولانا الصادق عليه السلام يقول : «من دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب نودي من عنان السماء : لك يا هذا مثل ما سألت في أخيك مائة ألف ضعف، فلم أحب أن أتروك مائة ألف ضعف مضمونة بواحدة لا أدري أtestجاب أم لا» ^(٢).

و عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه قال : «كان عيسى بن أعين إذا حج فصار إلى الموقف أقبل على الدعاء لإخوانه حتى يفيض الناس، فقليل له : تنفق مالك، و تتعب بدنك، حتّى إذا صرت إلى الموضع الذي تبث فيه الحوائج إلى الله أقبلت على الدعاء لإخوانك، و تترك نفسك! فقال : إنني على يقين من دعاء

(١) أمالي الصدوق : ٢٧٣؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٨٤.

(٢) فلاح السائل : ٤٣؛ بحار الأنوار : ٩٣ / ٣٩٠ - ٣٩١.

الملك لي و شك من الدعاء لنفسي»^(١).

و عن إبراهيم بن أبي البلاد (أو عبدالله بن جندب) قال : «كنت في الموقف فلما أفضت لقيت إبراهيم بن شعيب، فسلمت عليه، و كان مصاباً باحدى عينيه، و إذا عينه الصحيحة حمراء كأنها علقه دم، فقلت له : قد أصبت باحدى عينيك، و أنا مشفق لك على الأخرى، فلو قصرت عن البكاء قليلاً.

قال : لا و الله يا أبا محمد، ما دعوت لنفسي اليوم بدعوة؟

فقلت : فلمن دعوت؟

قال : دعوت لإخواني : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : من دعا لأخيه بظهر الغيب، و كل الله به ملكاً يقول : و لك مثله. فأردت أن أكون إنما أدعو لإخواني، و يكون الملك يدعو لي لأنني في شك من دعائي لنفسي، و لست في شك من دعاء الملك لي»^(٢).

ثالثاً: الدعاء للوالدين :

و هو من برّ الوالدين و مصاديق برّ الوالدين كثيرة.

فمنه أن يتصدق الإنسان عنهما، و منه أن يحج عنهما، و منه أن يصلي عنهما، و منه الدعاء لهما، و منه غير ذلك.

و روي عن الصادق عليه السلام : «ما يمنع الرجل منكم أن يبرّ والديه حين أو ميتين، يصلي عنهما، و يتصدق عنهما، و يحج عنهما، و يصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما، و له مثل ذلك، فيزيده الله عزّ و جلّ ببرّه (وصلته) خيراً كثيراً».

(١) الاختصاص : ٦٨، بحار الأنوار : ٣٩٢ / ٩٣. (٢) الاختصاص : ٨٤، بحار الأنوار : ٣٩٢ / ٩٣.

و عنه عليه السلام أيضاً : « كان أبي يقول : خمس دعوات لا يحجب عن الرب تبارك و تعالى :

١- دعوة الإمام المقيط.

٢- و دعوة المظلوم، يقول الله عزّ و جلّ : لأنتقم لك و لو بعد حين.

٣- و دعوة الولد الصالح لوالديه.

٤- و دعوة الوالد الصالح لولده.

٥- و دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب، فيقول : و لك مثلاه» ^(١).

و من الدعاء للوالدين، الدعاء الوارد في الصحيفة السجادية :

«اللّهُمَّ صلّ على محمّد و آلِهِ ذرّيته، و اخصّص أبويّ بأفضل ما خصّصت به آباء عبادك المؤمنين و أمهاتهم يا أرحم الراحمين، اللّهُمَّ لا تنسني ذكرهما في أدبار صلاتي، و في كل أن من آناء ليلي، و في كل ساعة من ساعات نهارِي، و اغفر لي بدعائي لهما، و اغفر لهما ببرهما لي مغفرة حتماً، و ارض عنهما بشفاعتي لهما رضاء عزماً، و بلغهما بالكرامة مواطن السلامة، اللّهُمَّ و إن سبقت مغفرتك لهما فشغفهما فيّ، و إن سبقت مغفرتك لي فشغفني فيهما، حتّى نجتمع برأفتك في دار كرامتك، و محل مغفرتك و رحمتك».

رابعاً : دعاء الانسان لنفسه :

و هي آخر محطة من محطات الدعاء، و ليس أُولاهَا.

و من العجب أنّ الإسلام يطلب من الإنسان أن يتنكر لنفسه في الحياة

الدنيا في شؤون معيشتة و في تعامله مع الآخرين، و يؤثرهم على نفسه، كما يطلب منه أن يتنكر لنفسه، و يؤثر الآخرين على نفسه بين يدي الله تعالى في الدعاء أيضاً.

و لكن عليه ألا ينسى نفسه من الدعاء بين يدي الله تعالى. فماذا نسأل لأنفسنا من الله تعالى؟ و كيف ندعو؟
هذا ما سنحاول إن شاء الله أن نبحث عنه.

أ - التعميم في الدعاء:

ينبغي في الدعاء أن نطلب من الله تعالى كل شيء مما نحتاج إليه، و كل ما يهمننا في دنيانا و آخرتنا، و نطلب منه أن يكفيننا كلما نحترز منه من سوء و شر في ديننا و دنيانا، فإن مفاتيح الخير و أسبابه كلها بيد الله، و لا يمتنع عن إرادته شيء، و لا يعجزه شيء و لا يبخل على عباده بشيء من الخير و الرحمة.
و إذا كان الله تعالى لا يبخل بالعطاء والإجابة، فمن المعيب، و من القبيح أن يبخل العبد بالسؤال و الدعاء.

في الحديث القدسي: «لو أن أولكم و آخركم و حيكم و ميتكم اجتمعوا فتمتنى كل واحد ما بلغت أمنيته فأعطيته، لم ينقص ذلك من ملكي»^(١).

و أيضاً عن رسول الله ﷺ من الحديث القدسي: «لو أن أهل سبع سماوات و أرضين سألوني جميعاً، و أعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من

ملكي وكيف ينقص ملك أنا قيمه»^(١).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «سلوا الله و أجزلوا؛ فإنه لا يتعاضمه شيء»^(٢).

و روي: «لا تستكثروا شيئاً مما تطلبون؛ فما عند الله أكثر».

و أمثلة التعميم والتوسعة في الدعاء في طلب كل خير، والاحتراز من كل شر كثيرة في النصوص المروية من الدعاء عن أهل البيت:

نذكر منها بعض النماذج.

منها الدعاء الوارد بعد الفرائض في أيام شهر رجب:

«يا من يعطي الكثير بالقليل، يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله، و من لم يعرفه تحنناً منه و رحمة، أعطني بمسألتني إياك جميع خير الدنيا و جميع خير الآخرة، و اصرف عني بمسألتني إياك جميع شر الدنيا و شر الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت، و زدني من فضلك يا كريم».

و في الدعاء: «اللهم إني أسألك مفاتيح الخير و خواتمه، و سوابغه و فوائده و بركاته، و ما بلغ علمه علمي، و ما قصر عن إحصائه حفظي».

و في الدعاء: «يا من هو في علوه قريب، يا من هو في قربهِ لطيف، صلّ على محمد و آل محمد. اللهم اني اسألك لديني و دنيائي و آخرتي من الخير كله، و أعوذ بك من الشر كله».

و في الدعاء: «و أدخلني في كل خير أدخلت فيه محمدًا و آل محمد، و

(١) بحار الأنوار: ٣٠٣ / ٩٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠٢ / ٩٣.

أخرجني من كل شر أخرجت منه محمدًا و آل محمد».

و في الدعاء: «و اكفني ما أهمني من أمر دنياي و آخرتي».

و في الدعاء: «اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، و لا همأً إلا فرّجته، و لا سُقماً إلا شفيته، و لا عيباً إلا سترته، و لا رزقاً إلا بسطته، و لا خوفاً إلا آمنت، و لا سوءاً إلا صرفته، و لا حاجة هي لك رضا، ولي فيها صلاح إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

و في الدعاء: «يا من بيده مقادير الدنيا و الآخرة، و بيده مقادير النصر و الخذلان، و بيده مقادير الغنى و الفقر، و بيده مقادير الخير و الشر، صل على محمد و آل محمد، و بارك لي في ديني الذي هو ملاك أمري، و دنياي التي فيها معيشتي، و آخرتي التي إليها منقلي، و بارك لي في جميع أموري ... أعوذ بك من شرّ المحيا و الممات، و أعوذ بك من مكاره الدنيا و الآخرة».

و في الدعاء: «أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به السماوات، و انكشفت به الظلمات، و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين أن تصلي على محمد و آل محمد، و أن تصلح لي شأني كله، و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

و في دعاء الأسحار للإمام زين العابدين عليه السلام: «اكفني المهم كله، و اقض لي بالحسن، و بارك لي جميع أموري، و اقض لي جميع حوائجي، اللهم يسّر لي ما أخاف تعسيره، فإنّ تيسير ما أخاف تعسيره عليك يسير، و سهل لي ما أخاف حزنوته، و نفس عني ما أخاف ضيقه، و كفّ عني ما أخاف غمّه، و اصرف عني ما أخاف بليّته».

و في دعاء الأسحار: «و هب لي رحمة واسعة جامعة أطلب بها خير الدنيا و الآخرة».

ب- و لا تحجبنا جلائل الحاجات عن صغارها:

قد يكون من المعيب أن يطلب بعضنا من بعض حاجاته الطفيفة و الصغيرة، و لكن عند ما يكون وجه العبد إلى الله تعالى في الطلب و السؤال يختلف الأمر، فلا يكون الطلب معيباً، مهما صغرت الحاجة، و خفت.

فإنّ العبد مكشوف لربه سبحانه و تعالى، بكل حاجاته، و نقصه و ضعفه، و بكل سوائه و عوراته، و لا يخفى عليه سبحانه شيء من فقرنا و نقصنا حتى نخجل أن نعرض عليه، سبحانه، ضعفنا و عجزنا و حاجاتنا التي نخجل أن نعرضها على غيره سبحانه.

فلا ينبغي أن تحجب جلائل الحاجات و الطلبات عنه سبحانه صغار الحاجات و خفافها.

و الله تعالى يحب أن يرتبط به عبده في كل حاجاته و شؤونه، صغارها و كبارها، حتى يكون ارتباطه به ارتباطاً دائماً، و لن يدوم هذا الارتباط، و يستمر و يتصل بين العبد و ربه، إلا إذا كان العبد يشعر بالحاجة إلى ربه، في كلّ شؤونه و حاجاته في جلائل الحاجات و صغارها، حتى في مثل شسع نعله إذا انقطع.

عن رسول الله ﷺ قال: «سلوا الله عزّ و جلّ ما بدا لكم من حوائجكم حتى شسع النعل، فإنّه إن لم ييسره لم يتييسر».

و عنه ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلّها، حتى يسأله شسع نعله إذا

انقطع»^(١).

و عنه عليه السلام: «لا تعجزوا عن الدعاء؛ فإنه لم يهلك أحد مع الدعاء، و ليسأل أحدكم ربّه حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، و اسألوا الله من فضله؛ فإنه يحب أن يسأل»^(٢).

و عن سيف التمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«عليكم بالدعاء؛ فإنكم لا تتقربون بمثله، و لا تتركوا صغيرة لصغرها أن تسألوها، فإنّ صاحب الصغائر هو صاحب الكبائر»^(٣).

و في الحديث القدسي: «يا موسى، سلني كلّ ما تحتاج إليه، حتى علف شاتك و ملح عجيتك»^(٤).

و لسنا بحاجة إلى التأكيد على أنّ هذا المبدأ في الدعاء لا يعني التخلي عن العمل و الحركة و السعي. و لكن على الإنسان في حركته و سعيه أن لا يضع أولاً ثقته و رجاءه في عمله و حركته، بل يحافظ على رجائه و ثقته بالله تعالى، و على الإنسان ثانياً أن لا يقطع علاقته و ارتباطه و إحساسه بالحاجة إلى الله تعالى في زحمة تحرّكه و عمله و سعيه.

و هذا و ذاك يتطلبان من الإنسان أن يسأل الله تعالى كل حاجاته و شؤونه حتى شسع نعله و علف دابته و ملح عجينه، كما ورد في الحديث القدسي.

(١) مكارم الأخلاق: ٣١٢؛ بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٠٠.

(٣) بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٣؛ المجالس: ١٩؛ وسائل الشيعة: ٤ / ١٠٩٠، ح ٨٦٣٥؛ أصول الكافي: ٥١٦.

(٤) عدة الداعي: ٩٨.

ج - نسأل الله تعالى النعم الجليلة والكبرى:

كما نسأل الله تعالى كل شيء، نسأله النعم الجليلة والكبرى، ولا نستكثر نعمة مهما جلّت وعظمت أن نسألها من الله، إن كان ذلك في الإمكان، فلا يعظم شيء على الله، ولا يعجز الله تعالى شيء، ولا ينقص من خزائنه مهما كان عطاؤه جليلاً وعظيماً.

وكما ينبغي أن لا نخجل من الله تعالى نطلب منه صفائر الأمور، من نحو علف الدابة، وشسع النعل، و ملح العجين، كذلك ينبغي أن لا نستكثر على الله تعالى أن نسأله النعم العظيمة الجليلة، مهما عظمت وجلّت.

روي عن ربيعة بن كعب قال: «قال لي ذات يوم رسول الله ﷺ: يا ربيعة، خدمتني سبع سنين، أفلا تسألني حاجة؟ فقلت: يا رسول الله، أمهلني حتى أفكر. فلما أصبحت ودخلت عليه قال لي: يا ربيعة، هات حاجتك، فقلت: تسأل الله أن يدخلني معك الجنة، فقال لي: من علمك هذا؟ فقلت: يا رسول الله، ما علمني أحد، لكنني فكرت في نفسي وقلت: إن سألته مالا كان إلى نفاذ، وإن سألته عمراً طويلاً وأولاداً كان عاقبتهم الموت. قال ربيعة: فنكس رأسه ساعة ثم قال: أفعل ذلك، فأعطني بكثرة السجود. قال: وسمعته يقول: ستكون بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالتزموا علي بن أبي طالب عليه السلام» الخبر بتمامه ^(١).

و عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فإذا أراد أن يفعله قال: نعم، وإذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان لا يقول لشيء: لا، فأتاه أعرابي

فسأله فسكت، ثم سأله فسكت، ثم سأله فسكت، فقال ﷺ - كهينة المسترسل - : ما شئت يا أعرابي؟ فقلنا: الآن يسأل الجنة، فقال الأعرابي: أسألك ناقة ورحلها و زاداً، قال: لك ذلك، ثم قال ﷺ: كم بين مسألة الأعرابي و عجوز بني إسرائيل؟ ثم قال: إن موسى لما أمر أن يقطع البحر فانتهى إليه و ضربت وجوه الدواب رجعت؛ فقال موسى: يا ربّ، مالي؟ قال: يا موسى، إنك عند قبر يوسف فاحمل عظامه، و قد استوى القبر بالأرض، فسأل موسى قومه: هل يدري أحد منكم أين هو؟ قالوا: عجوز لعلها تعلم، فقال لها: هل تعلمين؟ قالت: نعم، قال: فدليتنا عليه، قالت: لا و الله حتى تعطيني ما أسألك، قال: ذلك لك، قالت: فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون في الجنة، قال: سلي الجنة. قالت: لا و الله إلا أن أكون معك، فجعل موسى يراود فأوحى الله إليه: أن أعطاها ذلك: فإنها لا تنقصك، فأعطاها و دلته على القبر»^(١).

د - الإحالة إلى التدبير الإلهي في الدعاء:

و من الدعاء أن نطلب من الله تعالى أن يغفينا بتدبيره عن تدبيرنا، و يتولّى أمرنا برحمته و حكمته، و لا يكل شيئاً من أمرنا إلى أنفسنا. في دعاء عرفة للامام الحسين عليه السلام: «أغثني بتدبيرك لي عن تدبيرى، و باختيارك عن اختياري». و في المناجاة الشعبانية: «و تولّ من أمري ما أنت أهله» و قد ورد: «حسبي عن سؤالي علمه بحالي»^(٢).

وقد روي أن نمرود لما أمر باللقاء إبراهيم عليه السلام في النار جاءه جبرئيل عليه السلام فقال له: هل لك حاجة، فقال: أئماً إليك فلا، حسبي الله، و نعم الوكيل، فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردت أن أخدم النار، أخدمت النار، فإن خزائن الأمطار و المياه بيدي، فقال لا أريد، و أتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار، قال: لا أريد. فقال جبرئيل: فاسأل الله، فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» ^(١).

و ليس معنى ذلك الامتناع عن الدعاء و إنما معناه إحالة الأمر إلى الله تعالى في التدبير لعبده بما يراه.

و هي حالة التفويض إلى الله في كل أمر، و الثقة بتقدير الله تعالى و قضائه و حكمه و تدبيره في الرخاء و البلاء.

عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي إنَّ اختلاف تدبيرك و سرعة طواء مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، و اليأس منك في بلاء»؛ و هو من دقائق المفاهيم التي تزخر بها أدعية أهل البيت عليهم السلام.

يقول الإمام عليه السلام: «إنَّ عبادك العارفين لا يسكنون إلى عطاء مهما كان العطاء واسعاً، و لا ييأسون منك في بلاء مهما كان البلاء قاسياً شديداً، لما عرفوا من سرعة تعاقب أحكامك و قضائك على عبادك، و اختلاف تدبيرك من حال إلى حال. فلا يسكن عبادك إلى عطاء و رزق، و لا ييأسون من رحمتك في بلاء (بلى) يسكنون إلى رحمتك، و لا ييأسون من فضلك».

و هذا مفهوم يستقيه الإمام الحسين عليه السلام من القرآن مباشرة: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا

عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»^(١).

و قد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الزهد كله بين كلمتين من كتاب الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَقْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾»^(٢) فإذا رزق الله تعالى عبداً من عباده الثقة بقضائه وقدره، و رزقه التفويض إليه تعالى ... فإنَّ العبد عندئذ يسكن إلى قضاء الله وقدره في السراء والضراء، و لا يسكن إلى عطاء، و لا يئأس في بلاء.

و قد ورد في نصوص الأدعية التأكيد على هذا المعنى كثيراً. ففي الزيارة المعروفة بزيارة أمين الله: «اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسِي مَطْمَئِنَّةً بِقَدْرِكَ، رَاضِيَةً بِقَضَائِكَ، مَوْلَعَةً بِذِكْرِكَ وَ دَعَائِكَ صَابِرَةً عِنْدَ نَزُولِ بَلَائِكَ، شَاكِرَةً لِفَوَاضِلِ نِعَمَائِكَ».

و يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء: «وَأَلْهِمْنَا الْإِنْقِيَادَ لِمَا أوردت عَلَيْنَا مِنْ مَشِيئَتِكَ، حَتَّى لَا نَحْبَ تَأْخِيرَ مَا عَجَلْتَ، وَ لَا تَعْطِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَ لَا نَكْرَهَ مَا أَحْبَبْتَ، وَ لَا نَتَخِيرَ مَا كَرِهْتَ»^(٣).

و يقول عليه السلام في موضع آخر من الدعاء: «و طَيِّبْ بِقَضَائِكَ نَفْسِي، وَ وَسِّعْ بِمَوَاقِعِ حُكْمِكَ صَدْرِي، وَ هَبْ لِي الثِّقَةَ لِأَقْرَمِهَا بِأَنْ قَضَاءَكَ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِالْخَيْرَةِ».

و في دعاء الصباح لأمر المؤمنين عليه السلام: «إِلَهِي هَذِهِ أَرْمَةٌ نَفْسِي عَقَلْتُهَا بِعَقَالِ مَشِيئَتِكَ»^(٤).

(٢) الحديد: ٢٣.

(١) الحديد: ٢٣.

(٤) دعاء الصباح.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء ٣٣.

هـ- التماس وجه الله من الله:

و من أرق الأدعية وأجلها أن يطلب الإنسان من الله تعالى لا دنيا ولا آخرة، وإنما يطلب منه تعالى وجهه الكريم، و رضاه و لقاءه، و قربه و الوصول إليه، و حبه، و الانس به، و الشوق إليه. ففي الدعاء كانت الصديقة الزهراء عليها السلام تطلب من الله أن يرزقها، قبل أن يقبضها ملك الموت بأمر الله، بشارة من الله و ليست من غيره، يتلج بها صدرها و تسر بها نفسها، فتقول: «بشارة منك ليست من أحد غيرك، تتلج بها صدري، و تسر بها نفسي، و تقرّ بها عيني، و يتهلل بها وجهي ... و يطمئن بها قلبي، و يتبأثر بها سائر جسدي»^(١).

و عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «منك أطلب الوصول إليك». و يقول أمير المؤمنين عليه السلام: في دعاء الصباح: «أنت غاية مطلوبي و مناي». و في مناجاة (المحبين) من المناجاة الخمسة عشر للإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، و من ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا».

و في مناجاة (المريدين) من المناجاة الخمسة عشر المعروفة للإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، و سيرنا من أقرب الطرق للوفود عليك».

و في مناجاة المتوسلين من الخمسة عشر: «واجعلني من صفوتك الذين ... أقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقائك».

ومن دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «و اطلبني برحمتك حتى أصل إليك».

و في دعاء كميل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «و أستشفع بك إلى نفسك، و هب لي الجَدَّ في خشيتك، و الدوام في الاتصال بخدمتك ... حتى أدنو منك دنوَّ المخلصين، و أجتمع في جوارك مع المؤمنين».

و في مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي فاجعلنا ممَّن هيَّمت قلبه لإرادتك، و اجتبى ته لمشاهدتك، و أخليت وجهه لك، و فرغت فؤاده لحبك، و رَغَّبته فيما عندك، و قطعت عنه كل شيء يقطعه عنك».

ب - ما لا ينبغي من الدعاء:

و الآن نتحدث عما لا ينبغي من الدعاء، و هو طائفة من العناوين نستخرجها من نصوص القرآن و الحديث، و إليك طائفة من هذه العناوين مما لا ينبغي الدعاء له:

١- الدعاء على خلاف سنن الله العامة في الكون و الحياة:

و قد دعا الله تعالى نوح عليه السلام أن يشفَّعه في ولده، و ينجيه من الفرق، بناءً على وعد وعده الله تعالى في نجاة أهله، فلم يستجب الله لعبده و نبيه نوح عليه السلام ردَّ دعاءه، و قال له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(١) و وعظه ألا يعود لمثل هذا الدعاء.

﴿و نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ قال يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمَ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَاحِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشَالَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾.

و قد كان من حق نوح عليه السلام أن يسأل الله تعالى نجاة من كان من أهله. أما من لم يكن من أهله فلا يحق له أن يسأل له النجاة من الغرق.

و لم يكن ابنه من أهله، وهذا هو حكم الله، و لم يكن يحق لنوح عليه السلام أن يسأل الله تعالى على خلاف قوانينه و أحكامه.

و لننظر في جواب نوح عليه السلام، و هو جواب العبد المنيب الذي يسرع إلى مرضاة ربه، و يعوذ به أن يسأله ما ليس له به علم، و ينيط نجاحه و فوزه برحمته و مغفرته تعالى.

إنّ فهم سنن الله تعالى أمر لا بدّ منه في الدعاء، و ليست مهمّة الدعاء اختراق هذه السنن و تجاوزها، و إنما مهمّة الدعاء توجيه العبد إلى السؤال من الله في دائرة سننه و قوانينه، إنّ سنن الله تجسّد دائماً، إرادته تعالى التكوينية، و مهمّة الدعاء استعطاف إرادة الله و ليس تجاوزها و إختراقها، والله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَغْوِيلاً﴾ (٢).

و النظام الكوني هو تجسيد و تبلور لإرادة الله الذي لا يصلح أمر الكون من دونه؛ و لا يصح أن يطلب العبد في الدعاء تغييره. فإنّ الدعاء من أبواب رحمة الله تعالى لعباده؛ و إرادة الله تعالى مطابقة دائماً لرحمته و لا يصح من العبد أن يسأل الله تعالى تغييرها و استبدالها.

و لا تختلف سنة عن سنة، فكل سنة تمثل إرادة الله، و كل إرادة لله تمثل رحمة الله و حكمته اللتين لا رحمة و لا حكمة فوقهما، سواء في ذلك السنن الكونية و التاريخية و الاجتماعية.

فمن سنن الله تعالى مثلاً حاجة الناس بعضهم إلى بعض في شؤون دينهم و دنياهم، و ليس من الصحيح أن يطلب الإنسان من الله تعالى أن يغنيه عن الآخرين و لا يحوجه إلى خلقه، فهو دعاء على خلاف سنة الله تعالى و إرادته تماماً.

و قد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «قلت: اللهم لا تحوجني إلى أحد من خلقك، فقال رسول الله ﷺ: يا علي، لا تقولن هكذا، فليس من أحد إلا و هو محتاج إلى الناس.

قال: فقلت: كيف (أقول) يا رسول الله؟

قال: قل: اللهم لا تحوجني إلى شرار خلقك»^(١).

و روي عن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث أنه قال له: ادع الله أن يغنيني عن خلقه. قال: إن الله قسم رزق من شاء على يدي من شاء، و لكن إسأل الله أن يغنيك عن الحاجة التي تضطرك إلى لئام خلقه»^(٢).

و بهذا الفهم للدعاء نجد أن النصوص الإسلامية تحدّد للدعاء دائرة واقعية و تخرج الدعاء عن الدوائر غير الواقعية و الخيالية.

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٥.

(٢) أصول الكافي: ٤٣٨، وسائل الشيعة: ٤ / ١١٧٠، ح ٨٩٤٦.

و تؤكد هذه النصوص حقيقة هامة في طريقة و أسلوب معيشة الإنسان المسلم. فكما يجب أن يكون سعيه و حركته واقعيين، و بعيدين عن الخيال، كذلك يجب أن يكون دعاؤه في نفس الدائرة الواقعية.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سأله شيخ من الشام: أي دعوة أضلّ؟ فقال: «الداعي بما لا يكون»^(١).

و ما لا يكون هو ما يقع خارج دائرة سنن الله المتعارفة في حياة الإنسان، و لا يكون التفكير فيه و السعي إليه واقعياً.

و في عدة الداعي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من سأل فوق قدره استحق الحرمان»^(٢).

و أعتقد أن المقصود بالسؤال (فوق قدره) هو السؤال فيما لا يكون طلبه واقعياً.

٢- الدعاء بما لا يحل:

و كما لا ينبغي السؤال و الدعاء بما لا يكون كذلك لا ينبغي الدعاء بما لا يحل، و كلاهما من باب واحد؛ فإنّ الأوّل خروج على إرادة الله التكوينية، و الثاني خروج على إرادة الله التشريعية.

يقول تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٣).

و قد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

(٢) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٧، ح ١١.

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٤.

(٣) التوبة: ٨٠.

«لا تسأل ما لا يكون و ما لا يحل»^(١).

٣- تمنى زوال نعمة الغير:

و مما لا يجوز في الدعاء أن يتمنى الإنسان أن ينقل الله تعالى النعمة من الآخرين إلى الداعي.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢).

و ليس من بأس على الإنسان أن يتمنى من الله النعمة، و يتمنى أن ينعم عليه مثل ما أنعم على الآخرين و أفضل منهم، و لكن ما لا يحبه الله تعالى لعباده أن يطيل الإنسان النظر إلى ما أنعم الله على عباده من النعمة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣).

و لا يحب الله تعالى لعباده أن يتمنى الإنسان أن ينقل الله تعالى النعمة من الآخرين إليه. فإن فيه من تمنى سلب النعمة عن الآخرين ما لا يرتضيه الله تعالى لعباده، و فيه من ضيق النظر و الأفق في الأمنيات و التمنيات ما لا يحبه الله تعالى لعباده. إن سلطان الله واسع و خزائنه لا نفاذ لها، و ملكه لا حد له، و ليس من بأس على الإنسان أن يطلب من الله كل شيء، و أن يتمنى أن يرزقه الله أفضل مما رزق الآخرين. و قد ورد في الدعاء: «اللهم آثرني و لا تؤثر علي أحداً». «واجعلني من أفضل عبادك نصيباً عندك، و أقربهم منزلة منك، و أخصهم زلفه لديك».

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٤.

(٢) النساء: ٣٢.

٣- طه: ١٣١.

هذا كله لا بأس به، و يحبه الله تعالى؛ أما أن يتمنى أن يسلب الله النعمة من الآخرين فلا يحبه الله، و لا يحتاج ربنا إذا أراد أن يرزق عبداً من عباده نعمة أن يسلبها من غيره و يمنحها إياه.

روى عبدالرحمان بن أبي نجران قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) قال: لا يتمنى الرجل امرأة الرجل و لا ابنته، و لكن يتمنى مثلها»^(٢).

٤- الدعاء بخلاف صلاح الإنسان:

و مما لا ينبغي للإنسان أن يدعو له هو الدعاء بخلاف مصلحته. و لما كان الإنسان يجهل ما ينفعه و ما يضره، و الله تعالى يعلم ذلك، فقد يبذل الله استجابة الدعاء بنعمة أخرى أو بدفع بلاء، أو يؤخر الله الاستجابة إلى حين تنفعه الاستجابة. و قد ورد في دعاء الافتتاح: «أسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه اليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي، لعلمك بعاقبة الأمور. فلم أر مولئ كريماً أصبر على عبد لئيم منك علي يا رب».

و على الإنسان في مثل هذه الأحوال في الدعاء أن يدعو الله تعالى و يؤكّل الأمر إليه، و ينيطه بما يراه من المصلحة، و إذا أبطأ عليه تعالى في الإجابة أو لم يستجب له لا يعتب على الله تعالى. و لكن الإنسان لجهله قد يطلب من الله ما يضره، و قد يطلب الشر، كما لو كان يطلب الخير، و يستعجل ما يضره الاستعجال فيه.

(٢) تفسير العياشي: ٢٣٩.

(١) النساء: ٣٢.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١).

وكان من خطاب صالح عليه السلام لثمود:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾^(٢).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: واعرف طرق نجاتك، كيلا تدعو الله بشيء فيه هلاكك وأنت تضمن فيه نجاتك. قال الله عز وجل: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٣).

٥- الاستعاذة من الفتنة:

ولا يصح الاستعاذة من الفتنة، فإن زوج الإنسان وأولاده وماله من الفتنة. ولا يصح أن يعوذ الإنسان بالله من أهله وماله، ولكن يصح أن يعوذ بالله من مضلات الفتن.

عن أمير المؤمنين: «لا يقولن أحدكم: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ اسْتِعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٤)»^(٥).

وعن أبي الحسن الثالث عليه السلام: عن آبائه: قال: «سمع أمير المؤمنين رجلاً يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ. قال عليه السلام: أراك تتعوذ من مالك ولدك، يقول

(٢) النمل: ٤٦.

(١) الاسراء: ١١.

(٣) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٢؛ الآية من سورة الاسراء: ١٢.

(٥) نهج البلاغة، القسم الثاني: ١٦٢.

(٤) الأنفال: ٢٨.

الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا الْكُفُّمُ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَّةٌ﴾^(١) و لكن قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ^(٢).

٦- و مما لا ينبغي من الدعاء، الدعاء على المؤمنين:

إنَّ من مهام الدعاء و غاياته تحكيم العلاقة داخل الأسرة المسلمة، و إزالة ما في النفوس من التراكمات التي تحدث عادة في زحمة الحياة الدنيا. و الدعاء بظهر الغيب من عوامل تلطيف هذه العلاقة التي قد تتمكر في ساحة الحياة؛ و أما الحالات العكسيّة التي تثبّت الحالة السليبيّة في العلاقات فمما لا يحب الله فيه الدعاء.

فالله تعالى يحب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض بظهر الغيب، و في حضورهم، و إثارة الآخرين بالدعاء، و تقديم حاجاتهم و أسمائهم على حاجة الداعي نفسه.

و لا يحب في الدعاء أن يتمنى الإنسان زوال النعمة من أخيه كما وجدنا قبل قليل.

و لا يحب في الدعاء أن يدعو الإنسان على أخيه المؤمن، و إن كان قد مسّه أذى أو ظلم (إذا كان أخوه في الإيمان، و لم يخرج بالظلم عن دائرة الاخوة الإيمانية)، و لا يحب الله تعالى لعباده أن يذكر بعضهم بعضاً بسوء بين يديه.

في دعوات الراوندي في التوراة يقول الله عزّ و جلّ للعبد: «إِنَّكَ مَتَى

(١) التباين : ١٤ .

(٢) أمالي الطوسي: ٢ / ١٩٣، بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٥.

ظَلَمْتَ تدعوني على عبد من عبيدي من أجل أنه ظلمك. فلك من عبيدي من يدعو عليك من أجل أنك ظلمته. فإن شئت أجبتك وأجبتك منك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة» (١).

عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: قال: «إذا ظلم الرجل فظلم يدعو على صاحبه، قال الله عز وجل: إِنَّ هَذَا آخِرُ يَدْعُو عَلَيْكَ يَزْعُمُ أَنَّكَ ظَلَمْتَهُ، فَإِنْ شِئْتَ أَجَبْتُكَ وَأَجَبْتُ عَلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُكَمَا، فَيُوسِعُكُمْ عَفْوِي» (٢).

عن هشام بن سالم، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكُونُ مَظْلُومًا فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَكُونَ ظَالِمًا» (٣).

و عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث:

«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا سَمِعُوا الْمُؤْمِنَ يَذْكُرُ أَخَاهُ بِسُوءٍ وَيَدْعُو عَلَيْهِ قَالُوا لَهُ: بئس الأخ أنت لأخيك. كف أيها المستر على ذنوبه وعورته، وأربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك، واعلم أَنَّ الله عز وجل أعلم بعبده منك» (٤).

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ السَّلَامُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ السَّلَامُ، وَمِنْهُ السَّلَامُ، وَمَحْضَرُهُ مَحْضَرُ السَّلَامِ، فَإِذَا وَقَفْنَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى بِقُلُوبٍ عَامِرَةٍ بِالسَّلَامِ، يَدْعُو بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، وَيسأل الله تعالى بعضنا الرحمة للبعض، ويؤثر بعضنا بعضاً برحمة الله تعالى ... استنزلنا رحمة الله، و شملتنا جميعاً، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى مَوَاضِعِ الْحُبِّ

(١) بحار الأنوار: ٩٣ / ٣٢٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٤ / ١١٧٧، ح ٨٩٧٢، أمالي الصدوق: ١٩١.

(٣) أصول الكافي: ٤٣٨، عقاب الأعمال: ٤٦، وسائل الشيعة: ٤ / ١١٦٤، ح ٨٩٢٦.

(٤) أصول الكافي: ٥٣٥، وسائل الشيعة: ٤ / ١١٦٤، ح ٨٩٢٧.

والسلام، وعلى القلوب المتحابّة والمتسالمة من المؤمنين، وصعدت أعمالنا و صلاتنا ودعاؤنا وقلوبنا إلى الله تعالى، فإنّ الكلم الطيب و القلوب العامرة بالكلم الطيب تصعد إلى الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١).

و إذا وقفنا بين يدي الله بقلوب متخالفة، فيها الضغينة و الحقد، و ليس فيها الحب و السلام، و أخذنا إلى الله خلافتنا و مشاكلنا و شكاوانا (نحن المؤمنين بعضنا على بعض)، و استعدى الله تعالى بعضنا على بعض ... انقطعت عنّا جميعاً رحمة الله، و لم تنزل علينا هذه الرحمة التي وسعت كل شيء في الكون، و لم تصعد إلى الله تعالى أعمالنا و صلاتنا و دعاؤنا و قلوبنا.

فإنّ القلوب المتحابّة و العامرة بالحب تستنزل رحمة الله تعالى و تدفع البلاء و العقوبة عن المؤمنين، و بالعكس، القلوب المتخالفة و المتعادية (من المؤمنين) تحجب رحمة الله عنهم، و تجلب البلاء و العقوبة لهم.

عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى إِذَا رَأَى أَهْلَ قَرْيَةٍ قَدْ أَسْرَفُوا فِي الْمَعَاصِي وَ فِيهِمْ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، نَادَاهُمْ جَلَّ جَلَالُهُ: يَا أَهْلَ مَعْصِيَتِي، لَوْ لَا فَيْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِي الْعَامِرِينَ بِصَلَاتِهِمْ أَرْضِي وَ مَسَاجِدِي الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ خَوْفًا مِنِّي لِأَنْزَلْتُ بِكُمْ الْعَذَابَ»^(٢).

و عن جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام قال: «من فضل الرجل عند الله محبته لإخوانه، و من عرّفه الله محبة إخوانه أحبّه الله و من أحبّه الله أوفاه أجره يوم

القيامة»^(١).

عن رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما تحابوا، وأدوا الأمانة، وآتوا الزكاة، وسيأتي على أمتي زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم أن يعمهم الله ببلاء فيدعونه دعاء الفريق فلا يستجاب لهم»^(٢).

القلوب المتحابّة تستنزل رحمة الله:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أنزل الله تعالى الرحمة عليهما، فكانت تسعة و تسعين لأشدهما حباً لصاحبه، فإذا تواقفا غمرتتهما الرحمة. وإذا قعدا يتحدثان قالت الحفظة بعضها لبعض: اعتزلوا بنا فلعل لهما سراً، و قد ستر الله عليهما».

و عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«إنّ المؤمنين إذا اعتنقا غمرتتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان عرضاً من أعراض الدنيا قيل لهما: مغفور لكما فاستأنفا؛ فإذا أقبلا على المساءلة قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحّوا عنهما؛ فإنّ لهما سراً و قد ستر الله عليهما.

قال إسحاق: فقلت: جعلت فداك، و يكتب عليهما لفظهما و قد قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣)؟ قال: فتنفس أبو عبد الله عليه السلام الصعداء ثم بكى و قال: يا إسحاق، إنّ الله تعالى إنما أمر الملائكة أن تعتزل المؤمنين إذا التقيا

(١) ثواب الأعمال: ٤٨، بحار الأنوار: ٧٤ / ٣٩٧.

(٢) عدة الداعي: ١٣٥، بحار الأنوار: ٧٤ / ٤٠٠.

(٣) ق: ١٨.

إجلالاً لهما، وإنه وإن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما، ولا تعرف كلامهما، فإنه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السر وأخفى»^(١).

إضرار الغش للمؤمنين يستفز غضب الله:

وَمَا يَتَعَلَقُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ وَيَحْجِبُ الدَّعَاءَ وَصَاحِبُهُ عَنِ اللَّهِ هُوَ إِضْمَارُ الْغَشِّ لِلْمُؤْمِنِينَ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ بَاتَ وَفِي قَلْبِهِ غَشٌّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بَاتَ فِي سَخَطِ اللَّهِ، وَأَصْبَحَ كَذَلِكَ وَهُوَ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَتُوبَ وَيَرْجِعَ، وَإِنْ مَاتَ كَذَلِكَ مَاتَ عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ».

إضرار السوء للمؤمنين يحجب العمل عن الله:

كَمَا أَنَّ إِضْمَارَ السُّوءِ يَحْجِبُ الْعَمَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.
عن الصادق عليه السلام: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُؤْمِنٍ عَمَلًا وَهُوَ مُضِرٌّ عَلَى أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ سُوءًا».

والله تعالى لا ينظر إلى الذين يبغضون المؤمنين:

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ:
«شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَبْغِضُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَبْغِضُهُ قُلُوبُهُمْ، الْمَشَاوِرُونَ بِالنِّمِیَّةِ، الْمَفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ، أُولَئِكَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَزْكِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) معالم الزلفى للمحدث البحراني: ٣٤.

(٢) الوسائل: ٢٥ / ٢٠٤.

الحب الإلهي في

أدعية أهل البيت عليهم السلام

العلاقة بالله :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

تتكون العلاقة بالله تعالى في صورتها الصحيحة من مجموعة من العناصر
المتناسقة و المتآلفة، هذه العناصر مجتمعة تكون الاسلوب الصحيح للعلاقة بالله
تعالى.

و ترفض النصوص الإسلامية أن تكون العلاقة بالله تعالى على أساس
العنصر الواحد، كالخوف، أو الرجاء، أو الحب، أو الخشوع، و تعتبر العلاقة بالله
ذات العنصر الواحد فاقدة لحالة التوازن و التناسق.

و العناصر التي تشكل العلاقة بالله تعالى مجموعة واسعة، ورد ذكرها
بتفصيل في نصوص الآيات و الروايات و الأدعية مثل: الرجاء، و الخوف، و
التضرع، و الخشوع، و التذلل، و الوجل، و الحب، و الشوق، و الأنس، و الإنابة، و

التبتّل، والاستغفار، والاستعاذة، والاسترحام، والانتقطاع، والتمجيد، والحمد،
والرغبة، والرغبة، والطاعة، والعبودية، والذكر، والفقر، والاعتصام.

وقد ورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «اللهم
إني أسألك أن تملأ قلبي حباً وخشية منك، وتصديقاً لك، وإيماناً بك، وفرقاً
منك، وشوقاً إليك»^(١).

ومن هذه العناصر المتعددة يتألف طيف زاوٍ ومتناسق للعلاقة بالله تعالى،
وكل عنصر من هذه العناصر يعتبر مفتاحاً لباب من أبواب رحمة الله ومعرفته.
فالاسترحام مفتاح لرحمة الله تعالى، والاستغفار مفتاح للمغفرة.

كما أن كل عنصر من هذه العناصر يعتبر بحدّ ذاته طريقاً للحركة والسلوك
إلى الله. فالشوق والحب والأنس بالله طريق إلى الله، والخوف، والرغبة طريق
آخر إلى الله تعالى، والخشوع طريق ثالث إلى الله، والرجاء، والدعاء والتمني
طريق آخر إلى الله.

وعلى الإنسان أن يسلك ويتحرك إلى الله تعالى من مسالك وطرق
مختلفة، ولا يقتصر على سلوك طريق واحد، فإن لكل سلوك نكهة وذوقاً و
كمالاً وثمرّة في حركة الإنسان إلى الله لا توجد في السلوك الآخر.

ويطرح الإسلام على هذا الأساس مبدأ تعددية عناصر العلاقة بالله تعالى.
وهذا بحث واسع وباب رحب من العلم لا نريد أن ندخله الآن.

حب الله تعالى:

و حب الله تعالى من أفضل هذه العناصر، وأقواها، وأبلغها في شدّة الإنسان بالله تعالى، و تحكيم علاقته به عزّ شأنه.

و لا يوجد في ألوان العلاقة بالله لون أقوى و أبلغ من «الحب» في توثيق علاقة العبد بالله.

و قد ورد ذكر هذه المقارنة بين عناصر العلاقة بالله تعالى في مجموعة من النصوص الإسلامية، و نذكر بعضها.

روي أن الله تعالى أوحى إلى داود: «يا داود ذكري للذاكرين، و جنتي للمطيعين، و حبي للمشتاقين، و أنا خاصة للمحبين»^(١).

و عن الإمام الصادق عليه السلام: «الحبّ أفضل من الخوف»^(٢).

و روى محمّد بن يعقوب الكليني عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: «العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ و جلّ خوفاً، فتلك عبادة العبيد، و قوم عبدوا الله تبارك و تعالى طلب الثواب، فتلك عبادة التجار، و قوم عبدوا الله عزّ و جلّ حباً، فتلك عبادة الأحرار، و هي أفضل العبادة»^(٣).

و روى الكليني عن رسول الله صلى الله عليه و آله: «أفضل الناس من عشق العبادة، فعانقها، و أحبّها بقلبه، و باشرها بجسده، و تفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم يسر»^(٤).

(٢) بحار الأنوار: ٢٢٦ / ٧٨.

(١) بحار الأنوار: ٢٢٦ / ٩٨.

(٤) أصول الكافي: ٨٣ / ٢.

(٣) أصول الكافي: ٨٤ / ٢.

و عن الإمام الصادق عليه السلام: «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف، و الرجاء، و الحب. فالخوف فرع العلم، و الرجاء فرع اليقين، و الحب فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، و دليل الرجاء الطلب، و دليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فإذا تحقّق العلم في الصدر خاف، و إذا صحّ الخوف هرب، و إذا هرب نجا و إذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، و إذا تمكّن من رؤية الفضل رجا، و إذا وجد حلاوة الرجاء طلب، و إذا وُفّق للطلب وجد. و إذا تجلّى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبّة، و إذا هاج ريح المحبّة استأنس ظلال المحبوب، و آثر المحبوب على ما سواه، و باشر أوامره. و مثال هذه الأصول الثلاثة كالحرّم و المسجد و الكعبة، فمن دخل الحرّم أمن من الخلق، و من دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، و من دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغله بغير ذكر الله»^(١).

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «بكى شعيب عليه السلام من حب الله عزّ و جلّ حتّى عمي ... أوحى الله إليه: يا شعيب، إن يكن هذا خوفاً من النار، فقد أجزّتك، و إن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك. فقال: إلهي و سيّدي، أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك، و لا شوقاً إلى جنتك، و لكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كلّمي موسى بن عمران»^(٢).

و في صحيفة إدريس عليه السلام: «طوبى لقوم عبدوني حباً، و اتخذوني إلهاً و ربّاً، سهروا الليل، و دأبوا النهار طلباً لوجهي من غير رهبة و لا رغبة، و لا لنار، و لا جنة،

بل للمحبة الصحيحة، والإرادة الصريحة و الانقطاع عن الكل إلّا»^(١).
و في الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «عَيْثُ عَيْنٍ لَا تَرَاكُ عَلَيْهَا رَقِيْبًا، وَ خَسِرَتْ صَفْقَةَ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حَبِّكَ نَصِيْبًا»^(٢).

الإيمان والحب:

وقد رُوي في النصوص الإسلامية أنّ الإيمان حب.
فمن الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان حب و بغض»^(٣).
و عن الفضيل بن يسار قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب و البغض،
أَمِنْ الإيمان هو؟ فقال: «و هل الإيمان إلّا الحب و البغض؟»^(٤).
و عن الصادق عليه السلام: «هل الدين إلّا الحب؟ إنّ الله عزّ و جلّ يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾»^(٥).
و عن الإمام الباقر عليه السلام: «الدين هو الحب و الحب هو الدين»^(٦).

لذة الحب:

و العبادة إنّ كانت عن حبّ و شوق و لهفةٍ فلا تفوقها لذة و حلاوة.
يقول الإمام زين العابدين عليه السلام و هو ممّن ذاق حلاوة حبّ الله و ذكره:

(١) بحار الأنوار: ٩٥ / ٤٦٧. (٢) بحار الأنوار: ٩٨ / ٢٢٦.

(٣) بحار الأنوار: ٧٨ / ١٧٥. (٤) أصول الكافي: ٢ / ١٢٥.

(٥) آل عمران: ٣١. (٦) بحار الأنوار: ٦٩ / ٢٣٧.

(٧) نور الثقلين: ٥ / ٢٨٥.

«إلهي ما أطيب طعم حبك وما أعذب شرب قُربك» (١).

و هي حلاوة و لذة مستقرّة في قلوب أولياء الله، و ليست لذة عارضة تعرض حيناً، و ترتفع حيناً. وإذا استقرّت لذة حب الله في قلب العبد، فذلك قلب عامر بحب الله، و لن يعذب الله قلب عبد عَمَرَ بحبه، و استقرّت فيه لذة حبه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي و عزّتك و جلالك لقد أحببتك محبة استقرّت حلاوتها في قلبي، و ما تمنعّد ضماائر موحّديك على أنّك تبغض مُحبيّك» (٢).

و عن هذه الحالة المستقرّة و الثابتة من الحبّ الإلهي يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «فوعزّتك يا سيدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، و لا كففت عن تملّكك، لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك و كرمك» (٣).

و هو من أبلغ التعبير في عمق الحب و استقراره في القلب، فلا يزول و لا يتغيّر في قلب العبد حتّى لو نهره مولاه، و أبعدّه من جنبه، و حاشاه أن يفعل ذلك بعبدٍ استقرّ حبه في قلبه.

و إذا عرف الإنسان طعم حبّ الله و لذة الأنس به فلا يؤثر عليه شيئاً. يقول زين العابدين و إمام المحبّين عليه السلام: «من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام عنك بدلاً؟ و من ذا الذي أنسى بقربك فابتغى عنك جِوْلاً؟» (٤).

و إنّما يتوزّع الناس على المسالك و المذاهب؛ لأنّهم حُرّموا لذة حب الله. و أمّا الذين عرفوا لذة حبّ الله فلا يبحثون بعد ذلك عن شيء آخر في حياتهم.

(٢) مناجاة أهل البيت: ٩٦ - ٩٧.

(٤) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٤٨.

(١) بحار الأنوار: ٩٨ / ٣٦.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨ / ٨٥.

يقول الإمام الحسين بن علي (عليه السلام): «ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك؟!»^(١).

و يستغفر علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) من كل لذة غير لذة حب الله، ومن كل شغل غير الاشتغال بذكر الله، ومن كل سرور غير قرب الله، لا لأن الله تعالى حرم على عباده ذلك، ولكن لأن ذلك من انصراف القلب عن الله وإشتغاله بغير الله، ولو زمناً قصيراً، ولا ينصرف قلب عرف لذة حب الله، عن الله. وكل شيء وكل جهد في حياة أولياء الله يأتي في امتداد حب الله، وذكر الله، وطاعة الله، وكل شيء عدا ذلك فهو انصراف عن الله، ويستغفر الله منه. يقول (عليه السلام): «وأستغفرك من كل لذة غير ذكرك، ومن كل راحة غير أنسك، ومن كل سرور غير قربك، ومن كل شغل غير طاعتك»^(٢).

الحب يجبر عجز العمل:

والحب لا ينفصل عن العمل، فمن أحب كانت أماره حبه العمل والحركة والجهد. ولكن الحب يجبر عجز العمل، ويشفع لصاحبه كلما قصر عمله، وهو شفيع مشفع عند الله تعالى.

يقول زين العابدين (عليه السلام) في دعاء الأسحار الذي يرويه عنه أبو حمزة الثمالي وهو من جلائل الأدعية: «معرفتي يا مولاي دليلي عليك، وحبي لك شفيعي إليك، وأنا واثق من دليلي بدلائلك، ومن شفيعي إلى شفاعتك»^(٣).

(٢) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٥١.

(١) بحار الأنوار: ٩٨ / ٢٢٦.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨ / ٨٢.

و نعم الدليل و الشفيع المعرفة و الحب، فلا يضع عبد دليلاً إلى الله «المعرفة»، و لا يقصر عبد عن الوصول و البلوغ إذا كان شفيعه إلى الله «الحب». يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إلهي إنك تعلم أنني و إن لم تَدُم الطاعة مِنِّي فعلاً جزماً، فقد دامت محبةً و عزماً».

و هو إشارة رقيقة من رقائق كلمات الإمام، فإنَّ الطاعة قد تقصر بالإنسان، و لا يتمكَّن أن يثق بطاعته لله، و لكن ما لا سبيل إلى الشك فيه للمحبين هو اليقين و الجزم بحبهم لله تعالى، و عزمهم على المضي في الحب و الطاعة، و هذا ممَّا لا يرتاب فيه عبد وجد حب الله في قلبه، فقد يقصِّر العبد في طاعة، و قد يرتكب ما يكرهه الله و لا يحبه من معصية، و لكن ما لا يمكن أن يكون - و هو يقصِّر في الطاعة و يرتكب المعصية - أن يكره الطاعة و يحب المعصية.

فإنَّ الجوارح قد تنزلق إلى المعاصي، و يستدرجها الشيطان و الهوى إليها، و قد تقصِّر الجوارح في طاعة الله، و لكن قلوب الصالحين من عباد الله لا يدخلها غير حبِّ الله و حب طاعته و كراهية معصيته.

و في الدعاء: «إلهي أحبُّ طاعتك و إن قصَّرتُ عنها، و أكره معصيتك و إن ركبتُها، فتفضَّل عليَّ بالجنة»^(١).

و هذه هي الفاصلة بين الجوارح و الجوانح، فإنَّ الجوارح قد تقصُر عن الحقوق بالجوانح، فإنَّ جوانح الصالحين تخلص لله و تخضع لسلطان حب الله

بشكل كامل، فَتَقْصُرُ عنها الجوارح، إِلَّا أن القلب إذا خلص و طاب فلا بد أن تنقاد له الجوارح و تطيعه. و لابد أن تنفذ الجوارح ما تطلبه و تريده الجوانح، و تنعدم عند ذلك هذه الفاصلة بين الجوارح و الجوانح بسبب إخلاص القلب.

الحب يجير الإنسان من العذاب:

و إذا كانت الذنوب تسقط الإنسان في عين الله، و تعرضه لعقاب الله و عذابه فإنَّ «الحب» يجير الإنسان من عذاب الله و عقابه.

ففي المناجاة عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إلهي إنَّ ذنوبي قد أخافتني، و محبتي لك قد أجازتني»^(١).

درجات الحب و أطواره:

و للحب في قلوب العباد درجات و مراحل.

فمن الحب حب ضحل ضئيل، لا يكاد يُحسَّ به صاحبه.

و من الحب ما يملأ قلب العبد، و لا يترك في قلبه فراغاً لشأن آخر مما يلهو به الناس و يشغلهم عن ذكر الله.

و من الحب ما لا يرتوي معه العبد من ذكر الله و مناجاته و الوقوف بين يديه، و لا ينتهي ظمأ فؤاده من الذكر، و الدعاء، و الصلاة، و العمل في سبيل الله، مهما طال وقوفه، و عمله، و صلاته بين يدي الله.

و في الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «سَيِّدِي أَنَا مِنْ حَبِّكَ جَانِعٌ لَا أَشْبِعُ، وَأَنَا مِنْ حَبِّكَ ظَمآنٌ لَا أُرَوِّى، وَاشْوَاقُهُ إِلَى مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ».

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في المناجاة: «وَعُغِّلْتِي لَا يُبْرِدهَا إِلَّا وَصْلُكَ، وَلَوْعَتِي لَا يَطْفِئُهَا إِلَّا لِقَاؤُكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَيْكَ»^(١).

و من حب الله (الوله) و (الهيام)، ففي (زيارة أمين الله): «اللَّهُمَّ إِنَّ قُلُوبَ الْمُخْبِتِينَ إِلَيْكَ وَالْهَلَاةِ»^(٢).

و في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إِلَهِي بِكَ هَامَتِ الْقُلُوبُ الْوَالِهَةُ ... فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرِكَ، وَ لَا تَسْكُنُ النَّفُوسُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَاكَ»^(٣).

و هذه خَاصَّةُ الْقُلُوبِ الْوَالِهَةِ وَ الْهَامَةِ لَا تَسْكُنُ وَ لَا تَطْمَئِنُّ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ. وَ مِنْ أَرْوَعِ الْحُبِّ وَ أَبْلَغُهُ مَا نَجَدُهُ فِي كَلِمَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي الدَّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَهُ لِكَمِيلِ بْنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ عليه السلام وَ الْمَعْرُوفِ بِدَعَاءِ كَمِيلٍ: «فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَ سَيِّدِي وَ مَوْلَايَ وَ رَبِّي صَبْرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ؟ وَ هَبْنِي صَبْرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كِرَامَتِكَ؟ أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النَّارِ وَ رَجَائِي عَفْوُكَ؟»^(٤).

و هو مِنْ أَرْوَعِ لَفَاتَاتِ الْحُبِّ وَ أَصْدَقُهَا. فَهَبْ أَنَّ الْعَبْدَ يَصْبِرُ عَلَى عَذَابِ

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(١) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٤٩.

(٤) مفاتيح الجنان.

(٣) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٥١.

نار مولاه، فكيف يصبر على هجره و فراقه و غضبه؟!

و المحب قد يتحمل عقوبة مولاه، ولكن لا يتحمل غضبه و مقتله له، و قد يتحمل النار و هي من أقسى العقوبات و لكن لا يتحمل هجر مولاه و فراقه.
و كيف يسكن العبد في نار جهنم و هو يرجو أن يعطف عليه مولاه و ينقذه منها؟

و هذان «الحب» و «الرجاء» اللذان لا يفارقان قلب العبد - و هو يصلّي في نار جهنم بغضب من الله تعالى - من أروع صور هذا الدعاء الجليل.
فقد يحبّ العبد مولاه، و هو يتنعم بنعمته و فضله، و هو بالتأكيد من الحب، و لكن الحب الذي لا يزيد عليه حب أن لا يفارق الحب و الرجاء قلب العبد و هو يصلّي بنار عذاب مولاه.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي عليه السلام: «فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك و لا كففت عن تملّك لما ألهم قلبي من المعرفة بكرمك و سعة رحمتك. إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؟! و إلى من يلتجئ المخلوق إلّا إلى خالقه؟! إلهي لو قرنتني بالأصفا، و منعتني سيبك من بين الأشهاد، و دللت على فضائحي عيون العباد، و أمرت بي إلى النار، و حلت بيني و بين الأبرار ما قطع رجائي منك، و ما صرفت تأميلي للعفو عنك، و لا خرج حبك من قلبي»^(١).

و هذا هو أصدق الحب، و الرجاء، و الأمل، و أنقاه و أصفاه، لا يكاد

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

يخرج من قلب العبد حتى لو قرنه مولاه بالأصفاد، ومنعه سببه من بين الأشهاد،
و دلّ على فضائحه عيون العباد.

ولنتابع استعراض هذه الصور الرائعة من الحب و الرجاء التي يرسمها
الإمام علي عليه السلام في هذا الدعاء الجليل «دعاء كميل»: «فبعزتك يا سيدي و مولاي
أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، و لأصرخنّ
إليك صراخ المستصرخين، و لأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، و لأناديئك أين كنت يا
وليّ المؤمنين؛ يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب
الصادقين، و يا إله العالمين.

أفتراك سبحانه يا إلهي و بحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم سجن فيها بمخالفته، و
ذاق طعم عذابها بمعصيته، و حبس بين أطباقها بجرمه و جريرته، و هو يضيّع إليك
ضجيج مؤملٍ لرحمتك، و يناديك بلسان أهل توحيدك، و يتوسّل إليك بربوبيتك، يا
مولاي، فكيف يبقى في العذاب و هو يرجو ما سلف من حلمك؟ أم كيف تؤلمه النار و
هو يأمل فضلك و رحمتك؟ أم كيف يحرقه لهيبها و أنت تسمع صوته و ترى مكانه؟ أم
كيف يشتمل عليه زفيرها و أنت تعلم ضعفه؟ أم كيف يتغلغل بين أطباقها و أنت تعلم
صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيته و هو يناديك يا ربّه؟ أم كيف يرجو فضلك في عتقه
منها فتتركه فيها؟ هيهات، ما ذلك الظن بك، و لا المعروف من فضلك، و لا مشبه لما
عاملت به الموحّدين من برك و إحسانك، فباليقين أقطع لو لا ما حكمت به من تعذيب
جاحديك و قضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلّها برداً و سلاماً، و ما كان
لأحدٍ فيها قرأً و لا مقاماً»^(١).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

قال لي صديق، من ذوي الفضل والأدب: إن خصلة البطولة والشجاعة خصلة أصيلة في علي عليه السلام، لا تفارقه حتى في الدعاء بين يدي رب العالمين. فهي هو في الدعاء الذي علّمه لكميل يتصوّر أن النار قد احتوت العبد المذنب، وأحاطت به من كل جانب، فلا يسكت ولا يسكن ولا يستسلم للعذاب والعقوبة، كما هو مقتضى الحال فيمن أطبق عليه العذاب واحتوشته زبانية النار، وإنما يضح ويكي ويصرخ ويهتف وينادي.

ألا تراه كيف يعبر عن هذه الحالة في دعاء الله؟

«فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأناديّنك أين كنت يا ولي المؤمنين».

قلت له: لم تصب في تذوق كلام علي عليه السلام، ولو كان عليه السلام بهذا الصدد لم يقل في مقدمة هذا الخطاب «لو تركتني ناطقاً». أما أنا فأتصور الحالة النفسية لعلي عليه السلام في هذه الكلمات بين يدي الله تعالى حالة الطفل الصغير الذي لم يعرف في دنياه غير عطف أمه، ورحمتها، وحبها وحنانها ملجأً وملاذاً. فكلما داهمه أمر أو أضربه شيء لجأ إلى أمه، واستغاث بها واستنجد بها، فإذا ارتكب مخالفة وتعرض لعقوبة من أمه، وأراد أن يلجأ إلى طرف يحميه من عقوبتها نظر إلى أطرافه فلم يجد ملاذاً وملجأً غيرها، فيحتمي بها، ويستنجد بها، ويستغيث، ويلوذ بها، كما كان يفعل عند ما يتعرض لأذى من غيرها.

وهذا هو حال علي عليه السلام في هذا الدعاء. إنه تعلّم بقلبه الكبير، وأفقه

الواسع الرحب أن يلجأ إلى الله، ويستغيث به، و يلوذ به، و لا يعرف غيره ملجأ و لا ملاذاً.

فهو سبحانه و تعالى، ملجأ و ملاذه الوحيد الذي لا يعرف غيره. فإذا تصوّر أنّ الله تعالى قد أحاطه بعذابه و عقوبته ^(١) فلا يتردد لحظة واحدة أن يلجأ إلى الله، و يلوذ به، و يستنجد به، و يستغيث به كما كان يفعل كل مرة. أو ليس هو سبحانه ملاذه و ملجأ الوحيد؟ فلماذا يتردد هذه المرة أن يستنجد و يستغيث به؟!

يقول زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في تصوير هذا المعنى في المناجاة:

«فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ؟ و إن رددتني عن جنابك فبمن أعود؟ إلهي هل يرجع العبد الآبق إلّا إلى مولاه؟ أم هل يجيره من سخطه أحد سواه؟» ^(٢). و يقول عليه السلام في الدعاء الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي: «و أنا يا سيدي عاخذ بفضلك هارب منك إليك» ^(٣).

و يقول علي بن الحسين عليهما السلام في نفس الدعاء: «إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؛ و إلى من يذهب المخلوق إلّا إلى خالقه» ^(٤).

و الهروب من الله إلى الله من رقائق المعاني و الأفكار في علاقة العبد بالله، و هذه المشاعر التي يصوّرها علي عليه السلام في علاقة العبد بالله هي من أرقّ مشاعر

(١) نحن نستعير هنا كلمات علي عليه السلام نفسه، و لو لم يقل ذلك لم نجرؤ أن نتحدث عن العلاقة بينه و بين الله

(٢) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٤٢.

تعالى بهذه الطريقة.

(٤) بحار الأنوار: ٩٨ / ٨٨.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨ / ٨٤.

«الحب» و «الرجاء»، و أصدقها في نفوس المحبين.

و علي (عليه السلام) لا يذهب مذهب الشعراء في هذه الفقرة من الدعاء في الاستعانة بالخيال في إكمال رسم هذه اللوحة الرائعة من الدعاء، وإنما هو صادق كل الصدق في التعبير عن إحساسه و شعوره هذا بين يدي الله. و لذلك فهو يعقب هذه اللوحة من «استغاثة العبد بربه» بلوحة أخرى في نجدة الله لعبده.

فليس يمكن فيما نعرف من رحمة الله و فضله أن الله تعالى يخيّب هذا الإحساس الصادق و الصافي و النقي من العبد في الحب و الرجاء، فيردّ حبه و يخيّب رجاءه. يقول (عليه السلام): «فكيف يبقى في العذاب و هو يرجو ما سلف من حلمك؟ أم كيف تؤلمه النار و هو يأمل فضلك و رحمتك؟ أم كيف يحرقه لهيبها و أنت تسمع صوته و ترى مكانه؟ أم كيف يشتمل عليه زفيرها و أنت تعلم ضعفه؟ أم كيف يتغلغل بين أطباقها و أنت تعلم صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيته و هو يناديك يا ربه؟». فهل يمكن أن تقود الزبانية العبد إلى النار و تزجره فيها، و هو ينادي الله ربه، و يهتف به، و يلوذ به بلسان أهل توحيده؟

إنّ ما سبق من حلمه و فضله في حياتنا ينفي ذلك نفيّاً قاطعاً مطلقاً. و الإمام يستدلّ بحلم الله على حلمه و فضله على فضله: «و هو يرجو ما سلف من حلمك». و الإمام (عليه السلام) قاطع في هذا الجانب من القضية «الخط النازل» في علاقة الله بعبد كما كان قاطعاً و صريحاً في الطرف الآخر من القضية «الخط الصاعد» في علاقة العبد بالله.

فكما كان قاطعاً و صريحاً في أَنَّ القلوب التي ذاقَت حلاوة حَبِّه و رجاؤه، لا يفارقها حبها و رجاؤه الله، و لن تستبدل بحب الله و رجاؤه حَبّاً و رجاؤه، حتى لو أحاط بها عذاب الله و عقابه... كذلك هو قاطع و صريح أن الله تعالى لا يخيب مثل هذا الحب و الرجاء الصادقين في قلب العبد.

تأملوا في هذا الجزم و القطع و الصراحة في كلام علي عليه السلام: «هيهات ما ذلك الظن بك، و لا المعروف من فضلك، و لا مشبه لما عاملت به الموحدين من برك و إحسانك، فباليقين أقطع لو لا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، و قضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً و سلاماً، و ما كانت لأحدٍ فيها مقراً و لا مقاماً»^(١).

و هذا الجزم و القطع في علاقة العبد الذي أحب مولاه «الصاعدة» و علاقة المولى بعبد «النازلة» نجده في مواضع أخرى من كلمات علي عليه السلام. فهي هو يخاطب الله تعالى في مناجاته المشهورة: «إلهي و عزتك و جلالك لقد أحسبتك محبةً استقرت حلاوتها في قلبي، و ما تنعقد ضمائر موحديك على أنك تبغض محبيك»^(٢).

و في مناجاة الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «إلهي نفس أعزتها بتوحيدك كيف تذللها بمهانة هجرانك؛ و ضمير انعقد على موذتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك»^(٣).

(٢) مناجاة أهل البيت: ٦٨ - ٦٩.

(١) مفاتيح الجنان: دعاء كميل.

(٣) بحار الأنوار: ٩٤ / ١٤٣.

و يقول عليه السلام أيضاً في دعاء الأسحار من شهر رمضان الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي عليه السلام: «أفتراك يا رب تغلف ظنوننا، أو تغيّب آمالنا؟ كلا يا كريم، فليس هذا ظننا بك، ولا هذا طمعنا فيك. يا رب إنّ لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً، إنّ لنا فيك رجاءً عظيماً...»^(١).

حالات الشوق والأنس في الحب:

للحب ظهوران: فقد يبرز الحب على صورة «الشوق»، وقد يبرز الحب على صورة «الأنس»، وكلتا هاتين حالتان تعبّران عن الحب، إلّا أنّ حالة «الشوق» تنتاب المحب عند ما يكون بعيداً عنّ يحبه، وحالة «الأنس» تنتاب المحب عند ما يكون بحضور حبيبه.

وهاتان الحالتان متواردتان على قلب العبد تجاه الله تعالى. فإنّ الله تعالى تجلّين، يتجلّى للعبد عن بُعد تارة وعن قرب أخرى: «الذي بُعد فلا يرى وقرب فشهد النجوى»^(٢).

وعند ما يتجلّى للعبد عن بُعد تنتاب العبد حالة الشوق، وعندما يتجلّى للعبد عن قرب، ويحسّ العبد بحضور مولاه «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ»^(٣)، «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»^(٤)، «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ»^(٥)، تنتاب العبد حالة «الأنس».

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي. (٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

(٤) ق: ١٦.

(٣) الحديد: ٤.

(٥) البقرة: ١٨٦.

و في دعاء الافتتاح عن الإمام الحجة المهدي عجل الله فرجه تصوير دقيق لهاتين الحالتين: «الحمد لله الذي لا يُهتك حجابُه ولا يُغلق بابُه»^(١).

و لا شك أنَّ الذي لا يُهتك حجابُه هو الذي لا يُغلق بابُه ... و لكن شتان بين الله تعالى من خلال هذا التصور أو ذاك.

و «الحجاب» حجابان: حجاب ظلمة و حجاب نور، فقد تمنع الإنسان من الرؤية شدة الظلمة، و كثافة الحجب الظلامية، و هذا حجاب الظلمة.

و قد تمنع الإنسان من الرؤية شدة الوهج و النور، كما يعجز الإنسان عن رؤية الشمس ليس لحاجزٍ أو مانعٍ، و إنما لشدة وهج الشمس، و هذا هو حجاب النور. و حجب الظلمة في علاقة الإنسان بالله تعالى هي «حب الدنيا» و «مقارفة السيئات» و «ما يرين على القلب».

و حجاب النور في علاقة الإنسان بالله تعالى شيء غير ذلك، و هو الحجاب الذي لا يُهتك كما يقول الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه في هذا الدعاء.

و هذا الحجاب هو الذي يهيج الشوق و اللهفة في قلوب العباد. يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن هذه الحالة من الشوق و اللهفة إلى الله في مناجاته:

«وَعُلَّتِي لَا يَبْرُدُهَا إِلَّا وَصْلُكَ، وَ لَوْعَتِي لَا يَطْفِئُهَا إِلَّا لِقَاؤُكَ وَ شَوْقِي إِلَيْكَ لَا يَبِيلُهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِكَ، وَ قَرَارِي لَا يَقْرَدُونَ دُنُوِّي مِنْكَ، وَ لَهْفَتِي لَا يَرُدُّهَا إِلَّا رَوْحُكَ، وَ سَقَمِي لَا يَشْفِيهِ إِلَّا طِبُّكَ، وَ غَمِّي لَا يَزِيلُهُ إِلَّا قُرْبُكَ، وَ جُرْحِي لَا يَبْرِؤُهُ إِلَّا

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

صفحك، و زين قلبي لا يجلوه إلا عفوك ... فيا منتهى أمل الآملين، و يا غاية سؤل السائلين، و يا أقصى طلبة الطالبين، و يا أعلى رغبة الراغبين و يا ولي الصالحين، و يا أمان الخائفين، و يا مجيب دعوة المضطرين، و يا ذخر المعدمين، و يا كنز البائسين»^(١).

و في مقابل هذا التجلي نحو آخر من التجلي، و هو تجلي الله لعباده دون أن يغلق باباً بينه و بين عباده، يسمع نجواهم، و هو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء و قلبه، و لا يخفى عليه شيء مما يخطر على قلوب عباده، فيشعر العبد أنه بحضور مولاه، يتهيب أن يخالفه و يعصيه، و يأنس بذكره، و يسكن إلى مناجاته و دعائه، و يطيل المناجاة، و الذكر و الدعاء، و الوقوف بين يديه.

و في حديث قدسي، يقول الله لبعض أنبيائه، و هو سبحانه يصف قيامهم له في ظلمات الليل، و قد هدأ الناس و استسلموا للنوم: «و لو تراهم و هم يقومون لي في الدجى، و قد مثلت نفسي بين أعينهم يخاطبوني، و قد جللت عن المشاهدة و يكلموني، و قد عززت عن الحضور»^(٢).

فلا يملّ العبد الوقوف بين يدي الله، و لا يشعر بمرور الوقت؛ أو رأيت إن كان الإنسان بمحضر حبيب من الأحباء الذين تهوي إليهم نفسه، هل يملّ أو يشعر بمرور الوقت؟ فكيف لو كان الإنسان يشعر أنه بحضور الله؟ يسمعه، و يراه،

و يسمع خطابه و كلامه، و هو معه؛ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(١).

فيسكن و يطمئن إلى ذكر الله ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطَلُّعِ الْقُلُوبِ﴾^(٢).

يقول الإمام المهدي الحجة مجله ربه في دعائه المعروف بـ«الافتتاح»:
«فصرت أدهوك آمناً و أسألك مستأنساً، لا خائفاً و لا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت
فيه إليك»^(٣).

و لا شك أنّ هذه الحالة من الأُنس بالله، و السكون إلى الله، و الإحساس
بالأمن في كنف الله حالة نابعة من الإحساس بحضور الله و قربهِ و معيته، و هي
من أفضل حالات العبد تجاه ربه، و لكنها ليست تمثل كلّ شيء في علاقة
الإنسان بالله، بل لابدّ أن تقترن بحالة (الشوق) حتى تكتمل و تتوازن و تتناسق.
و هاتان الحالتان بارزتان في عبادة أولياء الله و عبادة الصالحين و
علاقتهم بالله، فقد يكون طابع الشوق و الالهفة هو الغالب على عباداتهم و علاقتهم
بالله، و قد يكون طابع الأُنس و السكون و الاطمئنان هو الغالب على عباداتهم و
ذكرهم و علاقتهم بالله، و قد يكون هذا و ذاك، و هو أفضل الأحوال و أسلمها، و
أقرب إلى حالة التوازن و التناسق في العلاقة بالله.

عن حمّاد بن حبيب العطّار الكوفي، قال: «خرجنا حبّاجاً فرحلنا من
«زباله»^(٤) ليلاً، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطّعت القافلة فتهت في تلك
الصحاري و البراري، فانتهيت إلى واد قفر، فلمّا أن جنّ الليل أويت إلى شجرة

(١) الحديد: ٤.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

(٤) منزل على طريق الحجّاج من العراق.

عادية، فلما أن اختلط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل، عليه أطمار بيض، تفوح منه رائحة المسك، فقلت في نفسي: هذا وليّ من أولياء الله متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره و أن أمنعه عن كثير ممّا يريد فعاله. فأخفيت نفسي ما استطعت. فدنا إلى الموضع فتهيأ للصلاة، ثم وثب قائماً و هو يقول: يا من أحاز كل شيء ملكوتاً، و قهر كل شيء جبروتاً، أولع قلبي فرح الإقبال عليك، و ألحقني بميدان المطيعين لك. قال: ثم دخل في الصلاة ...

فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً و هو يقول: يا من قصده الطالبون فأصابوه مرشداً، و أمته الخائفون فوجوده متفضلاً، و لجأ إليه العابدون فوجدوه نوالاً، متى وجد راحة من نصب لغيرك بدنه، و متى فرح من قصد سواك بنيتيه، إلهي قد تقشع الظلام و لم أقض من خدمتك وطراً، و لا من حاض مناجاتك مدرأ، صلّ على محمد و آله، و افعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين. قال: فخفت أن يفوتني شخصه، و أن يخفى عليّ أثره فتعلقت به، فقلت له: بالذي أسقط عنك ملال التعب، و منحك شدة الشوق لذيد الرغبة ... من أنت؟ فقال لي: أمّا إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»^(١).

و قال الأصمعي: «كنت أطوف حول الكعبة ليلة، فإذا شابٌ ظريف الشمائل و عليه ذؤابتان، و هو متعلّق بأستار الكعبة و هو يقول: «نامت العيون، و علت النجوم و أنت الملك الحي القيوم، غلقت الملوك أبوابها، و أقامت عليها حراسها، و بابه مفتوح للسائلين، جئتك لتنظر إليّ برحمتك يا أرحم الراحمين».

ثم أنشأ يقول:

يا من يجيب دعا المضطرّ في الظلم يا كاشف الضرّ و البلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت قاطبة و أنت وحدك يا قيوم لم تنم
أدعوك ربّ دعاء قد أمرت به فارحم بكائي بحقّ البيت و الحرم
إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرف فمن يجود على العصاين بالنعيم
قال: فاقتفيته فإذا هو زين العابدين عليه السلام» (١).

و قال طاووس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر و يتعبّد، فلمّا لم ير أحداً رمق السماء بطرفه، و قال: «إلهي غارت نجوم سمواتك، و هجعت عيون أنامك، و أبوابك مفتّحات للسائلين، جنتك لتغفر لي و ترحمني و تريني وجه جدّي محمّد ٩ في عرصات القيامة». ثمّ بكى و قال: «و عزّتك و جلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، و ما عصيتك إذ عصيتك و أنا بك شاكّ، و لا بنكالك جاهل، و لا لعقوبتك متعرّض، و لكن سوّلت لي نفسي و أعانني على ذلك سترك المرخى به عليّ، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ و بهبل من أعتصم إن قطعت جبلك عني؟ فواسواتاه غدأ من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفّين جُوزوا، و للمثقلين حطّوا، أمع المخفّين، أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ؟ ويلي كلّما طال عمري كثرت خطاياي و لم أتب، أما أن لي أن أستحي من ربّي؟» ثمّ بكى و أنشأ يقول:

أثحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثمّ أين محبّتي
أتيت بأعمال قباح زريّة و ما في الوريّ خلق جنّ كجنايتي

ثم بكى و قال: «سبحانك تُعصى كائنك لا ترى، و تعلم كائنك لم تُعص. تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، و أنت يا سيدي الغني عنهم». ثم خرَّ إلى الأرض ساجداً. قال: فدنوت منه و شِلت برأسه و وضعته على ركبتي و بكيت حتّى جرت دموعي على خدّه، فاستوى جالساً و قال: من الذي أشغلني عن ذكر ربّي؟ فقلت: أنا طاووس يابن رسول الله ما هذا الجزع و الفزع؟ و نحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا و نحن عاصون جانون. أبوك الحسين بن عليّ و أمك فاطمة الزهراء، و جدك رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: فالتفت إليّ و

قال: هيهات هيهات يا طاووس دع عني حديث أبي و أمي و جدّي خلق الله الجنّة لمن أطاعه و أحسن، و لو كان عبداً حبشياً، و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولداً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١) والله لا ينفعك غداً إلا تَقْدِمَةُ تَقْدِمَها من عمل صالح»^(٢).

و عن حبة العرنى: «بيننا أنا و «نوف» نائمين في رحبة القصر، إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل، واضعاً يده على الحائط شبه الواله، و هو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾»^(٣) ثم جعل يقرأ هذه الآيات، و يمر شبه الطائر عقله فقال: أراقد يا حبة أم راقق؟

قلت: راقق، هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟!

فأرخى عينه فبكى، ثم قال لي: يا حبة إن الله موقفاً و لنا بين يديه موقف،

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) بحار الأنوار: ٤٦ / ٨١ - ٨٢.

(٣) آل عمران: ١٩٠.

فلا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة إن الله أقرب إليك وإليّ من حبل الوريد، يا حبة إنّه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء ثم قال: أراقد أنت يا نوف؟ قال: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة ... ثم وعظهما وذكرهما، وقال في أواخره: فكونوا من الله على حذر فقد أنذرتكما ثم جعل يمرّ وهو يقول:

«ليت شعري في غفلاتي أ معرض أنت عني أم ناظر إليّ و ليت شعري في طول منامي و قلة شكري في نعمك عليّ ما حالي؟ قال: فوالله ما زال في هذه الحالة حتى طلع الفجر^(١).

و نصوص الأدعية و المناجاة الواردة من أهل البيت: غنيّة بهذه الصور الحيّة و المتحركة والمعبرة عن «الأنس» و «الشوق»، و بشكل خاص المناجاة الخمس عشرة التي يرويها العلامة المجلسي في البحار عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام حافلة بصور من «الأنس» و «الشوق».

و نحن نجد في تراث أهل البيت: كنزاً غنياً من هذه الصور و المعاني، قلّما نجده عند غيرهم.

و ها نحن نذكر بعض هذه الصور قبل أن نفارق هذا البحث: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، و من ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً؟ إلهي فاجعلنا ممن اصطفتيه لقربك و ولايتك و أخلصته لودّك و محبتك، و شوّفته إلى لقائك، و رضّيته بقضائك، و منحته النظر إلى وجهك، و حبوته برضاك، و

(١) فلاح السائل لابن طاووس: ٢٦٦.

أعدته من هجرك و قلاك، و برأته مقعد الصدق في جوارك، و خصصته بمعرفتكَ، و أهلهته لعبادتك، و هيّمت قلبه لإرادتك، و اجتبيته لمشاهدتك، و أخليت وجهه لك، و فرّغت فؤاده لحبك، و رغبته فيما عندك، و ألهمته ذكرك، و أوزعته شكرك، و شغلته بطاعتك، و صيّرتَه من صالحِي بريتك، و اخترته لمناجاتك، و قطعت عنه كل شيء يقطعه عنك.

اللهم اجعلنا ممّن دأبهم الارتياح إليك و الحنين، و دهرهم الزفرة و الأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، و عيونهم ساهرة لخدمتك، و دموعهم سائلة من خشيتك، و قلوبهم متعلقة بمحبتك، و أفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، و سبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، و يا منى قلوب المشتاقين، و يا غاية آمال المحبين أسالك حبك و حب من يحبك، و حب كل عمل يوصلني إلى قربك، و أن تجعلك أحب إليّ مما سواك، و أن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك، و شوقي إليك ذائداً عن عصيانك، و امنن بالنظر إليك عليّ، و انظر بعين الود و العطف إليّ، و لا تصرف عني وجهك»^(١).

و هذه فقرات من الدعاء زاخرة بمفاهيم الحب و الشوق و الأنس، و لست أريد التعليق، فلن أستطيع أن أزيد الفقرات من الدعاء جمالاً على جمالها و بياناً على بيانها، و لست ممن يحسن التعليق على روائع آيات الدعاء و الحب و الأدب.

و أول ما يلفت النظر في هذه الفقرات النداء الذي ينادي به الإمام ربه

سبحانه و تعالى: «يا منى قلوب المشتاقين، و يا غاية آمال المحبين...». «يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، و سبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة».

و مطالب الإمام في هذا الدعاء ثلاثة، و هي أعظم ثلاثة يطلبها العبد من ربه.

١- فهو يطلب من الله أولاً أن يصطفيه لنفسه، و يخلص قلبه لحبه، و يخلي وجهه لوجهه الكريم، و يرغبه فيما عنده، و يفرغ فؤاده لحبه، و يلهمه ذكره، و يقطع عنه كل ما يقطعه عنه، و يصرف عنه كل ما يصرفه عنه.

و هذه البداية ضرورية للحركة التي يطلبها الإمام من الله تعالى، و التي يحدّد غايتها بالنظر إلى وجه الله، و من دون هذه البداية، لا يمكن أن يتحرك الإنسان هذه الحركة الصعبة و الشاقة إلى قمّة لقاء الله، و النظر إلى وجهه الكريم، و إنه لراحة لكل نبيّ و صدّيق.

و لئن كان النظر إلى وجه الله رزقاً يرزقه الله تعالى من يشاء و يصطفي من عباده، فلا بدّ أن يطلب العبد أن يرزقه الله تعالى هذا الرزق بمفاتيحه، فإنّ الله تعالى إذا رزق أحداً من عباده رزقاً رزقه من أبوابه و مفاتيحه، و سبّب له أسبابه.

و الذين يطلبون من الله تعالى أن يرزقهم من غير أبوابه، و بغير مفاتيحه يدعون الله تعالى على خلاف سننه و قوانينه التي سنّها لعباده.

و الأبواب التي منها يدخل الإنسان، و منها ينطلق إلى قمّة لقاء الله و مشاهدة وجهه الكريم هي:

أولاً: تفرّغ القلب من كل رين و همّ و حبّ و تعلّق بالدنيا، و هو ما يسمّيه

العلماء بـ«التخلية»، أي إخلاء القلب من كل همّ وتعلّق لغير الله تعالى.

فيقول الإمام: «واجعلنا ممن أخلصته لودّك ومحبتك، وأخليت وجهه لك، و فرّغت فؤاده لحبك، وقطعت عنه كلّ شيء يقطعه عنك».

وهذه هي النقطة الأولى في البداية، وهي نقطة سلبية.

و النقطة الثانية في البداية هي «التحلية» في مقابل «التخلية» كما يقول العلماء. وهي نقطة إيجابية يلحظها الإمام في الطلبات التالية: «واجعلني ممن رضيته بقضائك، وحبوته برضاك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيّرتة من صالحين بريّتك، واخترتة لمناجاتك».

«واجعلنا ممن جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وأفئدتهم منخلعة من رهبتك».

وهذه البداية «بنقطتيها» هي مفتاح الحركة إلى الله، وهي المنطلق التي منها ينطلق الإنسان إلى غاية لقاء الله ومشاهدة جلال وجهه الكريم وجماله. وهذا هو الطلب الأول.

٢- والطلب الثاني مترتب على الطلب الأول، وهي المرحلة الوسطى في هذه الحركة الصاعدة إلى الله، ومن دونه لا يمكن أن يتحرك الإنسان إلى الله، و يصل إلى جواره وقربه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(١).

و المركب الذي يحمل الإنسان إلى هذه الغاية التي يتمناها كل نبي وولي

و صديق و شهيد، هو «الحب» و «الأنس بالله» و «الشوق إلى الله» و من دون الحب، و الشوق، و الأنس لا يمكن أن يرقى الإنسان هذا المرتقى الرفيع إلى الله. و الحب و الشوق و الأنس رزق من عند الله، من دون شك، يرزقه الله تعالى من يجتبي و يصطفى من عباده. ولكن بعد مقدمات ذكرها الإمام عليه السلام نجدها مبثوثة في فقرات هذه المناجاة.

و يلح الإمام في هذا الطلب، و يتوسل إلى ذلك بمختلف الوسائل و التعابير. فهو ينادي الله تعالى بهذا النداء الرائع: «يا منى قلوب المشتاقين و يا غاية آمال المحبين».

ثم يطلب منه الحب، و حب من يحب و حب كل عمل يوصله إلى قربه و جواره.

و لتأمل في كلمات الإمام مباشرة فإن التعليق يضيّع علينا فرصة النظر المباشر إلى آفاق هذا الحب التي يفتحها الإمام علينا في هذا الدعاء: «أسألك حبك، و حب من يحبك، و حب كل عمل يوصلني إلى قربك، و أن تجعلك أحب إلي مما سواك، و أن تجعل حبي إيتاك قائداً إلى رضوانك، و شوقي إليك ذائداً عن عصيانك، و امنن بالنظر إليك عليّ، و انظر بعين الود و العطف إليّ، و لا تصرف عني وجهك».

و يقول: «واجعلنا ممن شوّفته إلى لقائك، و أعدته من هجرك و قلاك، و هيّمت قلبه لإرادتك».

ثم يقول عليه السلام: «اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك و الحنين، و دهرهم الزفرة و الأنين ... قلوبهم متعلقة بمحبتك، و أفئدتهم منغلخة من مهابتك».

و خلاصة المطالب في هذه الفقرة أربعة:

١- أن يعيذنا هجره و قلاه.

٢- أن يرزقنا حبه و مودته.

٣- أن يرزقنا الأنس به.

٤- أن يرزقنا الشوق إلى لقائه.

و يختصر الإمام «الأنس و الشوق» في هذه الجملة الرائعة: «و اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك و الحنين».

فإنَّ الارتياح إلى الله غير الحنين إليه، و كلاهما يطلبه الإمام من الله. و الارتياح هو الأنس المنبعث من اللقاء، و الحنين هو الشوق المنبعث من الحركة إلى اللقاء.

٣- و المرحلة الثالثة من هذه الرحلة العلوية إلى الله في هذا الدعاء الجليل هي غاية الغايات، و أشرف ما يطلبه النبيون و الصديقون من الله. و هي طلب النظر إلى جلال وجهه و جماله البهي، و أنه غاية لا ينالها إلا صفوة الصفوة ممن يصطفاهم الله تعالى لقربه و جواره.

يقول الإمام عليه السلام: «و اجعلنا ممن منحتهم النظر إلى وجهك و بؤاته مقعد الصدق في جوارك، و اجتبيته لمشاهدتك ... و امنن بالنظر إليك علي».

و يالها من حاجة أن ينظر الإنسان إلى وجه ربه، و يشاهد جلاله و جماله عن قرب، و يقعد عنده في مقعد صدق بجواره، و يسقيه ربه شرباً طهوراً.

صورة أخرى:

صورة أخرى من صور الشوق والأنس في أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام:
«إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، و سیرنا في أقرب الطرق للوفود عليك. قرب
علينا البعيد، و سهّل علينا العسير الشديد، و ألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك
يسارعون، و بابك على الدوام يطرَقون، و إيتاك بالليل و النهار يعبدون، و هم من
هيبتك مشفقون الذين صفيت لهم المشارب، و بلغتهم الرغائب، و أنجحت لهم
المطالب، و قضيت لهم من فضلك المآرب، و ملأت لهم ضمايرهم من حبك، و رؤيتهم
من صافي شربك فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، و منك أقصى مقاصدهم حصلوا. فيا
من هو على المقبلين عليه مقبل، و بالمعطف عليهم عائد مفضل، و بالغافلين عن ذكره
رحيم رؤوف، و بجذبهم إلى بابه ودود عطوف ... أسالك أن تجعلني من أوفرهم منك
حظاً، و أعلامهم عندك منزلاً، و أجزلهم من وذك قسماً، و أفضلهم في معرفتك نصيباً.
فقد انقطعت إليك همتي، و انصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، و لك لا
لسواك سَهري و سهادي، و لقاءك قرة عيني، و وصلك منى نفسي، و إليك شوقي، و
في محبتك ولهي، و إلى هواك صبابتي، و رضاك بغيتي، و رؤيتك حاجتي، و جوارك
طلبي، و قربك غاية سؤلي، و في مناجاتك روحي و راحتي، و عندك دواء علّتي، و
شفاء غلّتي، و كشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي و مُقِيل عثرتي، و غافر زلّتي، و
قابل توبتي، و مجيب دعوتي، و ولي عصمتي، و مُغْنِي فاقتي، و لا تقطعني عنك، و لا
تبعدني منك، يا نعيمي و جنتي، و يا دنيائي و آخرتي» ^(١).

وهذه قطعة جلييلة من جلائل المناجاة، ورائعة من روائع أدب الدعاء، و غرة من غرر كلمات أهل البيت: في الدعاء والتضرع والحب، صادرة عن قلب وإله بحب الله، مشتاق إلى لقاء الله، وهي تستحق الكثير من التأمل والوقوف. و تقتصر على الإشارة السريعة إلى بعض الصور والأفكار للحب الإلهي التي تزرخ بها هذه المناجاة.

في البدء يطلب زين العابدين عليه السلام من الله أن يأخذ بيده و يسلك به سبل الوصول إليه و هو خلاصة ما في هذا الدعاء، و أجل ما فيه من المطالب. فلا يطلب الإمام في هذا الدعاء من الله تعالى دنيا و لا آخرة، و إنه لطلب مشروع يحبه الله، و لكنه يطلب القرب، و الوصول و الجوار، في مقعد صدق عنده مع الأنبياء و الشهداء و الصديقين. يقول عليه السلام: «إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك». و لا يقول الإمام (سبيل الوصول إليك) بصيغة المفرد، و إنما يقول: «سبل الوصول» بصيغة الجمع، ذلك لأن «الصراط» إلى الله تعالى واحد لا يتعدد، و لم يذكر القرآن لله تعالى إلا صراطاً واحداً، يقول تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ^(١) و يقول: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢). و يقول: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣). و يقول: ﴿وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

أما (السبيل) فقد ورد بصيغة الجمع في الحق و الباطل في القرآن كثيراً.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(١) الفاتحة: ٦-٧.

(٤) الأنعام: ٨٧.

(٣) المائدة: ٨٦.

يقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(١). و يقول:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٢).

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾^(٣).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

فقد جعل الله تعالى للناس إليه سبلاً كثيرة يسلكونها إليه و قد اشتهر على لسان العلماء: «أَنَّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق». وكل هذه الطرق والسبل تجري على صراط الله المستقيم، و لكن جعل الله تعالى لكل إنسان طريقاً يعرف به ربه، و يسلكه إليه.

فمن الناس من يسلك إليه سبيل العلم و العقل، و منهم من يسلك إليه سبيل القلب و الفؤاد، و من الناس من يعرف الله بالتجارة و التعامل مع الله، و أنه من أفضل السبل أن يتعرف الإنسان على الله من خلال التعامل المباشر مع الله و الأخذ و العطاء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥)، و قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٦).

و يطلب زين العابدين عليه السلام هنا من الله تعالى أن يسلك به سبل الوصول إليه، لا سببلاً واحداً، فكلما سلك الإنسان إلى الله تعالى مسالك و سببلاً أكثر كان وصوله إلى جوار الله و قربه أوكد و أقوى و أبلغ.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(١) المائدة: ١٦.

(٤) النكيت: ٦٩.

(٣) إبراهيم: ١٢.

(٦) البقرة: ٢٠٧.

(٥) الصف: ١٠.

ثم يسأل الله تعالى بعد ذلك أن يلحقه بأهل البدار من عباده الصالحين الذين يسارعون إلى الله و يطوون ليلهم و نهارهم على طاعة الله و عبادته. و الطريق إلى الله صعب عسير، و عن هذا الطريق يعبر القرآن بـ«ذات الشوكة». و كثيرون أولئك الذين بدأوا السير على هذا الطريق بعزم و صدق، ثم تساقطوا أثناء الطريق.

و زين العابدين عليه السلام يسأل الله أن يقرب عليه البعيد، و يسهل عليه العسير، في هذه الرحلة الشاقة، و أن يلحقه بالصالحين الذين سبقوه «و هو إمام الصالحين» فإن رفقة الأولياء و الصالحين على طريق ذات الشوكة، تشدّ على قلوب الجميع، و تزيد من عزمهم على مواصلة الطريق.

إنّ السير إلى الله صعب، فإذا كان جمع من الصالحين يسرون على هذا الطريق، يتماسكون، و يتواصون بالحق، و يتواصون بالصبر ... خفّ عليهم السير على طريق ذات الشوكة.

يقول علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في طبيعة هذه الرحلة الشاقة و الطويلة، و في طلب التقريب و التخفيف و الالتحاق بالصالحين، على هذا الطريق : «و سيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك. قرب علينا البعيد، و سهّل علينا العسير الشديد، و ألحقتنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، و بابك على الدوام يطرّقون، و إيتاك بالليل و النهار يعبدون».

واردات القلوب و رواشحتها:

و يصف الإمام هؤلاء الصالحين الذين يسأل الله تعالى أن يلتحق بهم بهذا الوصف الجليل الذي يستحق الكثير من التفكير و التأمل: «الذين صفيت لهم

المشارب، وبلغتهم الرغائب ... وملأت لهم ضماثرهم من حبك، ورويتهم من صافي شربك».

فما هو هذا الشراب الصافي الطهور الذي يسقيهم ربهم في الدنيا؟ وأي إناء هذا الإناء الذي يملأه الله من حبه؟

إنّ هذا الشراب الصافي هو شراب «الحب» و «اليقين» و «الإخلاص» و «المعرفة». و الإناء هو «القلب».

وقد رزق الله تعالى الإنسان أوعية كثيرة للمعرفة واليقين والحب، ولكن «القلب» هو أعظم هذه الأواني جميعاً وأوعاها.

فإذا صفّى الله تعالى لعبده شرب قلبه، و سقاه شرباً صافياً طهوراً، كان عمله و كلامه و عطاؤه أيضاً صافياً و نقياً مثل شربه.

فإنّ بين واردات القلب و صادراته تشابهاً و مسانحة. فإذا كانت واردات القلب نقية صافية، من نعيم نقي عذب، كانت صادرات القلب تشبهها، فيكون فعل العبد، و كلامه، و رأيه، و أخلاقه، و موقفه، و عطاؤه صافياً عذباً. وإذا كانت واردات القلب قذرة أو مشوبة بالقذارة مما يوحيه الشياطين إلى أوليائهم، كانت صادرات القلب لا محالة تشبهها من كذب و نفاق و شحّ و إعراض عن الله و رسوله.

عن رسول الله ﷺ: «إنّ في القلب لثنتين: لثة من الملك، و إبعاد بالخير و تصديق بالحق، و لثة من العدو: إبعاد بالشر و تكذيب للحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، و من وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان»؛ ثم قرأ ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ

الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا^(١) ﴿٢﴾.

ولمة الملك هي الواردات الربانية إلى القلب. ولمة الشيطان هي الواردات الشيطانية إلى القلب.

أ رأيت «النحل» إذا أخذ من رحيق الأزهار أعطى الناس عسلاً حلواً شهياً، فيه شفاء للناس، وإذا أخذ طعامه من موارد غير صافية وغير نقية كان عطاؤه كذلك، بطبيعة الحال.

يقول تعالى عن خليله و نبيه إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنِي الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَفِّينَ الْأَخْيَارِ﴾^(٢).

وإن هذا الوصف الجليل الذي يصف الله تعالى به عطاء هؤلاء الأنبياء الكبار، وهو القوة والبصيرة: «الأيدي والأبصار» هو نتيجة هذا الشرب الخالص الذي آتاهم الله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنِي الدَّارِ﴾^(٣).

و لو لا أن الله تعالى أخلصهم بهذه الخالصة من ذكرى الدار، لم تكن لهم قوة ولا بصيرة^(٤).

(١) البقرة: ٢٦٨. (٢) تفسير الميزان: ٢ / ٤٠٤.

(٣) ص: ٤٥-٤٧. (٤) ص: ٤٦.

(٥) هناك علاقة تبادلية (جدلية) بين واردات القلب وصادراته، فإذا حسنت واردات القلب حسنت صادراته ... والعكس أيضاً صحيح، فإن الإنسان إذا حسنت أفعاله أحسن الله إليه بخالصة ذكرى الدار، وإذا ساءت أفعاله حجب الله تعالى عنه صافي الشرب، وأوكل أمره إلى نفسه، يشرب من حيث يوحى إليه الشيطان والهوى، و مما يشرب الناس على مائدة الشيطان والهوى.

إذن لكي يصفو عمل الإنسان لابدّ من أن يصفو شربه، و القلب يعطي ما يأخذ.

أصل الاختيار:

و إذا وضّحنا دور واردات القلب و ما يصدر عنه، و التشابه و التسانخ بين هذا و ذاك، فلا بدّ أن نقول: إنّ هذا الكلام لا ينفي بالضرورة أصل الاختيار الذي هو أساس لكثير من المفاهيم و الأفكار القرآنية. و ليس معنى ذلك أنّ القلب و عاه فارغ يتلقّى و يعطي ما يلقي إليه من خير و شر، بل القلب وعاء وإع، يعي ما يلقي إليه، و يفرز الحق عن الباطل و الخير عن الشر.

و هذا أصل آخر اصيل من أصول التفكير الإسلامي، و على هذا الأصل، «وعي القلب»، و ذاك: «الاختيار» تتوقف مسائل و أصول و قضايا كثيرة في الإسلام.

و قد ورد في النصوص الإسلامية تأكيد كثير على الدور الواعي للقلب في حياة الإنسان من قدرة على التشخيص و من كفاءة عالية على فرز الحق عن الباطل.

روي أن داود عليه السلام، ناجى ربه فقال: «إلهي لكل ملك خزانة، فأين خزانتي؟ فقال جلّ جلاله: لي خزانة أعظم من العرش، و أوسع من الكرسي، و أطيب من الجنة، و أزين من الملكوت، أرضها المعرفة، و سماؤها الايمان، و شمسها الشوق، و قمرها المحبة، و نجومها الخواطر، و سحابها العقل، و مطرها الرحمة، و شجرها الطاعة، و ثمرها الحكمة، و لها أربعة أركان: التوكل و التفكير، و الأنس،

والذكر. ولها أربعة أبواب: العلم والحكمة والصبر والرضا... ألا وهي القلب»^(١).
والنص - كما هو بين - يتحدث في السؤال والجواب بلغة الرمز، وهي لغة معروفة في النصوص الإسلامية.

و روي أن الله تعالى قال لموسى: «يا موسى جرد قلبك لحبي، فإني جعلت قلبك ميدان حبي، وبسطت في قلبك أرضاً من معرفتي، وبنيت في قلبك شمساً من شوقي، وأمضيت في قلبك قرماً من محبتي، وجعلت في قلبك عيناً من التفكر وأدرت في قلبك ريحاً من توفيقِي، وأمطرت في قلبك مطراً من تفضلي، وزرعت في قلبك زرعاً من صدقي، وأنبت في قلبك أشجاراً من طاعتي، ووضعت في قلبك جبلاً من يقيني»^(٢).

وهذا النص أيضاً يتحدث بلغة الرمز. وكلا النصين يشرحان الدور الواعي للقلب في فرز الحق عن الباطل والهدى من الضلال.

عودة إلى المناجاة:

ثم ينادي ﷺ الله تعالى بهذا النداء الرقيق: «فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مُفضل، وبالعافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف».

وهذا النداء يتضمّن نقطتين:

أن الله تعالى يقبل على من يقبل عليه ويعود عليهم بفضله.

و يعطف على الغافلين عنه، و يذهب عنهم الغفلة بالجذبات الربانية.
و بعد هذه البداية يطلب زين العابدين عليه السلام من الله تعالى أن يجعله من أوفر
أهل الصلاح حظاً من رحمته، و أرفعهم منزلةً، و أجزلهم قسماً، يقول عليه السلام:
«أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، و أعلام عندك منزلاً، و أجزلهم من وذك
قسماً، و أفضلهم في معرفتك نصيباً».

و تثير هذه الفقرة من الدعاء هذا السؤال: لقد كان الإمام يتمنى أن يلحقه
الله تعالى بهم قبل قليل، و الآن يتمنى أن يجعله الله من أوفرهم حظاً و أعلام
منزلة عنده فكيف نضم هذا السؤال إلى جنب ذلك السؤال؟ و ما الذي حدث في
جو الدعاء و في الجو النفسي للإمام حين الدعاء، بحيث أدّى إلى هذه القفزة في
الطلب و السؤال من طلب الحقوق بالصالحين إلى طلب التقدم عليهم و إمامتهم؟
إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب شرح سرٍّ من أسرار الدعاء. فقد علّما
الله تعالى أن لا نفتّر في السؤال، و لا نبخل في الدعاء، إذا كان المولى كريماً. و ما
أقبح البخل في السؤال عند ما يكون المسؤول كريماً. لا حدّ لخزائن رحمته، و لا
نفاد لها، و لا تزيد كثرة العطاء إلّا جوداً و كرمًا^(١).

و قد علّما الله تعالى فيما علّما من آداب «عباد الرحمن» و أخلاقهم أن
نطلب من الله تعالى أن يجعلنا للمتقين إماماً ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٢).

(١) في دعاء الافتتاح «الحمد لله الفاشي في الخلق أمره و حمده، الظاهر بالكرم مجده، الباسط بالجود يده
الذي لا تنقص خزائنه، و لا تزيد كثرة العطاء إلّا جوداً و كرمًا إنه هو العزيز الوهاب».

(٢) الفرقان: ٧٤.

و نقرأ في الدعاء الوارد عن المعصومين: كثيراً هذه الفقرة الطموحة «و
آثرني و لا تؤثر عليّ أحداً».

الدعاء قاع و قمة:

لكثير من الأدعية قاع و قمة، أما القاع فهو يجسد موضع العبد و ما ركب
من السيئات و الذنوب، و أما القمة فهي تمثل طموحه و أمله في الله سبحانه و
تعالى و لا حدّ لكرمه وجوده و خزائن رحمته.

و في «دعاء الأسحار يذكر زين العابدين (عليه السلام) هذا الفاصل النفسي بين القاع
والقمة، يقول (عليه السلام): «إذا رأيتُ مولاي ذنوبي فزعتُ، وإذا رأيتُ كرمك طمعتُ»^(١).

و يقول (عليه السلام) في الدعاء نفسه: «عظم يا سيدي أُملي، و ساء عملي فأعطني من
عفوك بمقدار أُملي، و لا تؤاخذني بأسوء عملي»^(٢).

و في الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لكميل بن
زياد (عليه السلام) يبدأ من القاع فيقول: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم
اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللهم اغفر
لي الذنوب التي تحبس الدعاء ... اللهم لا أجد لذنوبي غافراً، و لا لقباحي ساتراً، و لا
لشيء من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك ... سبحانهك و بحمدك ظلمت نفسي، و
تجزأت بجهلي، و سكنت إلى قديم ذكرك لي و منك عليّ ... اللهم عظم بلائي، و أفرط
بي سوء حالي، و قصرت بي أعمالي، و قعدت بي أغلالِي، و حبسني عن نفعي بعد

أُملي، و خدعتني الدنيا بغرورها، و نفسي بجنايتها و مطالي ... فأسالك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي و فعالي، و لا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سرّي...»^(١).

و هذا (القاع) هو حضيض العبوديّة و ما يكتنفها من سيئات. ثم ننتهي في أواخر الدعاء إلى قمة الطموح التي تجسّد أمل العبد و رجاء العظيم في رحمة الله الواسعة، فيقول: «وهب لي الجّد في خشيتك و الدوام في الاتصال بخدمتك حتى أسرع إليك في ميادين السابقين، و أسرع إليك في البارزين، و أشتاق إلى قربك في المشتاقين، و أدنو منك دنوّ المخلصين ... و اجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك، و أقربهم منزلة منك، و أخصهم زلفة لديك. فإنّه لا يُنال ذلك إلّا بفضلك...»^(٢).

و نجد في الدعاء الذي يرويه أبو حمزة الثمالي عن الإمام زين العابدين عليه السلام لأسحار شهر رمضان المبارك نفس الفاصل الكبير بين «القاع» و «القمة». ففي البدء ينطلق من نقطة القاع، فيقول عليه السلام: «وما أنا يا ربّ و ما خطري، هبني بفضلك، و تصدّق عليّ بعفوك، أي رب جلّلتني بسترِكَ، و اعف عن تسويخي بكرم وجهك»^(٣).

«فلا تحرقني بالنار، و أنت موضع أُملي، و لا تُسكّني الهاوية فإنّك قرّة عيني ... ارحم في هذه الدنيا غربتي، و عند الموت كربتي، و في القبر وحدتي، و في اللحد وحشتي، و إذا نُشرت للحساب بين يديك دُلّ موقفي، و ارحمني صريعاً على الفراش

(٢) دعاء كميل.

(١) دعاء كميل.

(٣) دعاء أبي حمزة الثمالي.

تَقْلِبْنِي أَيْدِي أَحِبَّتِي، وَ تَفْضَلْ عَلَيَّ مَدُوداً عَلَى الْمَغْتَسِلِ يَقْلِبْنِي صَالِحُ جِيرَتِي. وَ تَحْنَنْ عَلَيَّ مَحْمُولاً قَدْ تَنَاوَلَ الْأَقْرَبَاءُ أَطْرَافَ جَنَازَتِي، وَ جُدَّ عَلَيَّ مَنْقُولاً قَدْ نَزَلَتْ بِكَ وَحِيداً فِي حَفَرَتِي»^(١).

ثم بعد ذلك يقول ﷺ في مرحلة الطموح وقمة الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلْتُكَ مِنْهُ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ، يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ وَأَجُودَ مَنْ أُعْطِيَ ... أَعْطِنِي سَوْلِي فِي نَفْسِي وَأَهْلِي وَ وَلَدِي، وَ أَرْغِدْ عَيْشِي، وَ أَظْهِرْ مَرَوَّتِي، وَ أَصْلِحْ جَمِيعَ أَحْوَالِي، وَ اجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطْلَتْ عَمْرُهُ، وَ حَسَّنَتْ عَمَلُهُ، وَ أَتَمَّتْ عَلَيْهِ نِعْمَتُكَ، وَ رَضِيتَ عَنْهُ، وَ أَحْيَيْتَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ... اللَّهُمَّ خُصَّنِي بِخَاصَّةِ ذِكْرِكَ ...، وَ اجْعَلْنِي مِنْ أَوْفَرِ عِبَادِكَ نَصِيباً عِنْدَكَ فِي كُلِّ خَيْرٍ أَنْزَلْتَهُ أَوْ تُنْزِلُهُ»^(٢).

و هذه الرحلة من «القاع» إلى «القمة» هي تعبير عن حركة الإنسان إلى الله، و هي رحلة «أمل»، و «رجاء»، و «طموح»، و عند ما يكون أمل الإنسان و رجاؤه و طموحه في الله فلا حدَّ لغاية هذه الرحلة.

الوسائل الثلاثة:

و يتوسل علي بن الحسين زين العابدين ﷺ إلى الله في هذه الرحلة بثلاث وسائل. و قد أمرنا الله تعالى أن نبتغي إليه الوسائل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٣)، و قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤). و الوسائل التي يتوسل بها الإمام إلى الله في هذه الرحلة هي:

(٢) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٤) الاسراء: ٥٧.

(٣) المائدة: ٣٥.

«الحاجة»، و «السؤال»، و «الحب». و لله درّه من معلّم في الدعاء، يعرف ماذا يطلب من الله تعالى، وكيف يطلب، و أين مواضع رحمة الله.

الوسيلة الأولى: «الحاجة»:

فالحاجة نفسها من منازل رحمة الله، فإنّ الله تعالى كريم ينزل رحمته على خلقه حتى الحيوان و النبات لحاجتهم من دون سؤال و طلب. دون أن يكون معنى هذا الكلام نفي السؤال و الطلب، فإنّ السؤال و الطلب بابان آخران من أبواب رحمة الله إلى جنب «الحاجة».

فإذا عطش الناس سقاهم ربهم، و إذا جاعوا أطعمهم، و إذا عروا أكساهم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١)، حتى و لو لم يعرفوا الله تعالى، و لم يعرفوا كيف يدعونه، و ماذا يطلبون منه، «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله و من لم يعرفه تحنّناً منه و رحمة»^(٢).

و في مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نجد التفاتاً رائعاً لهذه النكتة الربّانية في استنزال رحمة الله تعالى:

«مولاي يا مولاي أنت المولى و أنا العبد، و هل يرحم العبد إلّا المولى.
مولاي يا مولاي أنت المالك و أنا المملوك، و هل يرحم المملوك إلّا المالك. مولاي يا مولاي أنت العزيز و أنا الذليل، و هل يرحم الذليل إلّا العزيز. مولاي يا مولاي أنت الخالق و أنا المخلوق، و هل يرحم المخلوق إلّا الخالق. مولاي يا مولاي أنت العظيم و أنا الحقير، و هل يرحم الحقير إلّا العظيم، مولاي يا مولاي أنت القوي و أنا الضعيف، و

هل يرحم الضعيف إلا القوي. مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير، و هل يرحم الفقير إلا الغني. مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل، و هل يرحم السائل إلا المعطي، مولاي يا مولاي أنت الحي وأنا الميت، و هل يرحم الميت إلا الحي. مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني، و هل يرحم الفاني إلا الباقي. مولاي يا مولاي أنت الدائم وأنا الزائل، و هل يرحم الزائل إلا الدائم. مولاي يا مولاي أنت الرازق وأنا المرزوق، و هل يرحم المرزوق إلا الرازق. مولاي يا مولاي أنت الجواد وأنا البخيل، و هل يرحم البخيل إلا الجواد. مولاي يا مولاي أنت المعافي وأنا المبتلى، و هل يرحم المبتلى إلا المعافي. مولاي يا مولاي أنت الكبير وأنا الصغير، و هل يرحم الصغير إلا الكبير. مولاي يا مولاي أنت الهادي وأنا الضال، و هل يرحم الضال إلا الهادي. مولاي يا مولاي أنت الغفور وأنا المذنب، و هل يرحم المذنب إلا الغفور. مولاي يا مولاي أنت الغالب وأنا المغلوب، و هل يرحم المغلوب إلا الغالب. مولاي يا مولاي أنت الرب وأنا المربوب، و هل يرحم المربوب إلا الرب. مولاي يا مولاي أنت المتكبر وأنا الخاشع، و هل يرحم الخاشع إلا المتكبر. مولاي يا مولاي ارحمني برحمتك، و ارض عني بجودك وكرمك وفضلك. يا ذا الجود والإحسان، و الطول والامتنان»^(١).

و الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرات من المناجاة الرائعة يتوسل إلى الله تعالى بحاجته و فقره، و يضع حاجة العبد و فقره في موضع استنزال رحمة الله. فإنَّ المخلوق يستنزل رحمة الخالق، و الحقير يستنزل رحمة العظيم، و الضعيف يستنزل رحمة القوي، و الفقير يستنزل رحمة الغني، و المرزوق يستنزل

(١) مفاتيح الجنان، أعمال مسجد الكوفة، مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام.

رحمة الرازق، و المبتلى يستنزل رحمة المعافي، و الضالّ يستنزل رحمة الهادي، و المذنب يستنزل رحمة الغفور، و المتحيّر يستنزل رحمة الدليل، و المغلوب يستنزل رحمة الغالب.

و هذه من السنن الكونيّة لله تعالى، و لن تتبدل سنن الله، فمهما كانت حاجته و فقره كانت رحمة الله و فضله عندهما. و كما ينزل الماء إلى الموضع المنخفض، تنزل رحمة الله تعالى على مواضع الحاجة، و ذلك أنه تعالى كريم جواد، و الكريم يرعى مواضع الحاجة و يخصّها برحمته.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الاسحار الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي: «أعطني لفقري، و ارحمني لضعفي»، فيجعل من فقره و ضعفه وسيلةً يتوسّل بهما إلى رحمة الله.

و طبعي أنّ هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، و على طريقة العامل الواحد، فإنّ هناك عوامل أخرى تستنزل رحمة الله تعالى، و هناك موانع و حجب تحجب رحمة الله، و هناك عامل الابتلاء في سنن الله تعالى.

و عند ما نقول: إنّ الحاجة و الفقر يستنزّلان رحمة الله تعالى ينبغي أن نأخذ هذا الكلام ضمن هذا النظام الإلهي الشامل. و هذا باب واسع من المعرفة لا نريد أن ندخله الآن، و عسى أن يوفّقني الله تعالى لشرح هذه الحقيقة بما تستحق من التوضيح.

و نجد في القرآن الكريم نماذج من عرض «الحاجة» و «الفقر» لاستنزال رحمة الله تعالى، و استنزال الإجابة من عند الله. و للحاجة إجابة، كما للدعاء و للسؤال إجابة، فإنّ عرض الحاجة نحو من الدعاء. و هذه النماذج يذكرها القرآن

على لسان عباد الله الصالحين:

١- من هذه النماذج حاجة العبد الصالح الممتحن والمبتلى أيوب عليه السلام، عند ما نادى الله تعالى وهو في غمرة الابتلاء والمحنة: ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (١).

و لا دعاء في هذه الفقرة التي يحكيها القرآن الكريم عن لسان هذا العبد الصالح المبتلى ولكن الله تعالى يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (٢) و كأنَّ عرض الحاجة والفقر نحوَّ من الدعاء.

٢- والعبد الصالح ذوالنون يعرض فقره وحاجته وظلمه لنفسه على الله تعالى، وهو في ظلمات بطن الحوت في البحر: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

و الاستجابة كذلك ليست للطلب وإنما للحاجة والفقر، فلم يزد العبد الصالح ذوالنون عليه السلام على هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) فاستجاب الله تعالى له، ونجَّاه من الغم ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ (٥).

٣- و نلتقي في القرآن بكلمة كليم الله موسى بن عمران وأخيه هارون، عند ما دعاها الله تعالى ليحملا رسالته إلى فرعون ﴿إِذْ هَبْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ *

(٢) الأنبياء: ٨٤.

(١) الأنبياء: ٨٣ - ٨٤.

(٤) الأنبياء: ٨٧.

(٣) الأنبياء: ٨٧ - ٨٨.

(٥) الأنبياء: ٨٧.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْوَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى^(١)، فلم يطلبنا من الله تعالى أن يحميهما من فرعون و جلاوزته، و يوفر لهما الأمن الذي يحتاجانه. و إنما ذكر الله ضعفهما و خوفهما من بطش فرعون، و قوة فرعون و طغيانه ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْوَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾، فاستجاب الله لحاجتهما إلى الحماية و الدعم و التأييد ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى﴾^(٢).

٤- و النموذج الرابع كلمة العبد الصالح نوح عليه السلام، عندما عرض على الله حاجته إلى إنقاذ ابنه من الطوفان ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْغَاكِمِينَ﴾^(٣)، و هو طلب في غاية الأدب من هذا العبد الصالح، فلم يطلب من الله تعالى إنقاذ ابنه، و إنما عرض حاجته إلى إنقاذ ابنه من الفرق فقط.

و مهما يكن من أمر فإنَّ «الحاجة» و «الفقر» من مواطن نزول رحمة الله تعالى. و حتى الحيوانات و النباتات تستنزل رحمة الله تعالى بحاجاتها و فقرها. فإذا عطشت سقاها الله تعالى و رواها، و إذا جاعت أشبعها الله تعالى و أطعمها. و هذا باب واسع من المعرفة؛ و قد سبق أن بيَّنتُ طرفاً من ذلك في كتاب «شرح الصدر» من «رحاب القرآن» و عسى أن يقيض الله تعالى من يشرح ذلك.

الوسيلة الثانية: «الدعاء» و هو من مفاتيح رحمة الله تعالى.

(٢) طه: ٤٤.

(١) طه: ٤٣-٤٥.

(٣) هود: ٤٥.

يقول تعالى ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، و يقول ﴿قُلْ مَا يَفْعَلُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٢).

الوسيلة الثالثة: «الحب»، وإنَّ العبد يستنزل من رحمة الله تعالى «بالحب» ما لا يستنزل به بغيره.

والآن تأملوا في هذه الوسائل الثلاثة التي يتوسل بها زين العابدين عليه السلام إلى الله تعالى:

«رضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وعندك دواء عَلتِي، وشفاء غَلتِي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي». وهذه هي وسيلة «الحاجة والفقر».

«جوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي ... فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلّتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، وولي عصمتي، ومغني فاقتي». وهذه وسيلة «الدعاء».

«فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك مني نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي». وهذه وسيلة «الحب».

والآن نتأمل في هذه الفقرة من كلام الإمام، وهي رائعة من روائع الدعاء، وإنَّ للدعاء روائع كما للفن والأدب، يقول عليه السلام: «فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتني، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني».

و في «الانقطاع» ما ليس في «التعلق» والإمام لا يقول: فقد تعلّقت بك همتي، لأنّ التعلّق بالله لا ينفي التعلّق بغيره، وإن كان العبد صادقاً في تعلّقه بالله، وإنما يقول: «فقد انقطعت إليك همّتي»، فإنّ الانقطاع يتضمّن معنًى إيجابياً و سلبياً معاً، فإنه انقطاع «من الخلق إلى الله»، و الانقطاع «من الخلق» هو المعنى السلبي الذي يقصده الإمام في هذه الفقرة، و «إلى الله» هو المعنى الإيجابي الذي يقصده.

فإنّ الاخلاص في الحب «فصل» و «وصل»؛ فصل مما عدا الله، و وصل بالله و بمن يحبّ و يأمر بحبّه، و هما وجهان لقضية واحدة.

فإنّ «الحبّ» إذا صفا و خلص تضمّن وجهين: «ولاء» و «براءة» و «وصلاً» و «فصلاً» و «انقطاعاً» من الخلق «إلى الله».

و نفس المعنى تتضمّنه الفقرة الثانية: «و انصرفت إليك رغبتى».

فإنّ الانصراف إلى الله «إعراض» و «إقبال» معاً، «إعراض» عمّا عدا الله «و إقبال» على الله و ما يأمر به و يحبّه.

ثم يأتي التأكيد الثالث لهذه الحقيقة، و هو أبلغها جميعاً، و يحمل من معاني الحب و الانصراف إلى الله، و الانقطاع عمّا عداه ما يعجز عن أدائه و وصفه التعبير: «فأنت لا غيرك مرادي و لك لا لسواك سهري و سهادي».

و «السَّهَر» و «السَّهَاد» بخلاف النوم، إلّا أنّ «السَّهَر» هو قيام الليل في حالة «الأنس»، و «السَّهَاد» نحو من الأرق ينتاب الإنسان عندما يشغله شيء يهمه، و يسلب عنه النوم، و هو هنا الحنين و الشوق إلى الله.

إذن هما يمثلان حالتين من حالات الحب: «الأنس» و«الشوق». أنس بذكر الله و بحضوره عند العبد حيث يحس بحضور الله في دعائه، و ذكره، و مناجاته، و صلاته، و شوقاً إلى لقاء الله.

و المحب يشعر بهذا و ذاك معاً عند ما يقف بين يدي الله تعالى، و هذا و ذاك ينفيان عنه النوم و يؤزّقانه، حين يستسلم الناس للنوم، و يفقدون وعيهم و شعورهم بالنوم.

و النوم حاجة، من دون شك، يأخذ الناس جميعاً حظّهم منه، الصالحون و الطالحون، و حتى الأنبياء و الصديقون ينامون.

و لكن فرق هائل بين من يأخذ حاجته من النوم، كما يأخذ حاجته من الأكل و الشرب، و بين من يستسلم للنوم و يتحكّم النوم فيه.

أما أولياء الله فلا يستسلمون للنوم، و إنّما النوم عندهم حاجة يأخذون منه حظّهم. و لقد كان رسول الله ﷺ لا ينام إلا هنيئة حتى يقوم بين يدي الله، و كان يأمر أن يوضع وضوؤه عند رأسه ليقوم بين يدي الله، كلّما أخذ نصيباً من هذه الحاجة الطبيعية.

و لقد كان يفرش له الفراش الوثير و المريح فيأمر برفعه لئلا يستدرجه ذلك للاستسلام للنوم.

و كان ينام على الحصار الخشن حتى أثار الحصار في جنبه لكيلا يستغرق في النوم،

و قد أودع الله تعالى في هدأة الليل من كنوز مناجاته و ذكره و قربه ما

ليس في النهار، ولليل رجال كما للنهار رجال، يقومون إذا نام الناس، وينشطون إذا خمل الناس ويعرجون إلى الله إذا استسلم الناس للنوم وسقطوا على فراشهم. و لليل دولة كما للنهار دولة، وفي الليل كنوز كما في النهار كنوز. والناس يعرفون دولة النهار و رجاله و كنوزه، و قليل من الناس من يعرف قيمة دولة الليل و كنوزه و رجاله. فإذا أخذ الإنسان من دولتي الليل و النهار معاً كان سويّاً راشداً متوازناً.

و لقد كان رسول الله ﷺ من رجال الليل و النهار معاً، يأخذ من هذا و ذاك بصورة متوازنة، يأخذ من الليل الحب و الاخلاص و الذكر، و يأخذ من النهار القوة و السلطان و المال، لتمكين الدعوة و ترسيخها و كانت ناشئة الليل تعينه، و تمكنه من حمل عبء الرسالة الثقيل. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَفْضُهُ أَوْ آنْقُضْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَ أَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ (١).

و يعجبني أن أنقل هنا هذا النص من الحديث القدسي في الليل و رجاله. روي أنه تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: «إِنَّ لِي عِبَاداً مِنْ عِبَادِي يَحِبُّونِي فَأَحِبَّهُمْ، وَ يَشْتَاقُونَ إِلَيَّ وَ أَشْتَاقُ إِلَيْهِمْ، وَ يَذْكُرُونِي وَ أَذْكُرُهُمْ، وَ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ وَ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَ إِنْ حَذَوْتَ طَرِيقَهُمْ أَحْبَبْتُكَ، وَ إِنْ عَدَلْتَ عَنْهُمْ مَقَّتَكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَ مَا عَلَامَتُهُمْ؟ قَالَ: يَرَاعُونَ الظَّلَالَ بِالنَّهَارِ كَمَا يَرَاعِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ،

و يحنّون إلى غروب الشمس، كما يحنّ الطير إلى وكره عند الغروب، فإذا جنّهم الليل، و اختلط الظلام، و فرشت الفرش، و نصبت الأُسرة و خلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم و افترشوا إليّ وجوههم، و ناجوني بكلامي، و علقوا إليّ بأنفامي. فمن صارخ و باك، و متأوّه شاك، و من قائم و قاعد و راكم و ساجد. بعيني ما يتحمّلون من أجلي، و بسمعي ما يشكون من حبي، أول ما أعطيتهم ثلاث:

- ١- أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني، كما أخبر عنهم.
- ٢- و الثانية: لو كانت السماوات و الأرض في موازينهم لاستقللتها لهم.
- ٣- و الثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟»^(١).

و روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «كان مما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: «كذب من زعم أنّه يحبّني، فإذا جنّه الليل نام عني، يابن عمران، لو رأيت الذين يقومون لي في الدجى، و قد مثلت نفسي بين أعينهم، يخاطبوني و قد جللت عن المشاهدة، و يكلموني و قد عززت عن الحضور. يابن عمران، هب لي من عينيك الدموع، و من قلبك الخشوع، ثم ادعني في ظلمة الليالي تجدني قريباً مجيباً»^(٢).

و في خطبة المتقين من «نهج البلاغة» يصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لهتمّ حال أولياء الله في مناجاتهم إذا جنّهم الليل، و ذكرهم و وقوفهم

بين يدي ربهم، فيقول عليه السلام: «أما الليل فصاقون أقدامهم، نالين لأجزاء القرآن يركلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دأئهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم، إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم، وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم. وأما النهار فحلما، علماء، أبرار، أتقياء، قدبراهم الخوف بري القِداح...»^(١).

صورة أخرى من صور الشوق إلى الله:

صورة أخرى من صور الشوق إلى الله في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام. يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرائع المصافاة يردون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأنس سرهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم، وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقر

بإدراك السؤل ونيل المأمول قرارهم، و ربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم.
إلهي ما ألدّ خواطر الإلهام بك على القلوب، و ما أحلى المسير إليك
بالأوهام في مسالك الغيوب، و ما أطيب طعم حبّك، و ما أعذب شرب قربك.
فأعذنا من طردك و إبعادك، و اجعلنا من أخصّ عارفيك و أصلح عبادك، و
أصدق طائعيك و أخلص عبّادك»^(١).

و لست اريد هنا الوقوف للتأمل عند هذه المناجاة التي هي رائعة من
روائع أهل البيت عليه السلام في الدعاء و المناجاة. و لكن أودّ أن أقف قليلاً عند هذه
الجملة التي يبدأ بها الإمام علي بن الحسين عليه السلام مناجاته: «إلهي واجعلنا من الذين
ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، و أخذت لوعة محبتك بمجامع
قلوبهم»، فإنّ صدور أولياء الله - كما يظهر من كلام الإمام - حدائق ذات بهجة، و
ذات ثمار طيبة، و إنّ صدور الناس على أنحاء: فمن الصدور مكاتب و مدارس
للعلم، و العلم خير و نور، و لكن على أن يبقى الصدر حديقة للشوق إلى الله، و
من الصدور متاجر و بنوك و بورصات للمال تزدهم بالأرقام و جداول الإحصاء
و حسابات الربح و الخسارة. و المال و التجارة خير بشرط أن لا يكون الشغل
الشاغل لقلب الانسان و صدره، و لا يكون همّه الذي لا يفارقه. و من الصدور
أراض سبخة ينبت فيها الشوك و الحنظل و السموم و الاحقاد و الصراع على
المال و السلطان و الكيد و المكر بالآخرين. و من الصدور ملاه و ملاعب، و
الدنيا لهو و لعب لطائفة واسعة من الناس.

(١) مفاتيح الجنان: مناجاة العارفين.

و من الناس من ينشطر صدره إلى شطرين: شطر للسموم و الاحقاد، و المكر و الكيد، و الشطر الآخر للهو و للعب. فإذا أقلقته الشطر الأول و سلب راحته و استقراره لجأ إلى الشطر الثاني، و استعان باللهو لكي ينقذ نفسه من عذاب الشطر الأول.

و أما صدور أولياء الله، فهي حقائق الشوق - كما يقول زين العابدين - ذات بهجة و ثمار طيبة، و قد ترشخت فيها أشجار الشوق و امتدت فيها جذورها، فليس الشوق إلى الله أمراً طارئاً يزول إذا ألح عليه الهوى أو أقبلت و تزينت له الدنيا، و لا يخف هذا الشوق و لا تذبل أوراقه إذا ضاقت بصاحبه الدنيا، و تراكمت عليه الابتلاءات، فإن أشجار الشوق إذا كانت راسخة في هذه الصدور تبقى مورقة و خضراء و مثمرة رغم كل العقبات و المتاعب.

و حالة الشوق حالة خفة الروح، و هي حالة معاكسة للتناقل و الركون إلى الدنيا التي تتحدث عنها الآية الكريمة: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾^(١)، إن النفس تثقل، و تترهل، كلما تعلق الإنسان بالدنيا و رضيها، و ركن إليها فإذا تحرر من الدنيا، و انتزع نفسه^(٢) منها خف، فجذبه حبُّ الله تعالى و الشوق إليه.

و لنقف عند هذا الحد من استعراض صور الحبِّ و الشوق و الأنس من نصوص أدعية أهل البيت: و ننصرف إلى غير ذلك من مباحث «الحب الإلهي».

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) ليس معنى التحرر من الدنيا تركها، فقد كان رسول الله متحرراً من الدنيا، و هو يعمل لتمكين الدعوة من الدنيا و إخضاع الدنيا لها.

إخلاص الحب لله:

وهذه مقولة فوق مقولة توحيد الحب. فَإِنَّ توحيد الحب لا ينفي أي حب آخر غير حب الله، ولكنه يحكم حب الله تعالى ويغلبه على أي حب آخر، فيكون حب الله هو الحب الغالب الحاكم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١)، وهو من شروط الإيمان و فرع من فروع التوحيد.

أما إخلاص الحب لله فهو ينفي أي حب آخر غير حب الله، إلا أن يكون في امتداد حب الله «الحب لله» والبغض لله» وهو ليس من شؤون الإيمان والتوحيد، ولكنه من شؤون الصديقين ومقاماتهم. فَإِنَّ الله تعالى يمكن أوليائه و عباده الصالحين من تفرغ قلوبهم من كل حب و ودّ غير حبه و وده.

وقد روي عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): «القلب حرم الله، فلا تُسكن حرم الله غير الله»^(٢). وهذه صفة خاصة للقلب، فَإِنَّ الجوارح تسعى و تتحرك في الحياة باتجاهات و شؤون شتى فيما أباحه الله تعالى و أجازته، أما القلب فهو حرم الله تعالى و لا ينبغي أن يحل فيه حب لغير الله و تعلق بسواه.

و التعبير عن «القلب» في النص «بالحرم» دقيق و معبر؛ فَإِنَّ الحرم منطقة آمنة و مغلقة على كل غريب، لا ينال أهلها سوء أو خوف، و لا يدخلها غريب، و كذلك القلب حرم الله الآمن، لا يدخله حب آخر غير حب الله، و لا يمس فيه حب الله سوء أو خوف.

و لذلك فَإِنَّ الصديقين و الأولياء من عباد الله يخلصون الحب لله، و لا

يجمعون بين حبِّ الله وحبِّ آخر، مهما كان إلا أن يكون في امتداد حب الله. وفي المناجاة التالية نلمس لوعة الحبِّ وصدق الإخلاص في الحبِّ في كلمات زين العابدين عليه السلام: «سَيِّدِي إِلَيْكَ رَغْبَتِي، وَإِلَيْكَ رَهْبَتِي، وَإِلَيْكَ تَأْمِيلِي، وَقَدْ سَاقَنِي إِلَيْكَ أُمْلِي، وَعَلَيْكَ يَا وَاحِدِي عَكْفَتِ هَمَّتِي، وَفِيمَا عِنْدَكَ انْبَسَطَتْ رَغْبَتِي، وَلَكَ خَالصُ رَجَائِي وَخَوْفِي، وَبِكَ أُنْسْتُ مَحَبَّتِي، وَإِلَيْكَ أَلْقَيْتُ بِيَدِي، وَبِحَبْلِ طَاعَتِكَ مَسَدَدَتْ رَهْبَتِي، يَا مَوْلَايَ بِذِكْرِكَ عَاشَ قَلْبِي، وَبِمَنَاجَاتِكَ بَسَدَتْ أَمَلُ الْخَوْفِ عَنِّي...»^(١).

فالإمام عليه السلام في هذه المقطوعة من المناجاة يربط رغبته و رهبته و أمله كلّها بالله، و يعكف بهمّته كلّها عليه تعالى، و يجعل له خالص رجائه و خوفه. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَحْبَبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ»^(٢). و في الدعاء عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَمْلَأَ قَلْبِي حُبًّا لَكَ، وَ خَشْيَةً مِنْكَ، وَ تَصْدِيقًا لَكَ، وَ إِيْمَانًا بِكَ، وَ فِرْقًا مِنْكَ، وَ شَوْقًا إِلَيْكَ»^(٣).

و إذا كان حبُّ الله و الشوق إليه ملء قلب العبد فلا يبقى في قلبه محلٌّ شاغر لحبِّ آخر غير حبِّ الله، إلا أن يكون في امتداد حبّه تعالى، و هو في الحقيقة من حبِّ الله و من الشوق إليه.

في الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام عند حضور شهر رمضان: «صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَ اشْغَلْ قَلْبِي بِعَظِيمِ شَأْنِكَ، وَ أَرْسِلْ مَحَبَّتَكَ إِلَيْهِ حَتَّى أَقْصَاكَ وَ

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) كنز العمال: ٤٧ / ٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨ / ٨٩.

أوداجي تشخب دماً»^(١). و هو بمعنى إخلاص الحب لله، حيث يكون حب الله هو الشغل الشاغل للقلب و همته الذي لا يفارقه.

غيرة الله على عبده:

إنَّ الله تعالى يحب عبده، و من خصائص الحب الغيرة، فهو على قلب عبده غيور، يحب أن يخلص له عبده حبه و لا يحب غيره، و لا يسمع بحب آخر أن يدخل قلبه.

و روي أن موسى بن عمران عليه السلام ناجى ربه بالوادي المقدس، فقال: «يا رب، إني أخلصت لك المحبة مني، و غسلت قلبي عن سواك» و كان شديد الحب لأهله، فقال الله تبارك و تعالى: «... انزع حب أهلِكَ من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة»^(٢).

و من غيرة الله تعالى على عبده أن يزيل حب الأغيار من قلب عبده، و إذا وجد أن عبده قد تعلّق قلبه بغيره سلبه عنه حتّى يخلص قلب عبده لحبه، و قد ورد في الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائنا، حتّى لم يحبوا سواك ... ماذا وجد من فقدك، و ما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً»^(٣).

و يعجبني أن أقبل بهذا الصدد هذه القصة المربّية التي يرويها الشيخ حسن

(١) بحار الأنوار: ٩٧ / ٣٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ٨٣ / ٢٣٦.

(٣) بحار الأنوار: ٩٨ / ٢٢٦.

البنّا في كتابه «مذاكرات الدعوة والداعية»: يقول حسن البنّا: رزق الله الشيخ شلبي - أحد مشايخ مصر في العرفان و الأخلاق - بنتاً في مرحلة متأخرة من عمره، فولع بها الشيخ ولعاً شديداً و شغف بها حتى كاد لا يفارقها إلى أن كبرت. و كان يزداد حباً لها كلما شبّت و كبرت.

و لقد زاره الشيخ البنّا مع جمع من أصحابه في بعض الليالي بعد انصرافهم من موكب فرح، انطلقوا فيه من دار قرب دار الشيخ شلبي في ليلة عيد ميلاد رسول الله ﷺ. و بعد عودتهم جلسوا مع الشيخ شلبي قليلاً. و لما أرادوا الانصراف قال لهم الشيخ بابتسامة رقيقة لطيفة: إن شاء الله غداً تزورونني لندفن روحية.

و روحية هذه وحيدته التي رُزقها بعد إحدى عشرة سنة من زواجه، و كان لا يفارقها حتى في عمله. و قد شبّت و ترعرعت، و أسماها «روحية» لأنها كانت تحتل منه منزلة الروح.

يقول البنّا: فاستغربنا و سألناه، و متى توفيت؟ فقال: اليوم قبيل المغرب. فقلنا: و لماذا لم تخبرنا فنخرج من منزل آخر بموكب التشيع؟ فقال: و ما الذي حدث؟ لقد خفف عنا الحزن، و انقلب المأتم فرحاً، فهل تريدون نعمة من الله أكبر من هذه النعمة؟

و انقلب الحديث إلى درس تصوّف يلقيه الشيخ، و يعلّل وفاة كريمته بغيره الله على قلبه، فإنّ الله يغار على قلوب عباده الصالحين أن تتعلّق بغيره، أو تنصرف إلى سواه. و استشهد بإبراهيم ﷺ و قد تعلّق قلبه بإسماعيل فأمره الله أن

يذبحه، و يعقوب عليه السلام إذ تعلق قلبه بيوسف فأضاعه الله منه عدة سنوات. و لهذا يجب أن لا يتعلق قلب العبد بغير الله تبارك و تعالى، و إلا كان كاذباً في دعوى المحبة.

و ساق قصة الفضيل بن عياض و قد أمسك بيد ابنته الصغرى فقبلها فقالت له: يا أبتاه أ تحبني؟ فقال: نعم يا بنيّة، فقالت: و الله ما كنت أظنك كذاباً قبل اليوم. فقال: و كيف ذلك؟ و لم كذبت؟ فقالت: لقد ظننت أنك بحالك هذه مع الله لا تحبّ معه أحداً، فبكى الرجل و قال: يا مولاي، حتى الصغار قد اكتشفوا رياء عبدك الفضيل! و هكذا من هذه الأحاديث التي كان الشيخ شلبي يحاول أن يسرّي بها عتاً، و يصرف ما لحقنا من ألم لمصابه و خجل لقضاء هذه الليلة عنده. و انصرفنا وعدنا إليه في الصباح حيث دفننا روحية. و لم نسمع صوت نائحة، و لم ترتفع حنجرة بكلمة نائية، و لم نرَ إلا مظاهر الصبر و التسليم لله العلي الكبير.

الحب لله و في الله:

يبقى علينا أن نجيب عن السؤال التالي، فقد نفسر إخلاص الحب لله بهذا المعنى على خلاف طبيعة الإنسان و فطرته، فإن الله تعالى فطر الإنسان على حب أشياء كثيرة، و كره أشياء كثيرة، و إخلاص الحب لله بهذا المعنى ينافي هذه الفطرة التي فطر الله تعالى خلقه عليها.

و الجواب: أن إخلاص الحب لله ليس بمعنى التنكّر للفطرة، و إنما هو بمعنى توجيه الحب و الكره من خلال ما يحب الله تعالى و ما يكره. فالله تعالى لا يريد من عبده و كلمه موسى بن عمران عليه السلام أن ينتزع حب أهله من قلبه، و إنما

يريد أن يكون حبه لأهله من خلال حبه، وأن يكون حبه هو المصدر الوحيد لكل حب في قلبه. وبتعبير آخر: إن الذي يطلبه الله تعالى من عبده وكرامته موسى بن عمران (عليه السلام) هو ربط كل حب بقناة حبه تعالى، فيكون عندئذ حبه لأهله تكريساً لحبه تعالى، وهو معنى دقيق، وأسلوب رائع في التربية لا يناله إلا من اختصه الله تعالى بحبه واصطفاه. فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو من أكثر الناس خلوصاً و صفاء و نقاءً كان يقول: «حُبَّ إليَّ من دنياكم: النساء، والطيب، و قرّة عيني في الصلاة»^(١).

و ليس من شك أن هذا الحب هو من الحب الذي يقع في امتداد حب الله. فإن أحب هذه الثلاثة إلى قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصلاة، فهي قرّة عينه. و ليس من شك أن حب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لها يقع في امتداد حبه لله تعالى.

فليس في «إخلاص الحب لله» تخريب للفطرة و تشويش للطبيعة التي خلقها الله تعالى، وإنما هو إعادة لتنظيم خارطة الحب و البغض في حياة الإنسان بهذا الملاك الجديد الذي يطرحه الإسلام.

فيبقى حب الإنسان الطبيعي في مواضعه، و لكن ضمن تنظيم جديد يكرّس حب العبد لله تعالى بدل أن يضعفه و يشوش عليه.

ولهذا السبب فقد ورد تأكيد بليغ في النصوص الإسلامية في قيمة «الحب لله و في الله». فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «المحبة لله أقرب نسب»^(٢). و عنه (عليه السلام) أيضاً: «المحبة في الله أكد من وشيع الرحم»^(٣).

و التعبير دقيق و يعتمد على أصل فكري مهم، فإنّ للناس في حياتهم أنساباً و وشائج من العلاقات. و من أوثق هذه الوشائج و شيجة الرحم. و العلاقة بالله تعالى أكد من و شيجة الرحم. و إذا ربط الإنسان حبه و تعلّقه بهذه الوشيجة. و أحبّ من خلالها، و أبغض من خلالها، كان أكمل النسب و أكد الوشائج. و إنّما يكون أكد الوشائج لأنّ الحبّ إذا كان لغير الله فقد يتغيّر و قد يختلّ، و قد يتأثر بالموثّرات التي تتغيّر وجه الناس بعضهم لبعض. أمّا إذا كان حبّ الإنسان لأخيه لله فإنّه أكد و أقوى، و أكثر ثباتاً تجاه الموثّرات و العوامل المضادة المختلفة.

و ليس فقط إخلاص الحبّ لله لا ينفي التعلّقات الطبيعية في نفس الإنسان، و إنّما يؤكدها أيضاً و يرسّخها بعد أن يُنظّمها من خلال القناة الكبرى، التي تُنظّم كلّ حبّ الصّديقين و أولياء الله. فيكون أفضل الناس عند الله أكثرهم حبّاً لأخيه المؤمن في الله. عن الصادق عليه السلام: «ما التقى مؤمنان قطّ إلّا كان أحدهما أشدّهما حبّاً لأخيه»^(١).

و روي عنه عليه السلام أيضاً: «إنّ المتحابّين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور أجسادهم و نور منابرهم كل شيء حتّى يُعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابّون في الله»^(٢).

و روي أنّ الله تعالى قال لموسى بن عمران عليه السلام: «هل عملت لي عملاً؟ قال: صلّيت لك و صمت، و تصدّقت و ذكرت لك، فقال الله تبارك و تعالى: أمّا الصلاة فلك

برهان، و الصوم جُنَّة، و الصدقة ظلٌّ، و الذكر نور، فأَي عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دَلّني على العمل الذي هو لك. قال: ياموسى، هل واليت لي وليّاً و هل عادت لي عدوّاً قط؟ فعلم موسى أَنَّ أَفضل الأعمال الحبُّ في الله و البغض في الله»^(١).

و الحديث دقيق، فَإِنَّ الصلاة يمكن أَن يقدم عليها الإنسان لحبه لله، و يمكن أَن يقدم عليها لتكون برهاناً له في الجنة. و الصوم يمكن أَن يقدم عليه الإنسان حبّاً لله، و يمكن أَن يقوم به ليكون جُنَّة له من النار. أَمَّا حبّ أولياء الله و بغض أعدائه فلا يكون إلّا حبّاً لله.

المصدر الأول للحب:

من أين نستقي حبّ الله؟ هذا سؤال مهم في بحثنا هذا. فما دمنا قد عرفنا قيمة حب الله، فلا بدّ أَن نعرف من أين نأخذ هذا الحب. و ما هو مصدره؟

و إجمال الجواب أَنَّ الله تعالى هو مصدر الحبّ و مبدؤه و غايته. و لا بدّ لهذا الإجمال من تفصيل، و إليك هذا التفصيل:

١- يحبّ الله عباده:

إِنَّ الله تعالى يحبّ عباده، و يرزقهم، و يستر عليهم، و يهبهم من المواهب و النعم ما لا يحصىه أحد، و يعفو عنهم، و يتوب عليهم، و يسدّدهم، و يرزقهم التوفيق، و يهديهم صراطه المستقيم، و يتولّاهم برعايته و فضله، و يدفع عنهم السوء و الشرّ، و هذه جميعاً أمارات الحبّ.

٢- و يمنحهم حبّه و ودّه:

و من حبّ الله تعالى لعباده أنه يحبّهم، و يرزقهم حبّه. و أمر هذا الحبّ غريب، فإنّ الله تعالى هو واهب الحبّ، و هو الذي يتلقّى الحبّ من عباده. يهبهم الجذبة بعد الجذبة، ثم يجذبهم إليه بتلك الجذبة.

و نحن نجد في نصوص الأحاديث و الأدعية إشارات متكررة إلى هذا المعنى. ففي المناجاة الثانية عشرة للإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي، فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، و أخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم». و قد شرحنا هذا النص من قبل.

و في المناجاة الرابعة عشرة: «أسألك أن تجعل علينا واقية تنجينا من الهلكات، و تجنّبنا من الآفات، و تُكفّنا من دواهي المصيبات، و أن تُنزل علينا من سكينتك، و أن تغشّي وجوهنا بأنوار محبتك، و أن تؤوينا إلى شديد ركنك، و أن تحوينا في أكناف عصمتك، برأفتك و رحمتك يا أرحم الراحمين».

و في المناجاة الخامسة عشرة (مناجاة الزاهدين): «إلهي، فزهدنا فيها، و سلّمنا منها بتوفيقك و عصمتك، و أنزع عتّا جلاليب مخالفتك، و تولّ أمورنا بحسن كفايتك، و أجمل صلاتنا من فيض مواهبك، و أغرس في أفئدتنا أشجار محبتك، و أتم لنا أنوار معرفتك، و أذقنا حلاوة عفوك و لذّة مغفرتك، و أقر أعيننا يوم لقائك برويتك، و أخرج حبّ الدنيا من قلوبنا كما فعلت بالصالحين من صفوتك، و الأبرار من خاصّتك، برحمتك يا أرحم الراحمين».

و في التكملة التي يذكرها السيد ابن طاووس لدعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من

الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ و متى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عمت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيباً... فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك... وصني بسرك المصون... واسلك بي مسلك أهل الجذب، إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدويري، وباختيارك عن اختياري، وأوقني عن مراكز اضطراري... أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك و وحدوك. وأنت الذي أزلت الاغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانن لهم المعالم. ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً، كيف يرجئ سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبائه حلاوة الموانسة فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أوليائه ملابس هيبته، فقاموا بين يديه مستغفرين... إلهي أطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمتك حتى أقبل عليك»^(١).

٣- ويتحَبَّب إليهم:

والله تعالى يتحَبَّب إلى عباده، فيصدق عليهم النعم لِيُحِبَّوْهُ، وإنَّ النعم في القلوب الواعية والمدركة تحَبَّب الله تعالى إلى الذين ينعم عليهم.

في دعاء علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في الأسحار: «تَحَبَّبَ إِلَيْنَا بالنعم، ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل، وشرنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال

ملك كريم يأتيك عنا في كل يوم بعمل قبيح، فلا يمنعك ما يأتي منّا من ذلك أن تحوّلنا برحمتك، و تتفضّل علينا بآلائك، فسبحانك ما أحلمك و أعظمك و أكرمك مُبدئاً و مُعيداً»^(١).

و المقارنة بين ما هو النازل من لدن الله إلى العبد من نعم و فضل و إحسان و جميل و عفو و ستر، و بين ما هو الصاعد من قبل العبد إلى الله من قبيح و شرّ يُشعر العبد بالخجل من مولاه، فهو يقابل هذا الحبّ و التحبّب من جانب الله تعالى بالإعراض و التبتّض إليه.

و ما أكثر بؤس الإنسان و شقاءه إذا كان يقابل حبّ الله تعالى له و تحبّبه إليه بالإعراض و التبتّض.

تأمّلوا في هذه الكلمات من دعاء الافتتاح للإمام الحجة عليه السلام: «إنّك تدعوني فأولّي عنك، و تتحبّب إليّ فأبتغض إليك، و تتودّد إليّ فلا أقبل منك، كأنّني التطلّول عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة بي، و الإحسان إليّ و التفضّل عليّ»^(٢).
«خيرك إلينا نازل، و شرّنا إليك صاعد»^(٣).

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

(١) بحار الأنوار: ١٨ / ٨٥.

(٣) بحار الأنوار: ١٨ / ٨٥.



مصادر الادعية في

تراث أهل البيت عليهم السلام

لنا في حديث الأئمة أهل البيت ؑ ثروة هائلة من الادعية و المفاهيم
الرقية و الشفافة في المناجاة.

اهتمام اصحاب الأئمة بتدوين الاحاديث :

و كان اصحابهم ؑ يحرصون حرصاً بليغاً على تسجيل ما يوصون به
اصحابهم من الادعية.

روى السيد رضي الدين علي بن طاووس في مهج الدعوات عند ذكر
دعاء «جوشن الصغير» المنسوب الى الامام موسى بن جعفر ؑ قال : روى ابو
الوضاح محمد بن عبدالله بن زيد النهشلي عن ابيه عبدالله بن زيد الذي كان من
اصحاب الامام الكاظم ؑ : قال عبدالله بن زيد انه كان جماعة من خاصة ابي
الحسن الكاظم ؑ من أهل بيته و شيعته يحضرون مجلسه و معهم في أكماتهم
ألواح آبنوس لطاف و أميال فإذا نطق بكلمة أو أفتى في نازلة أثبت القوم ما
سمعوه منه. من ذلك قال عبدالله فسمعناه و هو يقول في دعائه ... و ذكر الدعاء
المعروف «جوشن الصغير» المروي عن موسى بن جعفر ؑ (١).

(١) مهج الدعوات للسيد رضي الدين علي بن طاووس ؑ.

الاصول الاربعمائه في الحديث :

و قد دَوَّن أصحاب الامام الصادق عليه السلام من حديثه أربعمائة مصنف اشتهرت بالاصول الاربعمائة. يقول الشيخ أمين الاسلام الطبرسي (توفي سنة ٥٤٨ هـ) في اعلام الوری: روى عن الامام الصادق عليه السلام من مشهوري أهل العلم أربعة آلاف انسان و صنَّف من جواباته في المسائل اربعمائة كتاب تسمى الاصول ^(١). و قد كان من دأب أصحاب الاصول عليهم السلام الإهتمام بضبط و تدوين ما يسمعون من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الشيخ البهائي في «الشمسين» : «قد بلغنا عن مشايخنا قدس أسرارهم انه كان من دأب أصحاب الاصول انهم اذا سمعوا عن أحد من الائمة عليهم السلام حديثاً بادروا الى اثباته في اصولهم لئلا يعرض لهم نسيان لبعضه أو كله بتمادي الأيام». و لذلك كانت هذه الاصول معتمدة من قبل الاصحاب و اذا رووا عنها رواية حكموا بصحتها و اعتمدوها.

يقول المحقق الداماد في الراشحة التاسعة و العشرين من رواشحه بعد ذكر الاصول الاربعمائة : «و ليعلم ان الأخذ من الاصول المصححة المعتمدة أحد أركان تصحيح الرواية».

و قد تعهد عدد كبير من اصحاب الأئمة عليهم السلام لكتابة الاصول لا يمكن استيفاؤهم و لا استيفاء اصولهم. يقول الشيخ الطوسي عليه السلام في أول الفهرست : «و اني لا أضمن الاستيفاء؛ لان تصانيف اصحابنا و اصولهم لا تكاد تضبط لكثرة

انتشار اصحابنا في البلدان». نعم لا يقل عددهم كما يقول المحقق آقا بزرگ الطهراني في الذريعة عن الاربعمئة ^(١).

يقول المحقق الداماد في الراشحة المذكورة: «المشهور ان الاصول الاربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف من رجال ابي عبدالله الصادق عليه السلام بل وفي مجالس السماع والرواية عنه و رجاله زهاء اربعة آلاف رجل و كتبهم مصنفاتهم كثيرة، إلا أن ما استقر على اعتبارها والتعويل عليها و تسميتها بالاصول هذه الاربعمئة».

حرق تراث أهل البيت على يد طغرل بيك :

إلا أن هذه الاصول مع طوائف كثيرة من تراث أهل البيت عليهم السلام و من ذلك كتب الادعية تعرضت للتلف في حادث حريق خزانة الكتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن اردشير (الوزير الشيعي الذي استوزره بهاء الدولة البويهى) و قد كانت هذه الخزانة من أجل خزانة الكتب في ذلك العصر و أعمرها و اكثرها كتاباً. ذكرها الياقوت الحموي في معجم البلدان (٢ : ٣٤٢) مادة بين السورين فقال: «ان بين السورين في كرخ بغداد من أحسن محالها و أعمرها»؛ قال: «و بها خزانة الكتب التي وقفها الوزير أبونصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهى و لم يكن في الدنيا احسن كتب منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة و اصولهم المحرزة و احترقت فيما أحرقت من محال الكرخ عند ورود طغرل بيك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ و كان من هذه

(١) الذريعة إلى تصانيف الشعية: ٢ / ١٢٩.

الكتب التي أحرقتها طغرل بيك كتب الادعية المأثورة عن أهل البيت عليه السلام». يقول المحقق المتتبع الطهراني رحمته الله بعد نقل كلام الحموي في الياقوت : أقول : «و من المظنون كون جملة من كتب هذه المكتبة الموقوفة للشيعة و المؤسسة لهم في محلّتهم كرخ بغداد هي الاصول الدعائية التي رواها القدماء من اصحاب الأئمة عليهم السلام عنهم. و قد صرّح أئمة الرجال في ترجمة كل واحد منهم بثبوت الكتاب له معبراً عنه بكتاب الادعية و ذاكرأ لطريق روايتهم لهذا الكتاب عن مؤلفه»^(١).

سلامة طائفة من تراث أهل البيت : عن التلف :

و قد اجتمعت طائفة من هذه الاصول عند شيخ الطائفة الشيخ ابي جعفر الطوسي رحمته الله لدى تأليفه «الإستبصار» و «التهذيب» ببغداد و كان تحت تصرف الشيخ رحمته الله عندئذ ببغداد مكتبتان حافظتان بأمّهات الاصول: احداهما مكتبة سابور التي اسست لعلماء الشيعة بجانب الكرخ من بغداد و الأخرى خزائن كتب استاذه الشريف المرتضى الذي كان يُقدّر بثمانين الف كتاب. و بقيت جملة من هذه الكتب الى عصر ابن ادريس الحلبي رحمته الله و استخرج منها «مستطرفات السرائر».

سلامة طائفة من مصادر الادعية عن التلف :

يقول المحقق الطهراني آقا بزرك في الذريعة : «و بالجملة هذه الاصول الدعائية التي كانت في مكتبة سابور بالعناوين العامة أو الخاصة، صارت كلّها

طُعْمَةٌ للنار كما شرحه ياقوت، لكننا ما افتقدنا منها شيئاً إلا اعيانها الشخصية الموجودة في الخارج، أما محتوياتها من الادعية و الاذكار و الزيارات فقد وصلت الينا بعين ما كان مندرجاً في تلك الاصول. و ذلك لأنه قبل تاريخ الاحتراق بسنين كثيرة قد أُلّف جمع من الاعاظم الاعلام كتباً في الادعية و الاعمال و الزيارات، و استخرجوا جميع ما في كتبهم من تلك الاصول الدعائية. و هذه الكتب المؤلفة عن تلك الاصول قبل التحريق موجودة بعينها حتى اليوم مثل كتاب الدعاء للشيخ الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ و كامل الزيارات لابن قولويه المتوفى سنة ٣٦٠ و كتاب الدعاء و المزار للشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ و كتاب المزار للشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ و كتاب روضة العابدين للكراجكي المتوفى ٤٤٩».

الادعية التي سلمت لنا بواسطة كتاب (مصباح المتهجد):

و من المصادر الدعائية المأخوذة من تلك الاصول القديمة هو (مصباح المتهجد) لشيخ الطائفة الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠؛ فإنه بعد وروده الى العراق في سنة ٤٠٨ استخرج من الأصول القديمة التي كانت تحت يده بمكتبة سابور و مكتبة استاذة الشريف المرتضى أحاديث الاحكام، فألف تهذيب الاحكام و ألف الاستبصار و الف مصباح المتهجد أيضاً في الادعية و الاعمال و استخرج فيه من تلك الاصول مقدار ما يتحمّله العباد من المتهجدين.

مصادر الادعية التي وصلت الى السيد ابن طاووس:

و قد سلمت طائفة من مصادر الادعية الى القرن السابع من حريق مكتبة

سابور بكرخ و وصلت الى يد السيد رضي الدين ابن طاووس رحمه الله المتوفى سنة ٦٦٤.

يقول : في الفصل الثاني و الاربعين من كتابه كشف المحجة الذي ألفه لولده: «انه هياً الله جلّ جلاله لك على يدي كتباً كثيرة ... و هياً الله جلّ جلاله عندي عدة مجلدات في الدعوات اكثر من ستين مجلداً»^(١) و عند ما كتب السيد ابن طاووس كتاب مهج الدعوات كان لديه نيفاً و سبعين مجلداً من كتب الدعاء. يقول في آخر كتاب مهج الدعوات : «هذا آخر ما وقع في خاطر ... و لو أردنا اثبات اضعافه و كلما عرفناه كنا خرجنا عما قصدناه فإن في خزانة كتبنا في هذه الاوقات أكثر من سبعين مجلداً في الدعوات»^(٢).

و ذكر السيد في كتابه (اليقين) الذي هو من أواخر تصانيفه انه بلغت عدّة كتب الأدعية عنده الى سبعين كتاباً»^(٣).

الف و خمسمائة مصدر للحديث والدعاء عند السيد ابن طاووس:
و عند ما ألف السيد كتابه الكبير في الدعاء «الاقبال» كان له على ما يقول الشهيد في مجموعته التي نقلها الجبعي عن خطّه، الف و خمسمائة كتاباً و كان ذلك في سنة ٦٥٠ هـ التي فرغ منها السيد رضي الدين ابن طاووس رحمه الله من كتاب الاقبال. يقول الشهيد : «كان جرى ملكه على الف و خمسمائة كتاباً في سنة ٦٥٠»^(٤).

(١) كشف المحجة لثمره المهجة ، لابن طاووس . (٢) مهج الدعوات ، لابن طاووس .

(٤) الذريعة : ٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) الذريعة : ٢ / ٢٦٥ .

خمسـة عشر كتاباً للسيد ابن طاووس في الادعية والاذكار :

يقول السيد ابن طاووس في كتابه «فلاح السائل» أنه بعد ما قرأ كتاب «المصباح الكبير» في الادعية لجدّه لأئمّه الشيخ ابي جعفر الطوسي، وجد فيه خيراً كثيراً، إلاّ أنّه عثر على اضافات كثيرة لم يلحقه الشيخ الطوسي بكتابه فعزم على تأليف مستدرك على كتاب المصباح الكبير في خمسـة عشر مجلداً باسم «تتمات مصباح المتهجد و مهمّات في صلاح المتعبّد». قال في مقدمة كتاب فلاح السائل : «و ها أنا مرتب ذلك مستعيناً بالله جلّ جلاله في عدة مجلدات يحسب ما أرجوه من المهمّات و التتمات.

المجلد الأوّل: اسميته «فلاح السائل» في عمل يوم و ليله و هو مجلدان.

و المجلد الثالث: اسميته كتاب «زهرة الربيع في ادعية الاسابيع».

و المجلد الرابع: اسميته كتاب «جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع».

و المجلد الخامس: اسميته «الدروع الواقية من الاخطار».

و المجلد السادس: اسميته كتاب «المضمار للسباق و اللحاق».

و المجلد السابع: أسميته كتاب «السالك المحتاج الى معرفة مناسك

الحجاج».

و المجلد الثامن و التاسع: اسميتهما كتاب «الاقبال بالاعمال الحسنة

فيما نذكره مما يعمل ميقاتاً واحداً كلّ سنة».

و المجلد العاشر: اسميته كتاب «السعادات بالعبادات التي ليس لها وقت

محتوم و معلوم في الروايات بل وقتها بحسب الحادثات المقتضية و الادوات

المتعلقة بها».

و اذا اتم الله جلّ جلاله هذه الكتب على ما أرجوه من فضله رجوت بأنّ كلّ كتاب منها لم يسبقني فيما أعلم أحد الى مثله، و يكون من ضرورات من يريد قبول العبادات و الاستعداد للمعاد قبل الممات اجزاء، الجزء الأوّل : اسميته - «فلاح السائل و نجاح السائل في عمل يوم و ليله».

و الجزء الثاني: اسميته كتاب «زهرة الربيع في أدعية الاسابيع».

و الجزء الثالث: اسميته كتاب الرجوع في زيارات و زيادات صلوات و دعوات الاسبوع في الليل و النهار.

و الجزء الرابع: اسميته «الاقبال» بالاعمال الحسنة فيما يعمل مرة واحدة كلّ سنة.

و الجزء الخامس: اسميته كتاب «اسرار الصلوات و انوار الدعوات» و هذا الجزء الخامس إن أذن الله جلّ جلاله في تأليفه فإنني أصونه مدة حياتي إلا أن يأذن من له الإذن في بذله لأحد قبل وفاتي»^(١).

مصادر الأدعية المتأخرة عن السيد ابن طاووس :

يقول المحقق الطهراني آقا بزرگ رحمته الله : «ثم ان جمعاً من العلماء قد ألحقوا بما دوّنه السيد ابن طاووس في تصانيفه كثيراً من الادعية و الاعمال المنسوبة ايضاً الى الأئمة عليهم السلام التي كانت مدرجة في الكتب القديمة الدعائية التي لم تكن

عند السيد ابن طاووس و قد حفظت من الحريق و الفرق و الارضة و السوس حتى وصلت اليهم، فأدرجوا تلك الأدعية في تصانيفهم الدعائية.

منهم الشيخ السعيد محمد بن مكي الشهيد في ٧٨٦ هـ ؛ و منهم الشيخ جمال السالكين مؤلف كتاب «المزار» الموجود، و هو أبو العباس أحمد بن فهد الحلبي مؤلف «عدة الداعي» و كتاب «التحصين في صفات العارفين» المتوفى ٨٤١ هـ ؛ و منهم الشيخ تقي الدين ابراهيم الكفعمي المتوفى ٩٠٥ هـ ، فإنه ألف «جنة الأمان الواقية» و «البلد الأمين» و «محاسبة النفس» و في كلها الادعية الاذكار الماثورة عن الأئمة، و صرح في أول الجُنة بأنه جمعها من كتب معتمدة على صحتها، مأمور بالتمسك بعروقها و عدّ في «الجُنة» و «البلد» من مصادرهما نيفاً و مائتين كتاباً، ينقل عنهما في متن الكتابين، و كثير منها من الكتب الدعائية القديمة، منها «روضة العابدين» للكراچكي المتوفى سنة ٤٤٩.

و منهم الشيخ البهائي المتوفى سنة ١٠٣١ ، مؤلف «مفتاح الفلاح».

و منهم المحدث الفيض الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ ، مؤلف «خلاصة الاذكار».

و منهم المجلسي المتوفى سنة ١١١١ ، و هو الذي جمع فأوعى فألف بالعربية في مجلدات البحار، و بالفارسية «زاد المعاد» و «تحفة الزائر» و «مقباح المصاييح» و «ربيع الاسابيع» و «مفاتيح الغيب»^(١).



الدعاء

و القضاء و القدر

إنَّ الله تعالى قضاءً و قدراً حتميين في كل شيء لا سبيل للإنسان أن يطلب العدول عنهما و هو الإرادة الالهية الحتمية فما موقع الدعاء من ذلك؟ و هل يمكن أن يغيّر الدعاء أمراً قد تعلقت به مشيئة الله الحتمية، و علم الله تعالى بذلك؟

فما جدوى الدعاء إذن اذا كان الدعاء لا يغيّر من قضاء الله و قدره الحتميين؟

و اذا كان للدعاء أثرٌ و دور في تغيير القضاء و القدر الالهي فكيف يكون ذلك؟

لابدّ للاجابة عن هذا السؤال من الدخول في مسألة القضاء و القدر و البدء ... و اذا كان الدخول في هذه المسألة يخرجنا من أفق الدعاء الى أفق الفلسفة، فإننا سوف نحاول أن نبتعد عن التعقيدات الفلسفية لهذه المسألة و ندخلها برفق و اختصار بقدر ما يتعلق بالاجابة عن هذا السؤال.

قانون العلية في «التاريخ» و «الكون» :

يجري قانون العلية في حركة «التاريخ» و «الكون» بصورة حتمية و عامة من دون استثناء.

﴿إِنَّ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾^(٣).

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾^(٤).

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٥).

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٦).

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٧).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

وَتُعْزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٨).

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾^(٩).

و هذه الآيات و امثالها في القرآن كثيرة، و هي صريحة في أَنَّ الله تعالى

السلطان المطلق على الكون، لا يحده شيء و لا يعجزه شيء و لا يمنعه شيء.

فهو قادر على كل شيء يفعل ما يشاء فقال لما يريد، لا يسأل عن شيء و

هم يسألون، و لا يعجزه شيء.

(٢) الحج : ١٤.

(٤) البقرة : ٢٠.

(٦) آل عمران : ٣٧.

(٨) آل عمران : ٢٦.

(١) شوري : ٤٩.

(٣) هود : ١٠٨.

(٥) البقرة : ١٠٥.

(٧) البقرة : ٢٤٧.

(٩) النساء : ١٣٣.

و قد كان من رأي اليهود أنَّ ارادة الله تعالى محكمة لنظام العلية العام الذي يحكم الكون و التاريخ، و ليس لله تعالى - في رأي اليهود - سلطان على الكون و التاريخ بعد ان خلقهما.

يقول القرآن عن ذلك : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(١).

و ليس في شيء مما قلنا شك و القرآن صريح في كل ذلك و واضح في شجب اليهود فيما يقولون.

علاقة الإرادة الإلهية بقانون العلية :

و في ضوء هذا السلطان الذي يقرره القرآن للارادة الالهية في الكون و التاريخ و المجتمع من الطبيعي ان نتساءل عن علاقة الارادة الالهية بقانون العلية. هل هي التعطيل؟ يعني ان الارادة الالهية تعطل قانون العلية كلما اراد الله تعالى ذلك.

و الجواب عن ذلك بالسلب من دون تردد.

فإن الله تعالى هو خالق العلة و ليس غيره سبحانه، و خلق العلة يساوى خلق العلية بالضرورة، فإذا خلق النار خلق الحرارة كذلك و خلق النار من دون الحرارة، مثل خلق الزوج من دون الزوجية^(٢) فلا يمكن ان يخلق الله تعالى النار من دون أن تكون علة للحرارة إلا أن يقلبها الى شيء آخر غير النار يشبه النار،

(١) المائدة : ٦٤.

(٢) مع فارق يسير و هو أن الاول من لوازم الوجود و الثاني من لوازم الماهية.

فليس من سبيل اذن الى القول بأن سلطان الارادة الالهية على الكون و التاريخ
بمعنى تعطيل قانون العلية.

فما هي العلاقة إذن بين الإرادة الإلهية و قانون العلية؟

حاکمیة الإرادة الالهية على قانون العلية بنفس القانون :

يوضح القرآن الكريم هذه العلاقة في مواضع كثيرة، و يحددها بأن الله تعالى الحاکمية المطلقة و السلطان المطلق على هذا القانون بهذا القانون من دون تعطيل و الغاء له، فلا يعطل القرآن إرادة الله كما يفعل اليهود، و لا يعطل نظام العلية كما يفعل الاشاعرة و انما يقرر حاکمية الله تعالى على الكون بهذا القانون نفسه، فإذا أراد ان يُنعم على قوم أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (١).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (٢).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (٣).

فهو سبحانه ينزل من السماء ماءً بإرسال الرياح للواقع و اذا أراد أن يبشّر قوماً برحمته أرسل عليهم الرياح بُشرا بين يدي رحمته لتثير السحاب و ينزل عليهم الامطار من السماء لتخصب أرضهم بما أودع الله فيها من الرحمة.

فينعم الله على من يريد أن ينعم عليهم اسباب هذه النعمة كما انه تعالى اذا أراد أن ينتقم من أمة لسوء عملها انتقم منهم باسباب العذاب، يقول تعالى في

(٢) فاطر : ٩.

(١) الفرقان : ٢٥.

(٣) الحجر : ٢٢.

تنبيه آل فرعون :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ، وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(١).

فتم عقوبة آل فرعون و تنبيههم بالجذب و القحط، و (السنون) جمع (سنة) و هي بمعنى الجذب و القحط.

فإذا أراد الله ان ينعم على قوم انعم عليهم باسباب النعمة و منها الرياح و السحاب، و اذا أراد ان يعذب قوماً عذبهم بأسباب العذاب، و من ذلك الجذب و القحط، و قلة نزول الامطار.

قانون التسبیب :

و هذا هو قانون «التسبيب» و هو أن يتخذ الله تعالى الى ما يشاء و ما يريد الأسباب التي تحقق مشيئة الله فيما يشاء. و في القرآن شواهد على ذلك، يقول تعالى :

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٢).

و الآية الكريمة واضحة في المعنى الذي نقول، فإن الله تعالى يريد هداية قوم و ضلال قوم (بسبب من اعمالهم) فإذا أراد هداية قوم اتخذ لذلك السبب الذي يحقق ما يريده تعالى فشرح صدرهم للإسلام، و اذا أراد ضلال قوم اتخذ من الاسباب ما يحقق ما يريده تعالى فجعل صدورهم ضيقة حرجة. و يقول

تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَذْمِيرًا﴾ (١).

و اذا أراد الله تعالى هلاك مجتمع (بسبب من اعمالهم) اتخذ لذلك السبب الذي يؤدي الى فسادهم، فآتلفهم، فاستدرج الترف المترفين منهم الى الفسق فحق عليهم العذاب. و يقول تعالى :

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكْوَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّنَايَةِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

لما أراد الله تعالى للمسلمين الذين وقفوا مع رسول ﷺ أن يحق بهم الحق و يقطع دابر الكافرين، اتخذ لهم طريق ذات الشوكة سبباً لذلك.

و كما يجعل الله طريق ذات الشوكة سبباً لتكامل المسلمين و قيمومتهم على الناس و امامتهم لهم على وجه الارض، كذلك يجعل الابتلاء باللين و الترف سبباً لهلاك أمة قضى الله تعالى بهلاكهم. و يقول تعالى :

﴿فَلَا تُفْجِنُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣).

فيجعل الله تعالى من اموالهم و اولادهم سبباً لعذابهم و هلاكهم.

قانون التوفيق :

و قانون التوفيق قريب من قانون التسبب و هو أن يجعل الله تعالى عبده في مجرى اسباب الخير فإذا أراد الله بمريض الشفاء دلّهُ على الطبيب الذي يشخص علته و دلّهُ على الدواء الذي يعالج مرضه.

و اذا أراد الله بعبدٍ خيراً أخذ بيده الى اسباب الهداية والخير. و اذا اراد الله لعبده الرزق أخذ بيده الى اسباب الرزق، و اذا اراد خلاف ذلك حجبهُ عن اسباب الرزق.

السلطان المطلق لارادة الله تعالى في الكون :

و كل ذلك بيد الله تعالى و خاضع لحكمه و سلطانه ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١).

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾^(٢).

﴿ إِنَّ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنَّ يَخْذَ لَكُمْ فِتْنًا ذَا الَّتِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾^(٣).

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾^(٤).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَنَا يُرِيدُ ﴾^(٥).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾^(٦).

(٢) الطلاق : ٣.

(١) فاطر : ٢.

(٤) الرعد : ١٢.

(٣) آل عمران : ١٦٠.

(٦) الحج : ١٤.

(٥) هود : ١٠٨.

و هو معنى هيمنة الله تعالى على الكون : ﴿أَتَلِكُ الْقُدُّوسَ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَّهِنُ﴾^(١).

في العلاقة بين ارادة الله وقانون العلية :

والقول الفصل في العلاقة بين ارادة الله وقانون العلية ان قانون العلية نافذ في الكون نفوذاً حتمياً و عاماً.

غير أن هذا القانون محكوم لمشيئة الله تعالى و ليس حاكماً و ارادة الله تعالى حاكمة عليه. و ليس معنى حاكمية ارادة الله الغاء هذا القانون و تعطيله، و كيف يمكن ذلك و هو من خلق الله تعالى كما اسلفنا. و لكن الله تعالى يحو من هذه الاسباب ما يشاء، و يثبت منها ما يشاء و يتصرف في هذا الكون كما يشاء فيعز من يشاء و يذل من يشاء بأسباب العز و الذل.

و من أجل ذلك فليس بوسع الانسان ان يقرأ مستقبل الكون و التاريخ من ناحية الاسباب و العلل لان مشيئة الله تتدخل في الأمر فتغير من هذه الاسباب و العلل كما يريد الله.

فقد يقاتل جيش قوي جيشاً ضعيفاً فإذا أراد أحدنا ان يقرأ مستقبل الصراع بين هذين الجيشين يتكهن للجيش القوي بالنصر و للجيش الضعيف، بالهزيمة، غير ان الله تعالى اذا أراد أن ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة هيأ لذلك اسباباً لم تكن بالحسبان فألقي في قلوب الفئة الكثيرة الرعب و القى في

قلوب الفئة القليلة القوة و العزم و سد فعل هذه القلّة و لم يسدد فعل الفئة الكثيرة و أوقعها في أخطاء عسكرية و سدّد الفئة القليلة و وفقها و أجرى الامور لما يخدمها؛ فتنصّر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة اذا شاء الله.

و لا تقرر الكثرة و القلة وحدها مصير المعركة كما يظن اولئك الذين لا يؤمنون بالله، و ليس معنى ذلك انّ الكثرة ليست من اسباب النصر، و القلة ليست من اسباب الهزيمة، و أمّا نقول ان للنصر أسباب أخرى و للهزيمة أيضاً أسباب أخرى، و الله تعالى اذا اراد للفئة القليلة النصر هيأ لها اسباب النصر، و هي بيده، و اذا اراد للفئة الكثيرة الهزيمة هيأ لذلك اسبابها و هي بيده : ﴿قَالَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنُهُ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

البداء في التكوين :

و هذا هو معنى البداء في التكوين : تغيير مجرى الاحداث، في الكون و التاريخ بما يريد الله تعالى و كم من مرة وصلت البشرية الى حافة السقوط لو كان قانون العلية هو الحاكم على حياة الناس إلا أن المشيئة الالهية تتدخل في اللحظة المناسبة و تنقذ البشرية من السقوط ... على خلاف ما تقتضيه حركة قانون العلية و ليس معنى ذلك الغاء هذا القانون و تعطيله و انما التحكم فيه من جانب الله عزّ شأنه بهذا القانون نفسه، و هذا التحكم بنتائجه يجري على خلاف ما يفهم الناس و يقرؤه الناس من تسلسل الاسباب و المسببات و العلل و المعلولات.

و هذا التحكم الالهي في قانون العملية الذي يفاجأ الناس، و يضل حساباتهم هو «البداء» الذي وردت فيه روايات كثيرة من طرف أهل البيت عليهم السلام.
و؛ «البداء» يقع التغيير في الكون و التاريخ و المجتمع فيحدث ما لم يكن بالحسبان و ينتصر من لم يتوقع الناس له ان ينتصر، و ينهزم من لم يتوقع الناس له ان ينهزم و يملك الضعيف و تذلل الملوك.

المحو و الاثبات :

و البداء بهذا المعنى هو المحو و الاثبات الذي ورد في كتاب الله تعالى :
﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١).

و «أُمُّ الْكِتَابِ» هو علم الله تعالى و المعبر عنه في السنة الروايات «باللوح المحفوظ» و لا يجري في ذلك محو و لا تغيير، و لا يعلم الله تعالى شيئاً بعد جهل.

و قد روى الصدوق في (اكمال الدين) عن أبي بصير و سماعة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : «من زعم ان الله عزّ و جلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابروا منه»^(٢).

و انما يجري المحو في «كتاب التكوين» و ليس في «أُمُّ الْكِتَابِ» الذي هو علم الله تعالى.

فان علم الله تعالى ثابت لا يتبدل، و التغيير و التبديل يجري في الكون و

المجتمع والتاريخ بالاسباب التي يتخذها الله تعالى لذلك؛ روى العياشي عن ابن سنان عن ابي عبدالله عليه السلام أنه قال : «إِنَّ اللَّهَ يَقْدَمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ، وَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ مَا يَشَاءُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ وَقَالَ فَكُلُّ أَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْنَعَهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَبْدُو لَهُ إِلَّا وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمِهِ، إِنْ اللَّهَ لَا يَبْدُو لَهُ مِنْ جَهْلٍ»^(١).

و عن عمّار بن موسى عن ابي عبدالله عليه السلام :

«سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ يَمْحُو اللَّهُ، قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ كِتَابُ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ، وَيَثْبِتُ، فَمَنْ ذَلِكَ يَرُدُّ الدَّعَاءَ الْقَضَاءُ وَ ذَلِكَ الدَّعَاءُ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ الَّذِي يُرَدُّ بِهِ الْقَضَاءُ حَتَّى إِذَا صَارَ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يَفْنِ الدَّعَاءُ فِيهِ شَيْئاً»^(٢).

فيثبت الله تعالى إِدْنَ، ما يشاء من النظام الكوني الذي يجري بأمره بموجب قانون العلية و يمحو ما يشاء، فقد يستوجب مرض معين أن يموت صاحبه بالاسباب الطبيعية فيثبت الله تعالى ذلك فتجري الاسباب بما تؤدي اليه بإذنه تعالى و أمره، و قد يمحو الله ذلك اذا شاء فيسبب الله له الشفاء بأسبابه، و ليس بتعطيل الاسباب فيجري المحو في التكوين أمّا في أُمِّ الْكِتَابِ فلا يجري محو ولا تغيير، و لا يعلم الله تعالى شيئاً بعد جهل.

و هذا المحو يجري في كتاب التكوين لنظام الاسباب و المسببات بموجب «الحكمة» و «الرحمة» الالهية، فإذا اقتضت «حكمته» أو «رحمته» تعالى تغيير مجرى الاحداث في الكون أو المجتمع هيأ الله تعالى لذلك اسبابه، و محو

ماكان يجري في الكون و المجتمع، لو لا مشيئة الله تعالى بموجب نظام الاسباب و المسببات. و هذا النظام خاضع لأمر الله تعالى في حالتي «المحو» و «الاثبات» و سلطان الله تعالى نافذ عليه، فإذا اثبتته الله جرى بإذنه و أمره، و إذا غيره الله و محاه تبدل بحكمه و سلطانه.

مردود الايمان ب «البداء» :

و الايمان بالبداء يأتي بعد الايمان بالتوحيد في الأهمية؛ فإن القول بنفي البداء بمعنى عزل ارادة الله تعالى عن تدبير الكون و الهيمنة على حركة الكون و المجتمع، و تحكيم نظام العلية و السببية على ارادة الله تعالى كما يقول اليهود : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(١).

و القول الحق الذي يقرره القرآن : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٢) و لا يحد شيء من سلطان الله تعالى و بسط يده في الكون و المجتمع.

و هذا هو المردود الأول في عقيدة الانسان المسلم بالله تعالى و المردود الثاني في علاقته بالله تعالى، فإن الايمان يبسط يدا الله تعالى في كل حال في التغيير و التبديل فيما يتطلبه نظام الاسباب و المسببات يلجأ العبد الى الله تعالى في حاجاته و شؤونه، و أكثر ما يجذب الانسان الى الله و يشده به تعالى الدعاء في الحاجات و المهمّات و الملّمات.

فإذا كان الانسان لا يجد سبيلاً الى تغيير قضاء الله تعالى و قدره و لا يرى

في الدعاء جدوى ولا نفعاً في تغيير مجرى الاحداث لم يلجأ الانسان الى الله تعالى في حاجة أو مهمة. و إنما يلجأ الناس الى الله لانهم يعتقدون ان الله تعالى قضاءين، قضاءً حتماً كتبه الله تعالى في «أُمِّ الْكِتَابِ» لا سبيل الى تغييره و تبديله، و قضاءً معلقاً يجري فيه التغيير و التبديل اذا شاء الله فيلجأ الناس الى الله تعالى في الاجابة لحاجاتهم و دعواتهم.

الدعاء والبداء :

و الامور التي تؤدي الى تدخل الارادة الالهية في تغيير مجرى الاسباب و الاحداث كثيرة منها الايمان و التقوى يقول تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ و منها الشكر : ﴿لَنَنْشُكْرَنَّكُمْ بِأَرْبَعٍ ۖ فَمِنْهُمْ زَوْجٌ مِّنَّا وَمِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ مِّنَّا وَمِنْهُمْ أَهْلُ مَسْجِدٍ يُخْتَلَفُ فِيهِ لَتُبْلَغُنَّ فِيهِ الْمَوْتَىٰ وَأُنذِرَ لِكُلِّ فِتْنَةٍ عَذَابُهُمْ﴾ و منها الاستغفار : ﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١).

و منهما الدعاء و النداء : ﴿وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

﴿وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرُنَا لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

﴿وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فَنجَّيْنَاهُ مِن الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

(٢) الأنبياء : ٧٦.

(١) الانفال : ٣٣.

(٣) الأنبياء : ٨٤.

إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

اذن فإن الله تعالى يحكم النظام الكوني كله بصورة مطلقة و ليس من شيء في الكون يحد من سلطانه و يعجزه، و يجري هذا السلطان بالاسباب نفسه و ليس بتعطيل نظام الاسباب و المسببات و يحو الله ما يشاء من هذا النظام بسلطانه و حكمه و أمره و يثبت ما يشاء بإذنه. و يجري هذا المحو و الاثبات في كتاب التكوين فقط و ليس في «أم الكتاب» و اذا محى الله تعالى شيئاً في التكوين فبحكمته و رحمته، و هذا المحو هو البداء الذي وردت فيه روايات كثيرة من اهل البيت عليهم السلام و الله تعالى يجري البداء بأسباب كثيرة منها الاستغفار و منها التقوى و الايمان و الشكر و منها الدعاء.

و الدعاء من أهم موجبات البداء يقول تعالى :

﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢)



الزيارة
أبعادها التوحيدية
و السياسية

أسرة التوحيد في تاريخ

أسرة التوحيد أسرة واحدة في القرآن، موصولة الحلقات، ورائد هذه الأسرة و
أبوها إبراهيم خليل الرحمن ﷺ.

يقول تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. (١)

و رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء في هذه الأسرة، و به ﷺ تختتم رسالات الله، و
هذه الأسرة شجرة طيبة، ممتدة الجذور، مباركة الأغصان و الفروع، طيبة الثمار،
ممتدة في التاريخ، واحدة بنص القرآن: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُون﴾. (٢)

﴿وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾. (٣)

و للقرآن اهتمام بليغ بإبراز وحدة هذه الأسرة و تماسكها و تمتين العلاقة بين
شرائع و أجزاء هذه الأسرة الواحدة، و تعميق العلاقة داخل هذه الأسرة.
و يدخل هذا الإهتمام في صلب منهج التربية الإسلامية في الإشعار بوحدة

هذه الأسرة، و في تعميق الإحياء بالانتماء إلى هذه الأسرة. و في طرح رموز هذه الأسرة ورجالها الصالحين قدوة و أسوة في حياة الناس.

و في تأكيد وراثته التوحيد و قيم التوحيد داخل هذه الأسرة جيلاً بعد جيل و في تمتين العلاقة بين حلقات هذه الأسرة.

التواصل واللقاء بين اجيال هذه الاسرة :

و فيما يلي أمثلة من إهتمام القرآن بهذا التواصل بين حلقات هذه الأسرة في التاريخ، و ربط الحاضر بالماضي، والفروع بالأصول:

١ - التعارف داخل هذه الأسرة و التذكير بالصالحين من أعضاء هذه الأسرة، و التنوية بأسمائهم، و الإشادة بذكرهم و التعريف بهم، و في القرآن إهتمام كبير بهذا الأمر و اليكم شواهد على هذا الاهتمام:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾^(١)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٢)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٣)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ ضَاقِقًا لُؤْعِدٍ﴾^(٤)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٥)

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾^(٦)

(١) مريم: ٤١.

(١) مريم: ١٦.

(٤) مريم: ٥٤.

(٣) مريم: ٥١.

(٦) ص: ١٧.

(٥) مريم: ٥٦.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَبٍ﴾.^(١)
 ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.^(٢)

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.^(٣)

٢- إقامة العلاقة بين حلقات هذه الأسرة على أساس «السلام» وإنتزاع الغل والحقد والحسد من بين أجيال هذه الأسرة و ربط الحاضر بالماضي والإبناء بالآباء، والخلف بالسلف الصالح من هذه الأسرة على أساس «السلام»، و علاقة السلام من أبرز و أفضل العلاقات داخل هذه الأسرة، يقول تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.^(٤)

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.^(٥)

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾.^(٦)

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسَ﴾.^(٧)

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.^(٨)

و علاقة السلام تقتضي وحدة المنطلق، ووحدة الغاية، و وحدة الخط، ووحدة الاداة في تحقيق تلك الغاية، ووحدة المنهج، ووحدة السلوك والرأي.

(٢) ص: ٤٥ - ٤٦.

(١) ص: ٤١.

(٤) الصفات: ٧٩ - ٨١.

(٣) ص: ٤٨.

(٦) الصفات: ١٢٠.

(٥) الصفات: ١٠٩.

(٨) الصفات: ١٨١.

(٧) الصفات: ١٣٠.

و من دون هذه الوحدة الشاملة لامتني لهذا «السلام».

٣ - علاقة التوارث بين أجيال هذه الأسرة، فirth الخلف الصالح من السلف التوحيد و قيم التوحيد و الدعوة الى التوحيد.

يقول تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾^(٢)

﴿وَالَّذِينَ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(٣)

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِالْكِتَابِ وَآفَأَمُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْعِجُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ﴾^(٤)

و بموجب هذه العلاقة يأخذ الخلف من السلف التوحيد و قيم التوحيد، لينقل بدوره هذه القيم الى الجيل الذي يلي من بعده.

٤ - تعميق الانتماء الى هذه الأسرة، و قد اعتبر الله تعالى إبراهيم عليه السلام رائد هذه الأسرة أباً لكل الموحدين، و اعتبرهم أبناء له.

و هذا الانتماء الواضح و الصريح يربط أجيال هذه الأسرة ببعضها ببعض بأقوى الوشائج و العلاقات.

يقول تعالى:

﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ

الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَتَّكُونَ الرَّسُولَ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

النَّاسِ﴾^(٥)

(٢) غافر: ٥٣.

(١) الصافات: ١٨١.

(٤) الاعراف: ١٧٠.

(٣) المؤمنون: ١٠.

(٥) الحج: ٧٨.

٥- وأمر الله تعالى أجيال هذه الأسره بالاعتداء بالأنبياء والمرسلين والصالحين والصدقين من أعضاء هذه الأسرة من الماضين والمعاصرين.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٢).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾^(٣).

و بعد أن يستعرض القرآن عدداً من أنبياء الله وأوليائه الصالحين يأمر تعالى بالاعتداء بهم و الأخذ بهداهم و الإقتباس مما رزقهم الله تعالى من النور، يقول تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَوَفِّعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَٰدُهُمْ اقْتَدِهْ﴾^(٤).

٦ - علاقة الدعاء: دعاء الجيل اللاحق للجيل السابق و هو من أروع و أفضل العلاقات بين الخلف و السلف، الشهادة من الخلف للسلف بالسبق و الإيمان، و الدعاء الى الله تعالى لهم بالمغفرة و الرحمة.

(٢) الممتحنة: ٤.

(١) الاحزاب: ٢١.

(٤) الانعام: ٨٣ - ٩٠.

(٣) الممتحنة: ٦.

«وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْفِزْ لَنَا وَلاَ غَوَايِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا... رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»^(١)

إذن الارتباط والإنشداد بالسلف الصالح جزء أصيل من منهج هذا الدين في التربية.

و للتواصل والارتباط بين الأجيال في القرآن ثقافة متميزة، يتقف بها القرآن المؤمنين على الارتباط و الإتصال عبر الأجيال داخل الأسرة المسلمة، الممتدة من عهد إبراهيم عليه السلام بل من عصر نوح عليه السلام الى اليوم، عبر أنبياء عظام، أولي العزم مثل موسى بن عمران، و عيسى بن مريم عليهما السلام و من اولئك خاتم الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هذا التواصل و الارتباط من أهم خصائص أيسرة التوحيد^(٢)

الزيارة:

و اذا عرفنا أنَّ «التواصل» و «التوارث» و «التسالم» و «التحاب» و «التلاقي» بين أجيال الموحدين من خصائص هذا الدين ... عرفنا أن الوسائل التي تبلور هذا «اللقاء» بين الأجيال، و تعبر عن مشاعر الخلف تجاه السلف، ... هذه الوسائل تدخل في صميم منهج التربية الاسلامية لتحقيق تلك الغاية.

و زيارة قبور الأنبياء و خلفائهم عليهم السلام و أولياء الله و الصالحين من عباد الله، و السلام عليهم، و الدعاء لهم، و الشهادة لهم باقامة الصلاة و ايتاء الزكاة و الأمر بالمعروف من أهم عوامل تبلور هذا اللقاء بين أجيال المؤمنين.

(٢) نقصد بذلك من لم يشط عن صراط التوحيد.

(١) الحشر: ١٠.

ففي هذه الزيارات التي يألّفها المؤمنون لقبور أولياء الله وقبور المؤمنين و ما يقتزن بها من سلام و دعاء و شهادة يعبر المؤمنون عن هذه المشاعر جميعاً تجاه أمة من المؤمنين سبقتهم بالايمان، و أقامت الصلاة، و أدّت الزكاة، و أمرت بالمعروف، و نهضت عن المنكر، و نضت برسالة الدعوة الى توحيد الله تعالى، قبلها، و وطّأت لها الطريق الى الله، و عبّدت الناس لله تعالى، و رفعت كلمة التوحيد من قبلها بين الناس.

و لا بُدّ لهذا الجميل، من وفاء، و الزيارة تعبير عن هذا الوفاء، و فاء الأبناء للآباء، و لا بُدّ لهذا الدور الرائد في الدعوة الى توحيد الله، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة من شهادة، و الزيارة تعبير عن شهادة الأبناء للآباء، و السلف للخلف.

و الزيارة تعبير عن مشاعر السلام و الحب في علاقة الخلف بالسلف، و تجسيد لما أمر الله تعالى به من التواصل، و التراحم بين المؤمنين و التأسّي بالصالحين، و ذكرهم، و التذكير بهم، و الاشارة بذكرهم.

و قد آلف المؤمنون كل ذلك بصورة فطرية في حياتهم في زيارة قبور الأنبياء و الصالحين بل المؤمنين جميعاً، و قد صحّ ان أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يزورون قبور شهداء احد و قبر حمزة ﷺ، كما صحت الروايات ان فاطمة ﷺ ابنة رسول الله ﷺ كانت تلتزم بزيارة قبر حمزة ﷺ و تقتزن هذه الزيارات غالباً بالصلاة و الدعاء و الذكر و الإقبال على الله؛ و النصوص المأثورة في الزيارات غنية بذلك كلّ.

و من عجب أنَّ بعض المذاهب الاسلامية ينكر على المسلمين الإهتمام بزيارة قبور الأنبياء و أئمة المسلمين و الصالحين و الدعاء و الصلاة عند قبورهم. و يشذّ هؤلاء عن الحالة العامة التي يألفها المسلمون في التردد على قبور الصالحين ، و زيارتهم والدعاء و الصلاة و الذكر عند قبورهم و تعدّ ذلك منكراً من الشرك بالله العظيم.

و لسنا نعرف سبباً لذلك غير أن نقول أنَّ هؤلاء لم يحسنوا فهم هذه الظاهرة الإسلامية و المفاهيم و القيم التي تتضمنها.

ولست ادري أيّ منكر هذا المنكر الذي لم يرتدع المسلمون عنه، مع هذا الإنكار والتشديد الغليظ في المنع عنه منذ نصف قرن.

فإنّما أن نتّهم فهم المسلمين و وعيهم لدينهم جميعاً بعد هذا الإنكار و التشديد في المنع منذ نصف قرن.

وإنّما أن نتّهم هؤلاء في فهمهم للتوحيد و الشرك.
سدّد الله الجميع و أخذ بأيدينا الى مرضاته على صراطه المستقيم.

دراسة للمفاهيم الواردة في نصوص الزيارات :

في نصوص الواردة في زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله و الأئمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام نجد انحاءاً من الأفكار، نشير الى نموذجين منها :

و النحو الاول من الأفكار ما يتعلق بالعلاقة السياسية و الحركية بين الأئمة و الإمام.

و النحو الثاني من الأفكار ما يتعلق بالعلاقة الشخصية القائمة بين الزائر و الإمام.

و سوف نستعرض في هذا المقال المضامين الواردة في الزيارات في كل من هاتين الدائرتين.

البُعد السياسي و الحركي في الزيارات

١- الزيارة في دائرة العلاقة السياسية العامة.

للقضية العقائدية و السياسية مساحة واسعة من نصوص الزيارات المروية عن أهل البيت عليه السلام، و أقصد بالقضية السياسية مسألة الإمامة و الولاية بعد رسول الله صلى الله عليه و آله، و هي ذات صلة وثيقة بكل ماجرى على المسلمين في أيام بني أمية و بني العباس و بعدهما من انحراف عن خط الإسلام الأصيل و فكره و ثقافته.

فقد تولّى السلطة في عصور الحكم الاسلامي ناش غير مأمونين على الإسلام و المسلمين و ثروات العالم الاسلامي ؛ فأضروا بالإسلام و المسلمين كثيراً، و كان منهج أهل البيت عليه السلام مقاومة و معارضة الحكومتين المعاصرتين لهم.

و هذه المعارضة و المقاومة السياسية لنظامين قويين غنيين مثل الحكم الأموي و العباسي تركت آثاراً واضحة في أدب التشيع و ثقافته و فكره و عُرف الشيعة أتباع أهل البيت عليه السلام منذ ذلك الحين بـ «الرافضة»، نظراً لرفضهم ولاية خلفاء بني أمية و بني العباس.

و اتخذ الفكر السياسي الشيعي و الأدب السياسي الشيعي لون الرفض منذ أن استلم معاوية الخلافة عصر الإمام الحسن عليه السلام بوسائله و أساليبه المعروفة الى سقوط دولة بني العباس.

و ينعكس هذا الصراع السياسي و المعارضة السياسية على الادعية المروية عن أهل البيت عليه السلام بشكل واضح و بشكل خاص على زيارة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام و الإمام الحسين عليه السلام لأن فترة هذين الإمامين كانت أشدّ الفترات في تاريخ الاسلام في المواجهة و الصراع.

ولعلّ ذلك هو السبب في كثرة الزيارات الواردة للإمام أمير المؤمنين و إبنه الحسين عليه السلام و إختلافها بفارق كمّي و كيفي عن زيارة سائر الأئمة عليه السلام.

و تلخص القضية السياسية في هذه الزيارات كما قلنا في الشهادة و الموقف، و الأولى من شأن القضاء و الثانية من شأن السياسة. و الموقف يأتي بعد الشهادة.

فإن الموقف السياسي في كل صراع و إختلاف يتقرر في دائرة القضاء، و القضاء الحق هو الحكم الحاسم بين فريقَي الصراع، و عندئذ، و في ضوء الحكم الذي يقرره القضاء يتقرر الموقف السياسي.

و أعدل القضاء ضمير الإنسان و الإنصاف الذي أودعه الله تعالى في فطرته. و في هذه المحكمة الإلهية يشهد الزائر لاهل البيت عليه السلام بأن الحق لهم و معهم و يشهد على خصومهم و معارضتهم بالزيغ عن الحق و الميل الى الباطل و الإنحراف في ساحة الصراع و المواجهة.

ثم انطلاقاً من هذه الشهادة... يتخذ الموقف السياسي من الفريقين المتصارعين معاً بالولاء و البراءة و الإلتزام و الرفض، و السلام، و الصلاة، و اللعن و سنعرض الآن نصوصاً من الزيارات المروية عن أهل البيت عليه السلام في كلّ من الشهادة و الموقف:

أ - الشهادة :

الشهادة بالرسالة في المرحلة الأولى من الصراع:

و الصراع كما قال عمّار - رحمه الله - صراعان و ليس صراعاً واحداً؛ صراع على التنزيل كما كان في بدر و أحد، و صراع على التأويل، كما كان في الجمل و صفّين و الطف، و كلّ من هذين الصراعين قائم الآن، و له إمتداد في حياتنا المعاصرة.

ونقرأ في زيارة رسول الله ﷺ عن الصراع الأوّل: «أشهد يا رسول الله مع كل شاهد، و أتحمّلها عن كل جاحد: أنك قد بلغت رسالات ربك، و نصحت لأمتك، و جاهدت في سبيل ربك، و احتملت الأذى في جنبه، و دعوت الى سبيله بالحكمة و الموعظة الحسنة الجميلة، و أدّيت الحق الذي كان عليك، و أنك قد رؤفت بالمؤمنين و غلظت على الكافرين، و عبدت الله مخلصاً حتى أتاك اليقين، فبلغ الله بك أشرف محل المكرمين، و أعلى منازل المقرّبين، و أرفع درجات المرسلين حيث لا يلحقك لاحق، و لا يفوقك فائق، و لا يسبقك سابق، و لا يطعم في إدراكك طامع».

و في زيارة قبور شهداء أحد: «وأشهد أنكم قد جاهدتم في الله حقّ جهاده و ذببتم عن دين الله و عن نبيّه، و جدتم بأنفسكم دونه، و أشهد أنكم قُتِلْتُمْ على مناج رسول الله، فجزاكم الله عن نبيّه و عن الإسلام و أهله أفضل الجزاء، و عرفنا وجوهكم في رضوانه مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن اولئك رفيقاً».

الشهادة للإمام ﷺ في المرحلة الثانية من الصراع :

و هذه شهادة يسجلها الزائر في دائرة الصراع على التأويل و الكيم هذه الفقرات في

زيارة امير المؤمنين عليه السلام : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ عَنْ رَسُولِكَ مَا حُمِّلَ وَرَعَى مَا اسْتَحْفَظَ، وَحَفِظَ مَا اسْتَدْوَعَ، وَحَلَلَ حَلَالَكَ، وَحَرَّمَ حَرَامَكَ، وَأَقَامَ أَحْكَامَكَ، وَجَاهَدَ النَّاكِثِينَ فِي سَبِيلِكَ، وَالْقَاسِطِينَ فِي حُكْمِكَ، وَالْمَارْقِينَ عَنْ أَمْرِكَ، صَابِرًا، مُحْتَسِبًا لَا تَأْخُذْهُ فِيكَ لَوْمَةٌ لَانَمَ».

في زيارة المخصوصة بيوم المبعث النبوي الشريف :

« كُنتَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَبًا رَحِيمًا وَعَلَى الْكَافِرِينَ صَبًا وَغُلْظَةً وَغِيطًا، وَلِلْمُؤْمِنِينَ غِيثًا وَخَصْبًا وَعِلْمًا، لَمْ تَقُلْ حَبَّتِكَ، وَلَمْ يَزِغْ قَلْبُكَ، وَلَمْ تَضَعِفْ بِصِيرَتِكَ، وَلَمْ تَجِبْنِ نَفْسَكَ كُنْتَ كَالْجَبَلِ، لَا تَحْرُكُهُ الْعَوَاصِفُ، وَلَا تَزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ قَوِيًّا فِي بَدَنِكَ، مُتَوَاضِعًا فِي نَفْسِكَ، عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ، كَبِيرًا فِي الْأَرْضِ، جَلِيلًا فِي السَّمَاءِ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيكَ مَهْمَزٌ وَلَا لِقَائِلٌ فِيكَ مَغْمَزٌ وَلَا لَخْلُقٍ فِيكَ مَطْمَعٌ وَلَا لِأَحَدٍ عَنْكَ هَوَادَةٌ، يَوْجَدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ عِنْدَكَ قَوِيًّا عَزِيزًا حَتَّى تَأْخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ وَالْقَوِيُّ الْعَزِيزُ عِنْدَكَ ضَعِيفًا حَتَّى تَأْخُذَ مِنْهُ الْحَقُّ».

الشهادة في الحلقة الثانية من الصراع على التأويل :

و الحلقة الأولى من الصراع في دائرة التأويل «صَقَيْنَ»، و الحلقة الثانية منها «الطف». وفي الطف يتبلور هذا الصراع بصورة واضحة، لا لبس فيها لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد.

و في هذا الصراع يقف الحسين عليه السلام مع إثنين و سبعين نفراً من أهل بيته و أصحابه و عصابة مؤمنة غابت عن الطف لسبب أو لآخر في جانب ... و يقف يزيد و آل أمية و جندهم من الشام و العراق في الجانب الآخر.

و في هذا الصراع يظهر كل من الجبهتين المتصارعتين على حقيقته و واقعه من دون لبس، فيبرز الحسين عليه السلام بهدى النبوة، و يظهر يزيد في كبرياء الطفافة والجباورة والمستكبرين.

و كان «الطف» حداً فاصلاً بين هاتين الجبهتين، و لم يبق منذ يوم الطف الى اليوم أحد يلتبس عليه أمر هذا الصراع، ولم يعرف فيه الحق عن الباطل، إلا أن يكون ممن ذهب الله بنورهم، و ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، و جعل على أبصارهم غشاوة.

و في دائرة هذا الصراع يسجل الزائر للحسين عليه السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الشهادة باقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، و يسجل لأولاد الحسين عليهم السلام من بعده في إمتداد هذا الصراع الذي إتصلت حلقاته من بعد الطف بالإمامة و الولاية و القيادة من جانب الله تعالى. فلنقرأ بعض فقرات هذه الشهادة في زيارة الحسين عليه السلام : «أشهد أنك قد بلغت عن الله ما أمرك به ولم تخش أحداً غيره، و جاهدت في سبيله، و عبدته، مخلصاً حتى أتاك اليقين. و أشهد أنكم كلمة التقوى، و العروة الوثقى، و الحجة على من يقى. و أشهد أنك عبد الله و أمينه، بلغت ناصحاً و أديت أميناً، و قُلت صديقاً، و مضيت على يقين، لم تؤثر عمى على هدى، و لم تُمل من حق الى باطل. أشهد أنك قد أقمت الصلاة و آتيت الزكاة و أمرت بالمعروف و نهيت عن المنكر و اتبعت الرسول و تلوت الكتاب حتى تلاوته و دعوت الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة. اشهد انك كنت على بينة من ربك قد بلغت ما أمرت به و قمت بحقه، و صدقت من قبلك غير واهن ولا موهن. أشهد أن الجهاد معك، و أن الحق معك

وإليك وانت أهلهم ومعدنهم، وميراث النبوة عندك».

الشهادة بالوراثه: وهذه الإمامة التي نشهد بها في هذه الزيارة وتلك للحسين عليه السلام وأبنائه من بعده ليست إمامة مبتورة مقطوعة، وإنما تتصل هذه الإمامة بامامة أئمة التوحيد من قبل الحسين عليه السلام في التاريخ منذ آدم عليه السلام ونوح وإبراهيم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي والحسن. والحسين عليه السلام يرث هذه الإمامة بكل قيمها، وتراثها، وتكاليفها ومسؤولياتها، ودعوتها من إبراهيم عليه السلام وذرية إبراهيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. (١)

ويتحمل الحسين عليه السلام مسؤوليات هذه الوراثة في الطف، ويحمل معه الى الطف هذا الميراث الكبير ليحاجج الناس به ويدافع عنه، ويقا تل دونه، وهذا البلاغ المبين لهذه الرسالة التي ورثها الحسين عليه السلام من آل إبراهيم وآل عمران. فيشهد الزائر للحسين عليه السلام بهذه الوراثة في وسط المعركة الضارية، ويسجل هنا بوضوح أن صراع الحسين عليه السلام ضد يزيد ليس مفصلاً عن صراع إبراهيم لنمرود، ولا عن صراع موسى عليه السلام لفرعون، ولا عن صراع رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي سفيان، وصراع علي عليه السلام ومعاوية هذا أولاً.

وثانياً: أن محور هذا الصراع وروحه هو التوحيد في كل مراحلهم وحلقاتهم. وثالثاً: أن الميراث الذي ورثه الحسين عليه السلام من آل إبراهيم وآل عمران، ونهض به في الطف، لم يتخل عنه من بعده ذرية الحسين عليه السلام الذين ورثوا الحسين

وأتباعهم و أنصارهم من الذين ساروا على هدى آل إبراهيم و آل عمران من المسلمين. ولنقرأ معاً هذه الفقرات الواردة في زيارة وارث في الشهادة للحسين عليه السلام بوراة الصالحين:

«السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، اسلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله، السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله».

و هذه الوراة لآل إبراهيم و آل عمران و إن كانت في سُلالة نسيّة واحدة كما يقول القرآن: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.^(١)

إلا أنها عنوان آخر غير عنوان الإنتساب الذري الى رسول الله صلى الله عليه وآله و أمير المؤمنين عليه السلام بالنبوة بدليل ورود هذا العنوان مباشرة بعد هذه الشهادة: «السلام عليك يا بن محمد المصطفى، السلام عليك يا بن علي المرتضى، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء، السلام عليك يا بن خديجة الكبرى».

الشاهد والمشهدود:

والعلاقة في نصوص الشهادة في الزيارات بين الشاهد و المشهدود غريبة في نوعها؛ ففي هذه الشهادات يشهد الزائر للمزور بـ «أنك قد أقمت الصلاة و آتيت الزكاة و أمرت بالمعروف و نهيت عن المنكر و جاهدت في سبيل الله حق جهاد».

فيكون الزائر الشاهد و المشهدود له المزور. و عكس ذلك صحيح أيضاً.

فإن أنبياء الله و رُسُلُه و أوصيائهم شهداء على الأمم و رسول الله صلى الله عليه وآله و أوصياؤه شهداء على هذه الأمة، يقول تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾. (١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا﴾. (٢)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. (٣)

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾. (٤)

﴿قُلْ وَلِيكَ مَعَ الَّذِينَ اتَّخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدُيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ﴾. (٥)

فينقلب الزائرون من موقع الشاهد الى المشهود، و ينقلب الذين نقصدهم بالزيارة و نشهد لهم بالصلاة و الزكاة و الأمر بالمعروف و الجهاد من موقع المشهود له الى موقع الشاهد.

وقد ورد في نصوص الزيارات: «أنتم الصراط الأقوم و شهداء دارالفناء و شفعاء دارالبقاء».

و ورد في الزيارة الثامنة لأمير المؤمنين عليه السلام:
«مُضِيَّتَ لِلَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ شَهِيدًا وَ شَاهِدًا وَمَشْهُودًا».

(٢) الاحزاب: ٤٥.

(١) النحل: ٨٩.

(٤) آل عمران: ١٤٠.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٥) النساء: ٦٩.

ب - الموقف :

والشهادة تستتبع في القضاء الحكم؛

والحكم يستتبع في السياسة الموقف؛

و لابد في الموقف من الوضوح و الصراحة، والقوة و العطاء و توطين النفس للتضحية و الفداء.

والموقف في قضايا من امثال صفين و الطف في تأريخ المسلمين لا يختص بأولئك الذين يعاصرون الحدث فقط، وإنما يتجاوزهم الى كل من يشارك أولئك المعاصرين للحدث في الرضا و السخط و الحب و البغض.

هذا من خصائص أيام الفرقان في التأريخ، التي يفرق الناس فيها الى جبهتين متميزتين و يرتفع اللبس فيها عن كل أحد فلا يخفى فيها الحق و الباطل على أحد من الناس، إلا أن يكون ممن ختم الله على قلوبهم و ذهب بسمعهم و أبصارهم.

و تبقى هذه الأيام تفرق الناس الى فريقين و تشطرهم شطرين بالرضا و السخط، والحب و البغض على إمتداد التأريخ و ترفض الفريق الثالث المتفرج على الساحة و يوم صفين و الطف من ذلك.

إن كل من يُطل على يوم بدر و صفين و الطف عن فهم و إدراك للفريقين المتصارعين فإما أن يقف الى جانب هذا الفريق و يدخل في هذه الجبهة ، أو يقف الى جانب الفريق الآخر و يدخل في الجبهة الثانية و لامناص له من أحدهما... و هذا هو الموقف.

و رحم الله السيد الحميري يعكس هذا الوعي المتقدم للتأريخ و الصراع بين الحق والباطل في التأريخ في آيات من الشعر ملؤها الوعي و تحسس مسؤولية الموقف، حيث يقول:

إني أدين بما دان الوصي به يوم الربيعة^(١) من قيل المحلينا
و بالذي دان يوم النهر^(٢) دنتُ له وصافحت كفه كفي بصفيانا
تلك الدماء جميعاً ربّ في عُنقي ومثله معه آمين آمينا

فإن الذي جرى في صفين و الطف من الصراع، صراع حقيقي و حضاري لم ينقطع برفع المصاحف و تحكيم الحكيمين في صفين، و بمصرع الحسين عليه السلام و أصحابه في الطف و إنما خُصّصَت صفين و الطف بالذكر، لأن الحروب الفاصلة في التاريخ الإسلام في رأيي ثلاثة: بدر و صفين و الطف و هي أيام الفرقان الثلاثة في تاريخ الإسلام.

و تمتد هذه المواجهة، و يمتد هذا الصراع بين الفريقين الى اليوم ... و هذه هو التأريخ و إن هذا التأريخ هو الأساس في التركيب السياسي و الحضاري لحاضر هذه الأمة و لا يمكن و لا يصح فصل «الماضي» عن «الحاضر»: و الأبناء يرثون «المواقع» و «المواقف» عن آبائهم. و أقصد بالموقع الحدث التاريخي، و بالموقف ما يجب على الإنسان من قول و فعل تجاه الحدث، فإذا كانت «الموقعة» صراعاً حضارياً و لم تكن صراعاً على جزيرة في البحر أو مساحة من الأرض فإنها تنتقل من جيل الى آخر، و تخترق الماضي و تتصل بالحاضر و

(١) يوم الربيعة: يوم الجمل.

(٢) يوم النهر: النهروان.

يتوارثها الأبناء عن الآباء و عندئذ لا يمكن فصل «المواقف» عن «المواقع» فتنتقل هذه المواقع الى الجيل الحاضر بما يتطلب من «المواقف» بالنسبة الى كل فريق من الفريقين المتصارعين.

فإن هذا الإرث لا يختص بفريق دون فريق فكما يرث الصالحون موارث الصالحين من المواقع و المواقف كذلك يرث المستكبرون و أتباعهم موارث المستكبرين من المواقع و المواقف و نحن نقرأ في النصوص المروية عن أهل البيت عليه السلام في الزيارة ميراث المواقف بوضوح بصور مختلفة، و إليك بعض النماذج من هذه المواقف.

الولاء و البراءة:

و من أبرز هذه النماذج الولاء لأولياء الله و البراءة من أعداء الله و هذا الولاء و هذه البراءة ليس مفهوماً مجرداً عن ظروف الصراع و المواجهة، و إنما هو جزء لا يتجزأ من الموقف السياسي في هذا الصراع الذي شطر الساحة الاسلامية الى شطرين، فلنقرأ شطراً من هذا الولاء في زيارة الجامعة المعروفة :

«أشهدُ الله و أشهدُكمُ أنني مؤمن بكم و بما امنتم به، كافر بعدوكم و بما كفرتم به، مستبصر بكم و بضلالة من خالفكم، موال لكم و لأوليائكم، مبغض لأعدائكم و معادٍ لهم، سلّم لمن سالمكم و حرب لمن حاربكم، محقّق لما حقّقتم، مبطل لما أبطلتم».

وفي زيارة الحسين عليه السلام: «لعن الله أمة أسست اساس الظلم و الجور عليكم أهل البيت، و لعن الله أمة دفعتكم عن مقامكم و ازالتمكم عن مراتبكم التي ربّكم الله فيها» و «اللهم العن أول ظالم ظلم حق محمد و آل محمد و آخر تابع له على ذلك، اللهم العن

العصاة التي جاهدت الحسين و شايعت و بايعت و تابعت على قتله اللهم، العنهم جميعاً».

وفي زيارة عاشوراء غير المعروفة: «اللهم و هذه يوم تجدد فيه النعمة و تنزل فيه اللعنة على يزيد و آل يزيد و على آل زياد و عمر بن سعد و الشمر. اللهم العنهم و العن من رضي بقولهم و فعلهم من أول و آخر لعناً كثيراً و أصلهم حرّ نارك و اسكنهم جهنم و ساءت مصيراً، و اوجب عليهم و على كلّ من شايعهم و بايعهم و تابعهم و ساعدهم و رضي بفعلهم لعناتك التي لعنت بها كلّ ظالم و كل غاصب و كلّ جاحد، اللهم العن يزيد و آل يزيد و بني مروان جميعاً، اللهم و ضغف غضبك و سخطك و عذابك و نعمتك على أول ظالم ظلم أهل بيت نبيك، اللهم و العن جميع الظالمين لهم و انتقم منهم انك ذو نعمة من المجرمين».

الرضا و السخط :

و يدخل في الولاء و البراءة الرضا و السخط: الرضا عما يرضى به اولياء الله و السخط عما يسخط عليه اولياء الله.

والرضا و السخط و الحب و البغض من أبرز امارات الايمان و مقومات الولاء و البراءة، و هو العمق الحقيقي للموقف السياسي، و الموقف السياسي من دون هذا العمل ضحل غير مقاوم.

و هذا الارتباط و الايمان النفسي هو الذي يمنح الموقف السياسي العمق و المقاومة و الصلابة.

الرضا و السخط في زيارة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام : «اشهد الله و

ملائكته اني راض عن رضيت عنه، ساخط على من سخطت عليه، مُتَبَرِّءٌ ممن ابتُرت منه، موالٍ لمن واليت، معادٍ لمن عاديت، مبغض لمن ابغضت، محب لمن احببت».

وهي فقرة أخرى من الزيارة: «اشهد اني وليّ لمن والاك و عدوّ لمن عاداك و حرب لمن حاربك».

السلم والتسليم:

و من خصائص الموقف: السلم و التسليم، والتسليم مرتبة فوق السلم، فلا بدّ أن يكون الموقف أولاً موقفاً مسالماً مطبوعاً بطابع السلم لله و لرسوله ولأوليائه وعباده الصالحين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً»^(١). و لا يكون مشوباً بشائبة التحدي: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا»^(٢).

ولا طغياناً و استكباراً على الله تعالى: «وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي»^(٣). ولا شقاقاً: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»^(٤).

ولا بد ان يكون الموقف ثانياً قائماً على «التسليم» والطاعة و لرسوله ولاولياء امور المسلمين ولا بد ان يطبع كل من «السلم» و «التسليم» نية العبد و قلبه و عمله و سلوكه في وقت واحد و لا بد ان يكون السلم و التسليم و التبعية في

(٢) التوبة: ٦٣.

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٤) الحج: ٥٣.

(٣) طه: ٨١.

القلب و فإذا كان الامر كذلك و اتصف الموقف السياسي بالسلم و التسليم في النية و العمل و في الباطن و الظاهر فلا يستطيع الناس مجتمعين ان يتحدوا هذا الموقف بموقف عكسي يجتمع عليه الناس و عندئذ يكون الانسان المؤمن لوحده «أمة»، ينهض برسالة الأمة و يمتلك صلابة و مقاومة الأمة كما كان ابونا ابراهيم أبو الانبياء عليه السلام لوحده أمة بنص القرآن: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا خَنِفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)

و من دون السلم و التسليم لا يقوم موقف في التاريخ و اذا جردنا الموقف منهما لا يبقى منه شيء و هما روح كل بيعة لله و لرسوله ولأئمة المسلمين؛ فان البيعة ان يبيع الانسان كل ما آتاه الله من الرأي و الحب و البغض و الجهد و النفس و المال و البنين لله تعالى مرة واحدة و يتجرد من كل شيء لله تعالى ثم لا ينظر وراءه بعد ذلك حسرة على ما باع و متردداً فيما فعل، فقد باع لله كل شيء و قبض الثمن فلا إقالة و لاستقالة و بيع ربيع. ذلك جوهر الموقف من أولياء امور المسلمين و أئمة المؤمنين، تأملوا في النصوص التالية من زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله و اهل بيته أئمة المسلمين عليهم السلام.

في زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله: «قلبي لكم سلم و نصرتي لكم معدة حتى يحكم الله بدينه، فمعكم معكم لا مع عدوكم».

في زيارة الحسن عليه السلام: «ليكن داعي الله ان كان لم يعبك بدني عند استغاثتك و لساني عند استنصارك، قد اجابك قلبي و سمعي و بصري».

وفي زيارة أبي الفضل العباس (عليه السلام): «وقلبي لكم مسلّم وانا لكم تابع و نصرتي لكم معدّة، حتى يحكم الله و هو خير الحاكمين».

وفي زيارة الحسين (عليه السلام) يوم الأربعاء: «وقلبي لقلبك سلم، وأمري لأمركم متّبع، و نصرتي لكم معدّة، حتى يأذن الله لكم، فمعكم معكم لامع عدوكم».

و هذه المعية التي يرددها الزائر في التعبير عن موقفه و ولائه لأئمة المسلمين روح الموقف والولاء. معيّة في السراء و الضراء، و في السّلم و الحرب، و في اليسر و العافية و الشدة و المحنة، و معيّة في الدنيا و في الآخرة ان شاء الله.

الدعاء بالنصر الثّار:

ومن متطلبات الموقف الدعاء بالنصر، فعند ما يكون الموقف صادقاً نابعاً من القلب يطلب الانسان النصر من الله تعالى لامام المسلمين و للمسلمين بكل وسيلة، ومن هذه الوسائل الدعاء بالنصر بين يدي الله تعالى و الدعاء من أفضل هذه الوسائل و أحسنها غير أنّه لا يغني عن العمل و العطاء و التضحية.

وقد ورد الدعاء بهذا المضمون لدعم الموقف السياسي في كثير من نصوص الزيارات المروية عن أهل البيت (عليهم السلام) و اليكم نماذج من ذلك:

في زيارة الامام المنتظر المهدي من آل محمد (عليه السلام) و عجلّ الله تعالى فرجه

تقرأ: «اللهم انصره وانتصر به لدينك، و انصر به اوليائك، اللهم و أظهر به العدل، و أيّده بالنصر، و انصر ناصريه، و اخذل خاذه، و اقسم به جبايرة الكفر، و اقتل الكفّار و المنافقين، و املا به الارض عدلاً، و اظهر به دين نبيك».

و من نماذج ذلك الدعاء للامام المهدي (عليه السلام) «عجل الله تعالى فرجه»

«اللهم انك أيتدت دينك في كلّ أوان بامام اقمته لعبادك و مناراً في بلادك بعد أن اوصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريعة الى رضوانك... اللهم فأوزع لوليك شكر ما أنعمت به عليه، و اوزعنا مثله فيه، و آته من لدنك سلطاناً نصيراً، و افتتح له فتحاً يسيراً و أعنه بركنك الأعز، و اشدّه أزره، و قوّ عضده و راعه بعينك، و احمه بحفظك، و انصره بملائكتك، و امدد بجندك الاغلب، و أقم به كتابك و حدودك و شرائعك و سنن رسولك ﷺ و أحي به ما أماته الظالمون من معالم دينك، و أجل به صدأ الجور عن طريقك، و ابن به الضراء من سبيك، و أزل به الناكبين عن صراطك، و امحق به بغاة قصدك عرجاً، و ألن جانبه لأوليائك، و ابسط يده على اعدائك، و هب لنا رأفته و رحمته و تعطفه و تحنّنه، و اجعلنا له سامعين مطيعين، و في رضاه ساعين و الى نصرته و المدافعة عنه مكثفين».

وفي زيارة الامام صاحب الزمان عليه السلام و «عجل الله تعالى فرجه» ايضاً:

«اللهم انجز لوليك ما وعدته، اللهم اظهر كلمته و أعل دعوته و انصره على عدوه و عدوك، اللهم انصره نصراً عزيزاً، و افتتح له فتحاً يسيراً، اللهم و أعز به الدين بعد الخمول، و اطلع به الحق بعد الافول، و أجل به الظلمة، و اكشف به الغمة، و آمن به البلاد، و أهد به العباد، اللهم املأ به الارض عدلاً و قسطاً كما ملئت ظلماً و جوراً».

الدعاء بالتأثر:

«التأثر» و الدعاء بـ «التأثر» جزء من الموقف؛ ان موقف اسرة التوحيد من ابراهيم عليه السلام بل من نوح عليه السلام الى اليوم موقف واحد، و الخط و المنطلق و الغاية خط واحد و منطلق واحد و غاية واحدة، و يمتد هذا الموقف من لدن ابراهيم عليه السلام الى

ان يظهر المهدي من آل محمد - عجل الله تعالى فرجه - ليختم الله على يده بالنصر و الفتح هذه المسيرة الحافلة بالدماء و الدموع و الفتوحات و الانتكاسات و البأساء و الضراء، ولينتقم الله تعالى به من الذين قتلوا و ظلموا و اضطهدوا قادة هذه المسيرة و أنتمتها و أبناءها و الذين صدّوا عن دين الله.

و اعظم ما مرّ على هذه الاسرة من المصائب و الفتك و الظلم و البطش و القتل مصرع الحسين عليه السلام و اهل بيته و اصحابه عليهم السلام في كربلاء.

فنطلب من الله أن يجعلنا ممن ينتقم به من اولئك الظالمين و امتدادهم و اتباعهم أو ممن رضي بفعلهم.

فإن الثأر ممن يسير على خطهم و ينهج نهجهم و يرضى بفعلهم من الانتقام و الثأر الذي يشفي به الله تعالى قلوب قوم مؤمنين و يغيب به قلوب المنافقين و المشركين.

و قد ورد الدعاء بالثأر كثيراً في نصوص زيارة الحسين عليه السلام وزيارة ولده الامام المهدي - عجل الله تعالى فرجه - .

و من ذلك ما ورد في زيارة عاشوراء غير المعروفة: «اللهم واجعلنا من الطالبين بثأره مع امام عدل تعرّبه الاسلام و أهله يا ربّ العالمين».

الزيارة في دائرة العلاقة الشخصية:

في هذه الدائرة تتضح و تقوى الحالة التبادلية في العلاقة، و ينشط الأخذ و العطاء بين الزائر و المزور.

و اهم الغصال التي تكتسبها العلاقة بين الزائر و المزور في هذه الدائرة هي:

١- الدعاء لرسول الله و أهل بيته و الصلاة عليهم و استنزال الرحمة عليهم من عنده: «اللهم صلّ على محمد و آلّه صلوات تجزل لهم بها من نحلّك و كرامتك، و

تكمل لهم الاشياء من عطاياك و نوافلك، و توفر عليهم الحظ من عوائدك و فوافضلك».

و في زيارة رسول الله ﷺ: «اللهم صلّ على محمد و آل محمد و بارك على محمد و آل محمد، كأفضل ما صليت و باركت و ترحمت و تحننت و سلمت على ابراهيم و آل ابراهيم».

٢- الدعاء له ﷺ: و لأهل بيته ان يجعلهم الله تعالى وسائل لعباده الى رحمته وشفعاء لعباده اليه، في زيارة رسول الله ﷺ: «اللهم اعط محمداً الوسيلة و الشرف و الفضيلة و المنزلة الكريمة، اللهم اعط محمداً اشرف المقام و حباء السلام و شفاعة الاسلام، اللهم الحقنا به غير خزايا و لاتاكثين و لاتادمين».

و في زيارة رسول الله ﷺ: «اللهم واعطه الدرجة و الوسيلة من الجنة و ابعثه المقام المحمود، يغبطه به الاولون و الآخرون».

٣- القوسل برسول الله ﷺ و أهل بيته عليهم السلام و طلب الشفاعة منهم بإذن الله: «فاجعلني اللهم بمحمد و اهل بيته عندك و جيبها في الدنيا و الآخرة، يا رسول الله اني اتوجه بك الى الله ربك و ربي ليغفر لي ذنوبي و يتقبل مني عملي و يقضي لي حوائجي فكن لي شفيعاً عند ربك و ربي، فنعم المسؤول المولى ربي و نعم الشفيع أنت يا محمد عليك و على أهل بيتك السلام».

في زياره أئمة أهل البقيع عليهم السلام: «و هذا مقام من اسرف و أخطأ و استكان، و أقّر بما جنّ، و رجئ بمقامه الخلاص... فكونوا لي شفعاء، فقد وفدت إليكم اذ رغب عنكم أهل الدنيا واتخذوا آيات الله هزواً و استكبروا عنها».

و في زياره حمزة عم رسول الله ﷺ: «أتيتك من شقة طالب فكاك رقبتي من النار و قد أوقرت ظهري ذنوبي و أتيت ما اسخط ربي و لم أجد أحداً أفزع اليه خيراً لي منكم أهل بيت الرحمة فكن لي شفيعاً».

٤- التوجه الى الله تعالى بسؤال صحبتهم و جوارهم في الآخرة و الثبات على

هديهم و صراطهم في الدنيا، و أن نعيش في الدنيا كما عاشوا و نموت على ما ماتوا عليه، و نحشر في زمرةم و معهم في الآخرة كما رزقنا الله هداهم و مودتهم في الدنيا.

ورد في زيارة رسول الله ﷺ: «اللهم و أعوذ بكرم و جهك أن تقيمني مقام الخزي و الذل يوم تهتك فيه الأستار و تبدو فيه الأسرار، و ترعد فيه الفرائص و يوم الحسرة و الندامة، يوم الآفة، يوم الآزقة، يوم التغابن، يوم الفصل، يوم الجزاء، يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة، يوم النفخة، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، يوم النشر، يوم العرض، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يفرّ المرء من أخيه و أمّه و أبيه و صاحبه و بنيه، و يوم تشقق الارض و اكناف السماء، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، يوم يُردون الى الله فيُتَبَوَّه بما عملوا، يوم لا يغني مولئ عم مولئ».

و بعد هذه الجولة بطلب صحبة رسول الله و اولياء الله في ذلك اليوم الرهيب: «اللهم ارحم موقفي في ذلك اليوم و لاتخزني في ذلك الموقف بما جنيت على نفسي، واجعل يا ربّ في ذلك اليوم مع اولئك منطلقي و في زمرة محمد و أهل بيته ﷺ محشري و اجعل حوضه موردي واعطني كتابي يميني».

في زيارة ابي الفضل العباس ﷺ: «فجمع الله بيننا و بينك و بين رسوله و اوليائه».

وورد في بعض نصوص الزيارات: «و ثبت لي قدم صدق مع الحسين و اصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين ﷺ».

و في دعاء علقمة بعد زيارة عاشوراء:

«اللهم احيني حياة محمد و ذرية محمد و امتني مماتهم و توفي علي ملتهم واحشرنني في زمرةم ولا تفرّق بيني و بينهم طرفة عين ابدأ في الدنيا و الآخرة».

و في زيارة عاشوراء غير المعروفة:

«اللهم فصل علي محمد، و آل محمد و اجعل محياي محياهم و مماتي مماتهم، و

لا تفرّق بيني وبينهم في الدنيا والآخرة انك سميع الدعاء». وفي زيارة الجامعة:

«فبنتي الله ابدأ ما حييت على مواليتكم ومحبتكم، ووقّني لطاعتكم، ورزقني شفاعتكم وجعلني من خيار مواليكم التابعين لما دعوتكم اليه وجعلني ممن يقتص آثاركم، ويسلك سبيلكم، ويهدي بهداكم، ويحشر في زمركم، ويكرّ في رجعتكم، ويملك في دولتكم، ويشرف في عافيتكم، ويمكن في ايامكم، وتقّر عينه غداً برؤيتكم».

وفي زيارة ابي الفضل العباس عليه السلام:

«فجمع الله بيننا وبينك وبين رسوله واوليائه في منازل المختبين». وهذه الصورة تتكامل اواصر العلاقة بين الزائر والمزور. وهي علاقة متبادلة، فيها دعاء وسلام وصلوات على المزور من ناحية الزائر، وفيها الدعاء من الله بطلب شفاعته المزور وصحبته في الدار الآخرة، والواسطة في هذه العلاقة في كل من الطرفين هو الله، فهو سبحانه وتعالى المسؤول أولاً واخيراً.

اهم المصادر و المراجع

١. نهج البلاغه، تحقيق: د. الصبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧.
٢. ابن بابويه القمي، ابو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين، أمالي، المطبعة الحيدرية، النجف، ٣٨١ق.
٣. ابن بابويه القمي، الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى، الخصال، المطبعة الحيدرية في النجف، قم، ٣٨١ق.
٤. — ثواب الاعمال، المطبعة الحيدرية، النجف، ٣٨١ق.
٥. — من لا يحضره الفقيه، دارالكتب الاسلاميه، تهران، ٣٨١ق.
٦. — علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، ٣٨١ق.
٧. — معاني الاخبار، على اكبر غفاري، مكتبة الصدوق، تهران، ٣٨١ق.
٨. الآمدي، عبدالواحد - من علماء القرن الخامس الهجري - غرر الحكم، تحقيق: الحاج محمد علي الأنصاري القمي، تهران.
٩. البرقي، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد، المحاسن، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٤ق.
١٠. الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، احياء التراث العربي، بيروت، ١١٠٤ق.
١١. الحلي، احمد بن فهد، عدّة الداعي، مكتبة الوجداني، قم، ٨٤١ق.
١٢. الحلي، الشيخ الفقيه ابي جعفر محمد بن منصور بن احمد بن ادریس، السرائر، مؤسسة النشر الاسلامي، جماعة المدرسين، قم، ٥٩٨ق.
١٣. الحميدي، ابو العباس عبدالله جعفر، - من رجال القرن الثالث و الرابع الهجري -، قرب

الاسناد، المطبعة الحيدرية، النجف.

١٤. الديلمي، الشيخ محمد الحسن، إرشاد القلوب، المطبعة الحيدرية، النجف.

١٥. الرازي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، المكتبة الاسلامية، طهران، تحقيق: علي أكبر غفاري.

١٦. الزنجاني، عبد الرحيم افشاري، الصحيفة السجادية، الإمام السجاد عليه السلام، دفتر انتشارات اسلامي، جماعة المدرسين، قم.

١٧. السلمي السمرقندي، أبو النصر محمد بن مسعود بن عياش، تفسير العياشي، تحقيق: رسول محلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، تهران.

١٨. الطاوس، أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد، فلاح السائل، دفتر تبليغات اسلامي، قم، ٦٤٠ ق.

١٩. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيلي، قم.

٢٠. الطبرسي، أبو نصر الحسن بن الفضل، مكارم الاخلاق، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢١. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، أمالي الشيخ الطوسي، الداوري، قم، ٤٦٠ ق.

٢٢. الطهراني، الشيخ آقابزرگ، الذريعة، دارالرضاء، بيروت.

٢٣. المروس الحويزي، الشيخ عبد علي بن جمعة، نور الشقيلين، رسول محلاتي، افست علميه، قم.

٢٤. العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد (ره)، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان، الاختصاص، جماعة المدرسين، قم، ٤١٦ ق.

٢٥. فيض كاشاني، ملا محسن، تفسير الصافي، كتاب فروشي محمودي.

٢٦. القمي، الشيخ عباس، مفاتيح الجنان، مطبعة الأعلمي، تهران.

٢٧. الكشي، أبو عمرو محمد بن عمر بن عبدالعزيز، رجال الكشي، مؤسسة الاعلمي

للمطبوعات، كربلا.

٢٨. الكفعمي، الشيخ ابراهيم، بلد الامين.

٢٩. الكفعمي، تقى الدين ابراهيم بن على، محاسبة النفس، مؤسسة قائم آل محمد.

٣٠. المجلسي، الشيخ محمدباقر، بحار الانوار، دار الإحياء التراث العربي، بيروت.

٣١. محمدى رى شهرى، ميزان الحكمة، مكتب الاعلام الاسلامي، قم.

٣٢. المفيد، الارشاد.

٣٣. الملكى التبريزى، الحاج الميرزا جواد آقا، المراقبات، مكتبة الشفيعى،

اصفهان، ١٣٤٣ق.

٣٤. الملكى، الحاج ميرزا جواد، بقاء الله، مصطفى، قم، ١٣٤٢ق.

٣٥. الهندي، علاء الدين على المتقى بن حسام الدين، كنز العمال، مكتبة التراث الاسلامي،

حلب، ٩٧٥ق.

٣٦. مصباح الشريعة، المنتسب إلى الامام جعفر الصادق (عليه السلام)، مؤسسة الاعلمي

للمطبوعات، بيروت.

الكتب المطبوعة لمنشورات جامعة المصطفى العالمية

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة وال سنة
١	ابن تيميه ومنهجه في الحديث	سعيد حماد	عربي	اول، ١٣٨٧
٢	آثار و بركات نماز	رجب علي حيدري مظفرنگري	اردو	اول، ١٣٨٦
٣	آزادي اراده انسان در كلام اسلامي	طاهره روحاني، حليمه حسيني	فارسي	اول، ١٣٨١
٤	آشنايي با اديان بزرگ	حسين توفيلي	فارسي	دهم، ١٣٨٧
٥	آشنايي با تاريخ و تفسير مفسران	حسين علوي مهر	فارسي	اول، ١٣٨٤
٦	آشنايي با تاريخ و منابع حديثي	دکتر علي نصيري	فارسي	اول، ١٣٨٥
٧	آشنايي با جوامع حديثي شيعة و اهل سنت	دکتر علي نصيري	فارسي	اول، ١٣٨٥
٨	آشنايي با صحيفه سجاده	محمد علي مجد فقهي	فارسي	اول، ١٣٨٥
٩	آشنايي با متون حديث و نهج البلاغه	مهدي مهريزي	فارسي	سوم، ١٣٨٥
١٠	آفتاب فقاہت از زندگي مقام معظم رهبري	محمد ياقوب بشوي	اردو	اول، ١٣٨٢
١١	آموزش احکام (مهراد با استشارات مقام معظم رهبري)	محمد حسين للازمزاده	فارسي	سوم، ١٣٨٦
١٢	آموزش صرف	سيد قسم حسيني، غلامعلي صفائي و مسعود ملكي	فارسي	دوم، ١٣٧٩
١٣	آموزش فارسي به فارسي (كتب دوم و سوم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامي	فارسي	سوم، ١٣٨٢
١٤	آموزش فارسي به فارسي (كتب چهارم و پنجم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامي	فارسي	سوم، ١٣٨٢
١٥	آموزش فارسي به فارسي (كتب ششم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامي	فارسي	اول، ١٣٨٣
١٦	آموزش فارسي به فارسي (تمرين كتاب ششم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامي	فارسي	اول، ١٣٨٣
١٧	آموزش كلام اسلامي (الاربعين في معاشي)	محمد سعيد مهر	فارسي	اول، ١٣٧٨
١٨	آموزش نماز	محمد زين العابدين ابيهي	بنگلا	اول، ١٣٨٢
١٩	آموزدهاي بنيادين علم اخلاق ج ١، ٢	محمد فتحعلي خاني	فارسي	اول، ١٣٧٩
٢٠	آنچه يك زن مسلمان بايد بداند	مير اشرف العالم	بنگلا	اول، ١٣٨٧
٢١	آيات الاحكام تطبيقي	محمد فاکر ميدي	فارسي	اول، ١٣٨٣
٢٢	احکام و مقررات شکار و صيد	علي اكبر صادقي	فارسي	اول، ١٣٨٥
٢٣	اخلاق تبليغ در سيره رسول الله ﷺ	سيد مرتضي حسيني	فارسي	سوم، ١٣٨٦
٢٤	ادوار الاجتهاد عند الشيعة الامامية	عدنان فرحان ثنا	عربي	اول، ١٣٨٦
٢٥	اسباب النزول القرآني: تاريخ و حقائق	حسن محسن حيدر	عربي	اول، ١٣٨٦
٢٦	اسرار نماز	رجب علي حيدري	اردو	اول، ١٣٨٥
٢٧	اسلام و دموكراسي ليبرال	محمد حنيف طاهري	اردو	اول، ١٣٨٧
٢٨	اسلام و مسيحيت: الهيأت تطبيقي	توليق اسدالله و افضل الدين رحيم الله	آذري	اول، ١٣٨٥
٢٩	اصول تدوين ضوابط و مقررات	گروه قوانين و مقررات	فارسي	اول، ١٣٨٥
٣٠	اعتقاد ما	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم آيت الله العظمى محمد باقر مجلسي	آذري	اول، ١٣٨٥
٣١	اعتقاد ما	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم سيد قمر غلزي	هندي	اول، ١٣٨٣
٣٢	اعتقاد ما	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم محمد نظام الدين	تاميلى	اول، ١٣٨٤
٣٣	عجاز قرآن	سيد رضا مؤيد	فارسي	اول، ١٣٨٦
٣٤	عجاز قرآن از ديدگاه مستشرقان	ولي اسعظم شاهد	فارسي	اول، ١٣٨٧
٣٥	الاحوال الشخصية (الطلاق)	الدكتور السيد محمد كاظم المصطفي	عربي	اول، ١٣٨٢
٣٦	الاحوال الشخصية (النكاح)	السيد محمد النجفي	فارسي	اول، ١٣٨٥
٣٧	احوال الشخصية شيعة الفانستان	عبدالله شافعي	فارسي	اول، ١٣٨٧
٣٨	الاخلاق السياسية في المنهج الاسلامي	السيد شهاب الدين الحسيني	عربي	اول، ١٣٨٣
٣٩	الاخلاق الحضارة	علي حسن الياسري	عربي	اول، ١٣٨٣
٤٠	امام حسن و امام حسين ﷺ از نظر اهل سنت	سيد محمد علي موسوي	اردو	اول، ١٣٨٦

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة والسنة
۲۱	الامام علي و تنمية ثقافة اهل الكوفة	محمد العبادي	عربي	اول، ۱۳۸۱
۲۲	لهجات علوي	سبي و اهتمام فكر اسلامي	اردو	اول، ۱۳۸۷
۲۳	التبليغ مناهجه واساليه	جعفر الجباري	عربي	دوم، ۱۳۸۶
۲۴	التفويض الصامي بين العلم والشرعة	سيد كاظم العبادي	عربي	اول، ۱۳۸۶
۲۵	الخلود في جهنم	محمد عبدالحق كاظم	عربي	اول، ۱۳۸۳
۲۶	الدعاء عند اهل البيت (ع)	محمد مهدي الماصفي	عربي	سوم، ۱۳۸۳
۲۷	الدولة الاسلامية من التوحيد الي المدينة	نزار عيداني	عربي	اول، ۱۳۸۱
۲۸	العدالة الاجتماعية في الاسلام	سيد فاضل موسى جباري	عربي	اول، ۱۳۸۲
۲۹	القصص القرآني	آية الله السيد محمد باقر الحكيم	عربي	دوم، ۱۳۸۳
۵۰	القرواعد الفقهية الاقامة لاضرر، حجية اليقظة و...	الدكتور السيد محمد كاظم المصطفوي	عربي	اول، ۱۳۸۴
۵۱	العقاد الجسماني	شاكر عطية الساعدي	عربي	اول، ۱۳۸۳
۵۲	الهداية في النحو	تصحیح و تعلیق: حسين شير افكن	عربي	دوم، ۱۳۸۷
۵۳	انسان و سرنوشت	شهيد مطهری، مترجم: محمد اشرف شجاع	انكليزي	اول، ۱۳۸۳
۵۴	مندیهای قرآنی شهید مطهری ج ۱	جمعی از مؤلفان	فارسي	اول، ۱۳۸۷
۵۵	اهل بيت (ع) از دیدگاه اهل سنت	سيد ابوالحسن باقری	فارسي	اول، ۱۳۸۴
۵۶	اهل بيت (ع) سفينة النجاة	غلام محمد فخر الدين نجفي	اردو	اول، ۱۳۸۶
۵۷	اهل بيت (ع) كشتي نجات	محمد باقر مقدسي	اردو	اول، ۱۳۸۶
۵۸	ايضاح الحكمة في شرح بداية الحكمة	علي رباني گلپايگانی	عربي	اول، ۱۳۸۷
۵۹	اين است دين اسلام	سيد يونس استروشي	تاجيكي	اول، ۱۳۸۶
۶۰	يا زكشت به عصر دين	احمد رضا مير حاجي، مترجم: قلدي چليك	افغاني	اول، ۱۳۸۲
۶۱	بر درگاه دوست	آية الله صاحبزاده، مترجم: محمد لويش والدين	المانی	اول، ۱۳۸۳
۶۲	بررسی و تحلیل وجود جن و کارکردهای آن	سيد مراد رضا رضوي	اردو	اول، ۱۳۸۶
۶۳	بطن قرآن از دیدگاه شیعه و اهل سنت	حیدر طباطبایی	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۶۴	پله پله تا آسمان علم	محمد عابدي	فارسي	دوم، ۱۳۸۶
۶۵	تاریخ اسلام	مهدي پيشوايي، مترجم: عبدالحکيم کمالی	تاجيكي	اول، ۱۳۸۷
۶۶	تاریخ تشیع در افغانستان	عبدالمجید ناصري داوودي	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۶۷	تاریخ حدیث	دکتر سيد رضا مؤدب	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۶۸	تاریخ سرگذشت حدیث	علامه عسکری	بنگلا	اول، ۱۳۸۶
۶۹	تاریخ شیعه و اعتقاداتشان	محمد نظام الدين	تاميلي	اول، ۱۳۸۷
۷۰	تاریخ فلک	ولیر عباس حیدري مظفرنگري	اردو	اول، ۱۳۸۳
۷۱	تاریخ فرهنگ و تمدن اسلامي	محمد رضا کاشفي	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۷۲	تاریخ فلسفه اسلامي	حسن مطفي و همکاران	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۷۳	تاریخ قرآن	محمد حسين محمدي	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۷۴	تحریر الاسفل للمولى صدرالدين الشيرازي ج ۱-۳	الدكتور علي الشيرازي	عربي	اول، ۱۳۸۴
۷۵	تحليلي بر انقلاب اسلامي ايران	محمد مهدي باهاپور	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۷۶	ترنم توحيد	مجيد حيدري فر	فارسي	اول، ۱۳۸۷
۷۷	تعليمات علوي	مؤسسه فقه اسلامي	اردو	اول، ۱۳۸۶
۷۸	تعليمات نهج البلاغه	سبي و اهتمام مؤسسه فكر و اسلامي افغانستان	اردو	اول، ۱۳۸۵
۷۹	تفسير آيات ولايت	آيت الله مكرم شيرازي، مترجم: محمد سميع الحق بنگلا	بنگلا	اول، ۱۳۸۲
۸۰	تفسير تطبيقي	دکتر فتح الله نجارزادگان	فارسي	اول، ۱۳۸۳
۸۱	تفسير تطبيقي آية تطهير از دیدگاه اهل بیت و اهل سنت	ابلقار اسماعيل زاده	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۸۲	تفسير تطبيقي آية مودت	لفدا حسين عابدي	فارسي	اول، ۱۳۸۴

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة والسنة
۸۳	تفسير سورة فرقان	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم: جسي و مترجمان	تاجيكي	اول، ۱۳۸۵
۸۴	تفسير سورة نور	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ۱۳۸۶
۸۵	تفسير مقدماني قرآن كريم	دكتور محمد علي رضايفاضلاني	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۸۶	تشيكلات	فراقتي، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ۱۳۸۷
۸۷	جاي پای آفتاب	سيد علي نقي ميرحسيني	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۸۸	الجبر والاختيار	تعریب: حسين الراشدي	عربي	اول، ۱۳۸۶
۸۹	جلوه نور	آيت الله علي سادات پورو، مترجم: محمد امين	استانبولي	اول، ۱۳۸۳
۹۰	جوابات سخنان سپاه صحابه	آيت الله علي كروني، مترجم: سيد ابو محمد قري	ايرودي	اول، ۱۳۸۵
۹۱	جوان و جواني در سيرة اهل بيت (ع)	محمد عارف صدقات	فارسي	اول، ۱۳۸۷
۹۲	چگونه بايان علمي كارشناسي وشد جمله المصطفى	مرتضي رضا خاني	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۹۳	حفظ موضوعي قرآن كريم (مضامنه احكام و اخلاق)	سيد علي ميرفاد نجف آبادي و ديگران	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۹۴	حقوقي اهل بيت (ع) در تفسير اهل سنت	محمد يقوب بشوي	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۹۵	حقيقت محمدية و افراد انسان	امداد توران	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۹۶	حكومت ديني در اديشه امام خميني و مودودي	ضامن علي حبيبي	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۹۷	حوال الحقيقة في ضوء رؤية التوحيد الدين القائل	تحسين البدری	عربي	اول، ۱۳۸۲
۹۸	خدا و صفات خدا دو مكتب ايميه و ما ترديد	حيات الله ناطقي	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۹۹	خدمتات متقابل اسلام و ايران	شهيد مطهری، مترجم: مينا پور كزاد لدرسي، نجلی	انگليسي	اول، ۱۳۸۲
۱۰۰	داستان پيامبران	محمد مهدي اشتهازي، مترجم: محمد حسين آف	روسي	اول، ۱۳۸۶
۱۰۱	داستان هاي پيامبر الانوار	محمد ناصري، مترجم: محمد علي مرتضي	بنگلا	اول، ۱۳۸۲
۱۰۲	درآمدی بر ساختار اداري حكومت اسلامي	عبدالملي محمدی	فارسي	اول، ۱۳۸۷
۱۰۳	درآمدی بر نظام تربيتي اسلام	محمدعلي حاجي دهآبادی	فارسي	اول، ۱۳۷۷
۱۰۴	درآمدی بر تاريخ علم و اصول	مهدي علي پور	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۰۵	درآمدی بر شيعهشناسي	علي رياني گلپايگانی	فارسي	دوم، ۱۳۸۵
۱۰۶	دراسات موجزة في الفهارات و الشروط	آيت الله جعفر السبحاني	عربي	اول، ۱۳۸۱
۱۰۷	در انتظار خورشيد (مقالات همايش دو انتظار خورشيد)	جمعي از مؤلفان	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۱۰۸	در جست وجوي حق (چهار زملاي پس و رسول خدا)	حيدر مظفری روسي	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۰۹	در جست وجوي فرقه ناجيه	ناظم زيات نو	روسي	اول، ۱۳۸۳
۱۱۰	درسنامه تاريخ عصر غيبت	پور سيد آقاي، جيلري، آشوري و حكيم	فارسي	يادهم، ۱۳۸۷
۱۱۱	درسنامه دراية الحديث	دكتور سيد رضا مؤدب	فارسي	اول، ۱۳۸۳
۱۱۲	درسنامه عقايد	دكتور علي شيرواني	فارسي	چهارم، ۱۳۸۶
۱۱۳	درسنامه مفردات قرآن	شهيد غلام علي همامي	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۱۱۴	درسنامه وضع حديث	دكتور ناصر ريفي محمدی	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۱۵	دروس تمهيدية في اصول العقائد	صادق الساعدي	عربي	سوم، ۱۳۸۷
۱۱۶	دروس تمهيدية في الفقه الاستدلالي ج ۱-۲	الشيخ باقر الايرواني	عربي	پنجم، ۱۳۸۶
۱۱۷	دروس في التاريخ عصر النبية	تعریب: انور الرضائي	عربي	اول، ۱۳۸۶
۱۱۸	دروس في البلاغة	الشيخ معين دقيق الماملي	عربي	سوم، ۱۳۸۶
۱۱۹	دروس في شيعة والتبسيم	علي الربيعي، انكليبايگانی، تعريب: نور الرضائي	عربي	اول، ۱۳۸۳
۱۲۰	دروس في الفقه الاستدلالي ج ۱ و ۲	الشيخ باقر الايرواني	عربي	اول، ۱۳۸۲
۱۲۱	دروس في الفقه المعاملات (اليوم)	السيد محمد كاظم المصطفوي	عربي	اول، ۱۳۸۲
۱۲۲	دروس في التاميع والاجامات و التفسيرية للقرآن	محمد علي الرضائي الاصفهاني، تعريب: قاسم فيضی	عربي	اول، ۱۳۸۳
۱۲۳	دروس في التاريخ الاديان	حسين توفيقی، تعريب: انور الرضائي	عربي	دوم، ۱۳۸۳
۱۲۴	دروس في التاريخ الفقه وادواره	آيت الله جعفر السبحاني	عربي	اول، ۱۳۸۳

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة والسنة
۱۲۵	دروس في علم الدراية	ذکر سيد رضا مؤيد، تحرير: قسم قبضتي	عربی	اول، ۱۳۸۲
۱۲۶	دروس في مبادئ الفقه ومعرفة ابوابه	حسن الرضائي	عربی	اول، ۱۳۸۲
۱۲۷	دروس في نصوص الحديث ونهج البلاغة	مهدي المهريزي، تحرير: انور رضائي	عربی	سوم، ۱۳۸۶
۱۲۸	دروس موجزة في علم الرجال والدراية	آيت الله جعفر سبحاني	عربی	سوم، ۱۳۸۵
۱۲۹	دوستي در كتاب سنت	محمد ري شهري، مترجم: حكيم جان كمالف	تاجيكي	۱۳۸۵
۱۳۰	وليله قرآن وعشرت از ديدها شمه و اهل سنت	لفا حسين عابدي	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۱۳۱	وايز آفرينش اهل بيت (علیه السلام)	سيد محمد علي موسوي	فارسي	اول، ۱۳۸۴
۱۳۲	رسالة كوتاه در باب ضيافت الهي	محمد م. خلفان	انگليسي	اول، ۱۳۸۳
۱۳۳	بروايات سهو النبي (صلى الله عليه وآله)	قيصر التميمي	عربی	اول، ۱۳۸۶
۱۳۴	روحانيت و حكومت در افغانستان	محمدي صفدي	فارسي	اول، ۱۳۸۷
۱۳۵	رويايوي تمدن اسلامي و مدرنته	سيد محمد عارف حسيني	فارسي	اول، ۱۳۸۱
۱۳۶	وحياني بر علم سياست و جيش هاي اسلامي معاصر	عبدالله خاين فراني	فارسي	اول، ۱۳۷۸
۱۳۷	زيان تصوير ۱ (بلمه به سوي ساحل)	مركز آموزش زيان و معارف اسلامي	فارسي	۱۳۸۵
۱۳۸	زيان تصوير ۲ (زنگنه)	مركز آموزش زيان و معارف اسلامي	فارسي	اول، ۱۳۸۴
۱۳۹	زيان تصوير ۳ (باسي هاي وحشي)	مركز آموزش زيان و معارف اسلامي	فارسي	اول، ۱۳۸۴
۱۴۰	زيان تصوير ۴ (اسفير)	مركز آموزش زيان و معارف اسلامي	فارسي	اول، ۱۳۸۴
۱۴۱	زنان دين گستر در تاريخ اسلام	طاهره روحاني	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۴۲	زهره (برترين بانوي جهان)	آيت الله مكارم شيرازي، مترجم: جلال حكيم كافي	تاجيكي	اول، ۱۳۸۶
۱۴۳	سفارشات پيامبر به زنان	آكرم خان زباد الله	تاجيكي	اول، ۱۳۸۴
۱۴۴	السلف والسلفيون	نجم الدين طوسي، مترجم: توفيق اسلاف	آذري	اول، ۱۳۸۷
۱۴۵	سنت هاي اجتماعي الهي در قرآن	ذکر احمد مرادخاني نهراني	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۱۴۶	سنت النبي (صلى الله عليه وآله)	علامه طباطبائي	اردو	اول، ۱۳۸۷
۱۴۷	سيد رضي، زندگي و كارنامه	زاهد علي هندي	اردو	اول، ۱۳۸۶
۱۴۸	سير تقويين و تطور تفسير علمي قرآن	ذکر ناصر رفيعي محمدي	فارسي	اول، ۱۳۸۶
۱۴۹	سيره پيشوايان	مهدي پشواي، مترجم: محبي حق رودي اف	آذري	اول، ۱۳۸۵
۱۵۰	سيره تبليغي پيامبر اعظم (صلى الله عليه وآله)	اسرا رضايي	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۱۵۱	سيري در صحيحين	آيت الله نجفي، مترجم: محمد ميرخان	اردو	اول، ۱۳۸۵
۱۵۲	سيمي جهاد و مجاهدان در قرآن (تفسير سورة انفال)	ذکر علي شيرواني	فارسي	سوم، ۱۳۸۶
۱۵۳	شخصيت و حقوق زن در اسلام	جمعي از مؤلفان	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۵۴	شيعه شناسي در تاريخ اسلام	حيدر علي بنگالي	بنگلا	اول، ۱۳۸۵
۱۵۵	صبح انتظار	عزيزاده، مترجم: اخلاق حسين	اردو	اول، ۱۳۸۶
۱۵۶	صف و ستاد در سازمان	گروه امور سازماني	فارسي	اول، ۱۳۸۵
۱۵۷	العدالة الاجتماعية في الاسلام	سيد فاضل موسوي جابري	عربی	اول، ۱۳۸۲
۱۵۸	عدل الهي	شهيد مطهري، مترجم: شجاع علي ميرزا و...	انگليسي	اول، ۱۳۸۳
۱۵۹	علم الدراية المقارن	ذکر سيد رضا مؤيد، تحرير: انور الرضائي	عربی	اول، ۱۳۸۴
۱۶۰	علم الدراية تطبيقي	ذکر سيد رضا مؤيد	فارسي	اول، ۱۳۸۲
۱۶۱	علم الكمال المعاصر	حيدر حب الله	عربی	اول، ۱۳۸۱
۱۶۲	علم و عقل از ديدها مكتب تشكيك	سيد عباس مرتضوي	فارسي	اول، ۱۳۸۱
۱۶۳	غدير شناسي و پاسخ به شبهات	علي اصغر رضواني	اردو	اول، ۱۳۸۶
۱۶۴	فرق و مذاهب كلامي	علي رزائي گلپايگاني	فارسي	چهارم، ۱۳۸۵
۱۶۵	فلسفه اخلاق	محمد فتحعلي خاني	فارسي	اول، ۱۳۷۷
۱۶۶	فلسفه اخلاق	حسن مطلي	فارسي	اول، ۱۳۸۴

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة والنة
١٦٧	فلسفة التربية في الاسلام	السيد نذير الحسنی	عربی	اول، ١٣٨١
١٦٨	في الاخلاق النظرية	السيد عبدالهادی الشریانی	عربی	اول، ١٣٨٣
١٦٩	في رحاب العقيدة ج ١-٣	سيد محمد سيد حكيم، مترجم: مظفر شاه صاحب	اردو	اول، ١٣٨٦
١٧٠	القصص القرآني	سيد محمد باقر حكيم	عربی	دوم، ١٣٨٣
١٧١	قصه كبريا	نظري مفرد، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	١٣٨٧
١٧٢	فضاء المرأة في نظر فقه الشيعة	سيد يعقوب موسوي، مترجم: نيل يعقوبی	عربی	اول، ١٣٨٧
١٧٣	فضاوت زن از دیدگاه فقه شیعه	سيد محمد يعقوب موسوي سنكلاني	فارسي	اول، ١٣٨٥
١٧٤	الفرامع الفقهية (قائمة لأصول حجية اليقين...)	السيد محمد الحسيني القزويني	عربی	دوم، ١٣٨٢
١٧٥	كلام تطبيقي (توحيد، صفات و مدل الهي)	علي رتاني گلپايگانی	فارسي	اول، ١٣٨٣
١٧٦	كلام تطبيقي (نبوت، امامت و معاد)	علي رتاني گلپايگانی	فارسي	اول، ١٣٨٥
١٧٧	كزيده تحف العقول	ابن شعبة حرقي، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ١٣٨٦
١٧٨	كزيده شهاب الاخبار	قاضي قضاير، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ١٣٨٦
١٧٩	كزيده غررالحكم و دورالكلم	قاضي قضاير، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ١٣٨٦
١٨٠	كشتمان فلسفي اسلام و غرب	دكتور سيد حسن حسيني	فارسي	اول، ١٣٨٧
١٨١	مادون چهارده معصوم عليه السلام	احمد مفترق روسي	فارسي	اول، ١٣٨٢
١٨٢	مباني جامعه شناسي	محميد كافي	فارسي	اول، ١٣٨٥
١٨٣	مباني نقد متن الحديث	قاسم البيضاوي	عربی	اول، ١٣٨٥
١٨٤	مباني و روش هاي تفسيری	دكتور محمد كاظم شاکر	فارسي	اول، ١٣٨٢
١٨٥	مجموعه مقالات سمینار افغانستان ج ٢، ١	جمعی از پژوهشگران	فارسي	اول، ١٣٨٢
١٨٦	مجموعه مقالات همایش عالمان دینی افغانستان	مجموع علماء و طلاب جافوری	فارسي	اول، ١٣٨٦
١٨٧	مصحف امام علي عليه السلام	سيد ملاحيم موسوي، مترجم: عبدالله احمد زنگو	انگليسي	اول، ١٣٨٣
١٨٨	مجموع الاموال المتداوله و مواطن الاستعمالها	السيد محمد الحيدري	عربی	اول، ١٣٨١
١٨٩	معرفت شناسي	حسن مملعي	فارسي	اول، ١٣٨٢
١٩٠	معرفت ابواب الفقه (تلخيص تحرير الوسيلة)	محمدين الفقيهي	عربی	چهارم، ١٣٨٥
١٩١	معصومات امت اسلامي (تفسير تطبيقي آيه تطهير)	مؤلف و مترجم: ايلقار اسماعيل زاده	آذري	اول، ١٣٨٢
١٩٢	مكة در بستر تاريخ	نعمت الله صفري فروشاني	فارسي	اول، ١٣٨٦
١٩٣	منتخب ميزان الحكمه ج ١-٢	محمد ري شهري، مترجم: عبدالحكيم كمالی	تاجيكي	اول، ١٣٨٧
١٩٤	منجی (امام مهدي ص) از دیدگاه قرآن و حديث)	ايلقار اسماعيل زاده	آذري	اول، ١٣٨٣
١٩٥	منطق ترجمه قرآن	دكتور محمد علي رضايي اصفهاني	فارسي	اول، ١٣٨٦
١٩٦	منطق تفسير قرآن (اروشها و گرايشهاي تفسيری قرآن)	دكتور محمد علي رضايي اصفهاني	فارسي	اول، ١٣٨٧
١٩٧	منطق تفسير قرآن (اروشها و گرايشهاي تفسيری قرآن)	دكتور محمد علي رضايي اصفهاني	فارسي	دوم، ١٣٨٥
١٩٨	منطق مقدماتي	ابوالفضل روحی	فارسي	اول، ١٣٨٦
١٩٩	موجز الادب العربي	محمد علي آذر شب	عربی	اول، ١٣٧٧
٢٠٠	موردت القرني و اهل العبا	مير سيد علي همناني، مترجم: الياس قاسم اف	تاجيكي	اول، ١٣٨٥
٢٠١	من فيض الخلود	سيد فاضل النوري السوسوي	عربی	اول، ١٣٨٧
٢٠٢	مهدويت و جهاني سازي	علي اصغر رضواني، مترجم: شكر اف	آذري	اول، ١٣٨٧
٢٠٣	سيرات تفسيری اهل بيت عليه السلام	سيد حسين ماشوم	فارسي	اول، ١٣٨٤
٢٠٤	ناندة علي الفلسفة	صادق الساعدي	عربی	سوم، ١٣٨٧
٢٠٥	نحو القرآن	حسن الرضائي	عربی	اول، ١٣٨٣
٢٠٦	نظام حقوقی اسلام	جليل فتواتي	فارسي	اول، ١٣٧٧
٢٠٧	نظريه العرف بين الشريعة والذات	السيد نظير الحسنی	فارسي	اول، ١٣٨٥
٢٠٨	نقد آراء ذهبي	قاسم البيضاوي	عربی	اول، ١٣٨٦

الرقم	عنوان	المؤلف / المترجم	اللغة	الطبعة والسنة
۲۰۹	نقد احادیث مهدویت از دیدگاه اهل سنت	محمد یعقوب بشوی	فارسی	اول، ۱۳۸۲
۲۱۰	نقش جنگهای صلیبی در انتقال تمدن اسلامی به غرب	سید عبدالرئوف رضایی	فارسی	اول، ۱۳۸۷
۲۱۱	نقش حسابداری در توسعه اقتصادی	احمد صادقی گل‌مکتبی - محسن پرویززاده	فارسی	اول، ۱۳۸۵
۲۱۲	نقوش فقیه در عصر فیت امام (عج)	سید شمشاد حسین رضوی	اردو	اول، ۱۳۸۵
۲۱۳	نگین آفرینش	الپاس قاسم‌اف	تاجیکی	اول، ۱۳۸۷
۲۱۴	نگره های عمده در پیوند دین و فلسفه	سید محمد مهدی افضل	فارسی	اول، ۱۳۸۳
۲۱۵	واژه شناسی قرآن مجید	شهید غلامعلی همایی	فارسی	اول، ۱۳۸۳
۲۱۶	وهابیه الحکمة فی شرح نهایة الحکمة	حسین عثمانی الاصفهانی	عربی	اول، ۱۳۸۲
۲۱۷	وحرکت من هم اهل البيت ﷺ	حسین حسن الدریب	عربی	اول، ۱۳۸۵
۲۱۸	ولایت در پرتو آیات	علی جان محمدی (قره‌باغی)	فارسی	اول، ۱۳۸۳
۲۱۹	وهابیت: مبانی فکری و کارنامه عملی	آیت الله جعفر سبحانی، مترجم: یونس محمد نای	هوسا	اول، ۱۳۸۲
۲۲۰	یاد لو	آیت الله مصباح، مترجم: اکبر محمدلف	آذری	اول، ۱۳۸۷
۲۲۱	یوسف قرآن (تفسیر سوره یوسف)	محسن قرائتی، مترجم: امان الله بابایی	تاجیکی	اول، ۱۳۸۴

